# رحيل

روايـة

**الكتاب: رحيـــل**

**الكاتب: نادر منهل حاج عمر**

---

**الطبعة الأولى:** 2018

**جميع الحقوق محفوظة للمؤلف**

**الناشر: دار الزمان**
**للطباعة والنشر والتوزيع**
**فايبر وواتس آب:**
00964 772 4223169
**موبايل:** 00964 750 3598630
E-mail: zeman005@hotmial.com
Website: www.darzaman.net

الإخراج الداخلي: **دار الزمان**
تصميم الغلاف: **م. جمال الأبطح**

Copy Right © Dar Zaman Publishing
لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه
إلا بإذن خاص ومسبق من المؤلف
All right reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted.
without permission in writing from the Author

نادر منهل حاج عمر

# رحيل رواية

## إهداء

إلى الذين خذلتهم

ومنهم أنا

**ن.ح.ع**

## رحيل 1

بعد أن شارفت على الإفلاس، وتوقف العمل كان لابد من البحث. أربيل كانت وجهتي باعتبارها البلد الوحيد الذي وافق على استضافتي.. بعت آخر ما أملك ويمكن بيعه.. سيارتي!.

بيتي في مخيم اليرموك والبيت الريفي في خان الشيح لم يعودا بحكم الواقع قابلين للبيع!.

إنها الحرب التي أتت على كل شيء.

عندما غادرت كنت خائفاً من البقاء لتصبح حياتي ملاحقة كرتونات اللاجئ، خائفاً من مهانات العوز والفاقة، خائفاً من هذا التوحش الطاغي المفاجئ.

منذ طفولتي وأنا أحلم بالبيوت المهدمة فوق رؤوس أصحابها.. تصيبني هذه الكوابيس باستمرار وأشعر بالاختناق.. هذه الكوابيس ظهرت بعد حرب حزيران عام 1967 بعد أن شهدت القصف! وكنت مصاباً برهاب السكاكين الكبيرة، رأيت في الصور ذبح العصابات الصهيونية للمدنيين الفلسطينيين، حدثتني أمي دائماً عن الذبح الذي تعرضت له القرى الفلسطينية عام 1948، وكان ذلك عالقا بروحي..

الآن نرى الذبح قريبا، نرى الهدم... امتلأ قلبي بالرعب على أبنائي.

عملت ثلاث سنوات لأجمع جزءاً من كلفة الرحلة..

كل يوم عمل كان كابوساً حقيقياً، وفي نهاية اليوم يجب أن أكون شخصا آخر أمام عائلتي وأبتسم.. تذكرت رسالة قديمة

لامرأة تقول: سأشقك نصفين أنت أنت، وأنت الآخر، حصل ذلك. كنت أنظر إلى أولادي وأشفق عليهم من اليتم المحتمل.. من التشوه الروحي أو المادي.

كنت أنظر إلى أمي وقد هرمت خلال السنتين بعد الحرب أكثر من الثمانين سنة الماضية وأفكر في سبل إكرامها والمساعدة في تجنيبها أي إحساس بالخوف أو بالعجز أو بالمهانة.

موت أغيد الصغير أدمى قلوبنا.. كان يلعب ممتلئا بالحياة.. هي لحظة من زمن التوحش أخذت منه حياته، ولا زالت تأخذ حياتنا.

أقض مضجعنا اختفاء أشرف، لم تشفع له درجته العلمية، أخذوا زمانه عنوة ربما لأنه كان في الزمان الخطأ في المكان الخطأ.

كم هي موحشة تلك الدروب، تتقاذفنا الرياح، وتصغر أحلامنا، وفي الأفق البعيد تلاشى بريق، ونمضي بلا عنوان غرباء في الزمن الرديء.

كان الطريق وعراً، مقفراً محفوفاً بالضياع، بالموت، مليئاً بالوحدة، والمرارة، يصغر الكون، يتحول إلى صحارى لا ملاذ منها، لا ملاذ فيها!

يحاصرك الاتساع والوحدة، ويغريك السراب في المدى.حين تبدأ الرحلة يبدأ تسرب الأمل، عند تجاوز كل حاجز كنت أشعر بأني أوغل في المجهول،وعند وصولي إلى معبر ربيعة، كنت الوحيد في المعبر فاقتادوني إلى غرفة الأمن لإجراء تحقيق عاجل، أخبرني رجل الأمن الأنيق بابتسامة واثقة أنه لن يأخذ من وقتي طويلاً: لماذا جئت؟ كيف؟ بمن التقيت؟ كيف خرجت من منطقتك؟ من

يسيطر هنا؟ من يسيطر هناك؟ وعندما انضم رجل آخر، أحسست أنني وقعت في مصيدة، «أسماء، نريد أسماء» يقول الرجل الثاني...

أجبت بهدوء في حدود معرفتي، لا أعرف أسماء، لا أحد يخبر الضحايا باسمه، من أين لي أن أعرف؟. استمر الحوار وقتاً طويلاً وفي لحظة أحسست بالمأزق، حين ابتسم الضابط الأنيق مقتنعاً بما قلت، سلمني جواز السفر ومنحت الإذن بالدخول باتجاه أربيل بحثاً عن عمل، أمضيت وقتاً وانطلقت بحثاً عن ملاذ.

في البحث عن السلام لأولادي وصلت هنا.

أضعت في الطريق ما أضعت!.

حين وصلت هنا.. قلت نجوت! ثم سألت نفسي مم نجوت؟!.

كيف لنا أن ننجو من الوطن؟!.

منذ تفتح وعيي كانت دمشق الوطن.

اللجوء في دمشق كان له معنى اللجوء الروحي والمادي.. معنى الوطن.... اللجوء هنا له طعم الفقدان.... كيف ننجو من الشوق إلى دمشق، وقد شربنا ماءها، وتنفسنا هواءها، عشنا حياتها، ليلها ونهارها، بين أزقتها، في ريفها، في حزنها وفرحها، في ألامها وأمالها، عشنا دمشق أهلها وشوارعها، مدارسها وجامعاتها، كنائسها ومساجدها، دمشق الحالمة القادمة عبر العصور.. دمشق العصية على التغاضي.. أو التجاهل.. أوالنسيان.... كل شيء يقاس وفقا لدمشق عاصمة الروح، عاصمة التاريخ والجغرافيا، عاصمة الزمان والمكان... كل شيء يقاس وفقا لدمشق الهواء والماء والنساء والرجال، التراب والصخر، البؤس والشقاء والفرح والحياة.. كل شيء.. كل شي....

اغفروا لي هذا الرحيل..

لا أعرف أين أخطأت، ولكني أفكر دائما بذلك.

لقد كان الوضع جارفاً. أين ضاعت أشيائي؟!.

لم يعد شيء قابلاً للإصلاح وأمنح ما تبقى لي لأولادي، لعل ذلك يكفر عني ما اقترفت.

أفتقد حياتي.. أهلي وأحبابي وأصحابي.. لكن الوقت يمر وأنا أمضي بكل الحنين إلى المجهول!.

## رحيل 2

في الزمن الرث وفي هذا الشرق اللعين، وأنت تدرك أنها بلاد الطريق المسدود للتطور الإنساني، تفكر كيف يمكنك الخروج من الزمان والمكان.. كيف تنقي خلايا الجسد من الجغرافيا والتاريخ.. تفكر كيف تسعى لنيل الغفران ممن خلفتهم وراءك!.

تدور حول نفسك وتفاجئها برحيل جديد. تحمل لعنتك الأبدية معك، تحمل هذا الشرق بداخلك.. يلتقطك الرحيل وتمضي.

هو شغف الهروب إلى الأمام، هي تلك الهزيمة المستمرة في داخلي والعجز الأسطوري عن المواجهة..المواجهة المستحيلة.

أحمل الخوف من الماضي وهزائمه وأمتلئ خوفا من القادم، وأقاوم الرغبة بالبكاء، وأدرك أن الخروج من لعنة الشرق وهم لا يفيد فيه الهروب أو المواجهة...

على مسافة رحيل ووطن تركت ملابسي وحملت عريي وجئت وخلفي صراخ وضجيج يملآن الكون.

صراخ إنساني وضجيج القنابل.. عويل النساء.. بكاء الأطفال والرجال.. وأصوات الحطام.. حطام الأبنية والمركبات والشجر.. والعظم البشري.

لا توجد استثناءات في هذه الحرب اللعينة.

الآن لدينا من الحطام ما يكفي آلاف السنين للوقوف على الأطلال. لدينا من العري ما يكفي من العقاب الإلهي لعشرات أو مئات الآلاف من آدم وحواء!. ألم يكن العري عقوبتهما حين تجاوزا

حدود الإله؟. ها هو شعب بأكمله يبحث عن ورق الشجر يغطي عريه ويشكل لوحة الفاجعة الكونية.

يحصل أن تسجن نفسك خارج الوطن.. مليئا بالخلاص المر من الهلاك في الوطن.. مليئا بالوطن!. ها أنت اليوم تحمل وثيقة سفر زرقاء بلون خيبتك، بلون انتصارك الهزيل وقدرتك على الوصول إلى الضفة الأخرى...

هكذا تخيلت أنك وصلت إلى الضفة الأخرى!. هل تسجن نفسك خارج الوطن، أو تسجن الوطن بعيداً عنك؟؟.

هل قذفته أو قذفك؟.. وتبادلتما القذف حد القطيعة.. حد البكاء المر!!؟؟ ها أنت وحيد هنا مرة أخرى، تنجو إلى الأبد من منطقة اللعنة الأبدية!. بلاد مصابة بلعنة غريبة، تنتفخ بلاهة!.

وأنت لم تعد تناسبك اللعنات.. ولا البلاهة.

## رحيل 3

أن تكون إنسانا شرقيا، يعني أن تشعر بالخوف والقلق، أن تشعر بالندم على ما فعلت، والندم على ما لم تفعل؛ أن تشعر بالدونية، وبالتفوق في آن معا.. أن تشعر بكل شيء سوى أن تكون إنسانا طبيعيا.

ألم تكن تلك خياراتك التي ستدفع ثمنها؟ أو التي ستحصد نتائجها؟

لا اختيار فيما نجبر على الاختيار منه.

كان عليك ذات لعنة أن تختار بين موتين.. ربما أكثر من موتين!. كان عليك أن تختار الميتة الأفضل أو الأسهل أو الأجمل او الأقل بؤساً، الأكثر صمتا....

كان عليك أن تختار ميتة ابنتك فرح ذات التسع سنوات.

أليس واجب الآباء مساعدة أبناءهم على الاختيار؟

كان علي أن أختار في ذلك الحصار أن تموت فرح بسبب نقص الأدوية أو الموت قنصا أو ذبحا بنصل حادة أو طعنا...

أن تختار لا يعني أنك حر.

تركتها تموت أمامي بهدوء.

هي ولا أنا ولا أمها نحب الضجيج.

وأنا ألملم كل قهر الدنيا، ولا أملك سوى عجزي - عندما يدرك الإنسان عجزه ترى أي قهر يعيش فيه؟!.

كنت أتضرع إلى الله أن يبقي لي فرح – ابنتي.

رأيت أحلامها تتساقط وجسدها يزداد ضعفا، ويزداد إحساسي بالعجز وأنا أخرج إلى المناطق القريبة جيئة وذهابا علني أهتدي إلى حل. أبحث بين المعارف والأصدقاء في دائرة الحركة المحدودة..

لا جدوى.. الحرب تأخذ كل شيء في طريقها.

الأم تصرخ: افعل شيئا.

وأنا أرتبك وأخرج مسرعا من البيت الذي فقدت فيه رجولتي- ذلك أنني لا أستطيع فعل شيء -

ألم نعتد في الشرق أن الرجل هو الذي يستطيع أن يفعل كل شيء؟ الرجولة أن تحمي عائلتك من الوحوش.. من الآخرين.. أن تحميها من الجوع والهلاك.. أن تؤمن لهم عيشهم الكريم... أن تحميهم من المرض.. أن تجعلهم سعداء.. أن تكون مَثَلَهم.. بطلهم.

لا تختزل الرجولة في القدرة على الإنجاب! وماذا أنت الآن؟؟.

لم ندرك سريعا أن كل ذلك كان أكبر منا كلنا.. ونحن عاجزون أمام هذا المد من الجنون، هذه الجائحة من الفوضى وغياب العقل...

هي نار تلتهم كل ما في طريقها.

كانت فرح مليئة بالحيوية وعشق الحياة..قدرها أنها ولدت في منطقة اللعنة الأبدية التي تنتج بين حين وحين حرباً من نوع ما بعقيدة ما... بعد أن اطمأننت إلى وجودها تحت الأرض شعرت بارتياح شديد!. بكيت بكل قهر الدنيا وأعلنت عجزي أمام الجميع.

قاد يحيى أحد الأصدقاء صلاة الجنازة أمام القبر، وتم الدفن وقام بدور الملقن... كنا حفنة صغيرة من العاجزين.. جل ما نستطيعه دفن ميت.

كان هذا الميت اليوم ابنتي فرح.

هنا متحف الموت المتجدد كل لحظة وكل نشرة أخبار.. أفلام الرعب أصبحت هزيلة لا قيمة لها أمام هذا الرعب الذي يملأ هواء البلاد.. أرضها.. جوها وبحرها..

عبقرية القتل.. التجديد في القتل.. لا تلجمها الحياة !.

كانت فرح تخرج من المدرسة فرحة راكضة بجديلتيها الطويلتين إلى حضني وتستقر على صدري، أشعر بخفقان قلبها الصغير وهي تطبع قبلة على خدي، أقبلها وأقبل يديها الصغيرتين ونمضي رفقة الطريق إلى المنزل وتحدثني عن أخبارها، عن مدرساتها وصديقاتها، أين لعبت وأين تعثرت، والتصفيق الذي حصلت عليه بسبب تمرين حساب. كل يوم مجموعة من القصص القصيرة ترويها لي في الطريق إلى المنزل وتعيد روايتها بطريقة أخرى إلى أمها في المنزل.

تضحك وتمثل كيف حدث هذا أو ذاك.. ثم تحاول وهي تخلع ثياب المدرسة أن تحزر ماذا طبخت أمها.. تصرخ فرحة إذا كانت أكلة تحبها ويفتر صوتها عند أكلات غير محببة دون أن تقول شيئاً.

انتهت مراسم الدفن سريعا وعدنا بلا أحاديث تقريبا إلى بيوتنا.

الله يرحمها - الله يعوضك - عصفور في الجنة.....

قاسموني بعض عجزي.. أظهروه.. وعبروا عن عجزهم.

في الطريق كنت أفكر بأي وجه سألتقي زوجتي، منذ أن مرضت فرح أصبحت أكثر انطواء.. تشغل نفسها بالجلوس قرب فرح وعندما تنام فرح تشغل نفسها بتنظيف المنزل أو الغسيل أو بترقيع الثياب وتتحاشى النظر إلي...

كانت تقول: يا خالد البنت بتموت قدامنا! وأقول: ماذا أفعل؟.

ثم ننصرف كل إلى زاويته.

أبحث في المسارات المحددة للبحث قريبا من الموت.. بمحاذاته وبمواجهته أحيانا..

وأعود تملؤني الخيبة إلى الحمام حيث أبكي منعزلا..

حين رأتني فرح ذات مرة أبكي قامت إلي من فراشها وعانقتني وبكت وهي تقول «ليش عم تبكي، الله يخليك لا تبكي».

كان يؤلمها أن رأتني على هذا النحو.. عانقتها وخرجت لتدخل مع أمها في نوبة هستيرية من البكاء.

عليك أن تصدق أن هذا يحدث وتدرك أن ذلك لم يكن آخر الكوابيس.

## رحيل 4

في مدن البلاهة الأبدية عليك أن تكون قادراً على البكاء!.

وإذا لم تكن قادراً فهناك من يستخرج منك أقسى دمعاتك، هناك من يعلمك البكاء ويجعلك أكثر مهارة في هذا المجال من أي مجال آخر.. عليك أن تؤوي عجزك لاستلاله لحظة انفجار الرغبة في البكاء، البكاء الذي ينبثق في خلايانا ذات ولادة وذات حياة وذات موت..

كانت الحاجة آمنة مليئة بالحياة، حاضرة دائما في كل المناسبات في عالمها الصغير في بقعة صغيرة من هذا الكون الفسيح، كانت حاضرة بحركاتها المدهشة المثيرة للفرح، للحيوية، بزغاريدها..

في الأعراس كانت تحمل على رأسها صينية القش الكبيرة وفوقها ملابس العريس تمشي بها راقصة بحركات يديها وجسدها مع زفة نسائية في الشارع بطقوس ساحرة كأنها قادمة من عالم سحيق موغل في القدم...

ترش الرز والملح على تجمعات الأعراس والمسيرات والمظاهرات التي تمر أمام بيتها على الشارع الرئيسي، ابريق الشاي والكاسات البلورية الصغيرة حاضرة دائما لعمال النظافة، وعمال الفرن، وعاملي البناء، والطلاب، و... وعابري السبيل...

لم تكن قد حجت، لكنها اكتسبت هذا اللقب من محبيها.

في مسيرات تشييع الشهداء كانت تغني وتزغرد.. وتجاوب النسوة بالزغاريد..

في طفولتي سألت أمي لماذا تزغرد هذه المرأة، إنه شهيد!.

قالت أمي: لأن الشهيد ذاهب إلى الجنة. هي زفة العريس إذاً.

كانت هذه المرأة جزءاً من كمال المشهد في المنطقة: الفرح.. الحزن.. البناء.. الهدم...

في بيتها كانت امرأة مرحة تخفف عن زوجها الذي يعمل في محل لكي الملابس، وكانت تدير المنزل بمحبة جعلت الجميع سعداء.

في الصباحات والمساءات تخرج على الشارع، أمامها ابريق الشاي وتتلقى التحيات من المارة، ترحب بهم، تدعوهم لشرب الشاي.. وتسعد بذلك.

تعرف من نجح، ومن خطب، ومن تزوج، من مرض، ومن سجن، ومن خرج من السجن، من عاد من السفر، من فصل من المدرسة، من تشاجر مع من، تعرف كل شيء... وتشارك مع الجميع وتدفع الناس فيما بينهم للقاء والمحبة..

لماذا لم تزر أمك منذ أسبوعين؟ حرام عليك..

لماذا اختلفت مع أخيك؟ روح صالحه..

كان الجميع يحبها ويقبل ذلك منها. البعض يطلب منها التدخل لحل مسألة عالقة، أو التدخل بزواج ما...

كانت تقف إلى رجال السياسة ورجال الأمن ورجال القانون ورجال الدين، إلى النساء والصبايا والأولاد والأطفال.. إلى كل أصناف الرجال والنساء.

كان ابنها أحد أبناء الحارة الذين التحقوا بالخدمة العسكرية.

في كل حارة يجتمع الأصدقاء، وعادة ما يلتحقون على شكل مجموعات.

كان ابنها حسن وأبناء الجيران إبراهيم ومحمد وأحمد وسعيد ممن التحقوا وتم زجهم في معارك لبنان..

حوصرت بيروت، توقفت الإجازات والغائبون لا يعودون، لن يعود أحد قبل انتهاء المعارك.

الأخبار تتحدث عن القصف العنيف، الطائرات، المقاومة العنيدة، الحصار، الصمود، المواقف الصلبة.. استمرار المقاومة.

كانت آمنة تجلس كل يوم خارج بيتها على الشارع الرئيسي بانتظار ابنها، وأبناء الحارة، ترافقها أشياؤها.. ابريق الشاي والكاسات، وراديو ترانزستور.. أصبحت أكثر هدوءاً.. أقل حيوية، تنسحب إلى داخلها، أضناها الانتظار.

تستمع إلى الأخبار وقلبها يرتجف، هل يستطيع حسن ورفاقه مقاومة آلة الحرب، الطيارات والدبابات، وعشرات آلاف الجنود وأحدث الأسلحة؟. لكنه غض ورفاقه، في بداية العشرينات - كانت تردد.

كان كل من حسن وإبراهيم قائد دبابة، لكن السلاح قديم، كيف سيواجهون؟. كان يقف إليها كثيرون تتحدث إليهم عن الحرب، عن حسن، وأبناء الحارة، عن الفدائيين..... عن الصمت المهين!.

حين انتهت الحرب عاد إبراهيم ومحمد وأحمد، تأخر سعيد قليلا في المشفى،وحسن لم يظهر.! سجل مفقوداً !.

لو عاد شهيداً لزغردت، كنت سأرش الرز والملح على الجنازة مثل كل الشهداء.. لكنه لم يعد - كانت تقول!.

صار لحسن ولد ولم يره! لم يحضر بعد - كانت تكرر في حديثها لمن تلقاه!

الانتظار يسلب آمنة حيويتها، قدرتها على التواصل.

عندما خرج المقاتلون من بيروت إلى بلدان عديدة، كانت آمنة تصرخ، لأول مرة يراها الناس تفقد صبرها، كانت تقول: «الله يرحمك يا أبو الوليد.. الله يرحمك يا أبو علي،إلى أين هذه المرة؟!».

«كيف يخرجون، ولم يعرفوا أين حسن؟ ماذا حل بحسن» «من سيخبرني؟ عاد رفاق حسن، ولم يرجع؟».

كانت تتحدث إلى الجميع بمن فيهم رجال الأمن، مدرسو حسن ورفاقه، أعضاء فريق كرة القدم الذين كان يلعب معهم...

كانت فاطمة زوجة حسن أصرت على تسمية وليدها (حسن) على اسم والده وهو لما يزل تحت الحصار. حاولوا إقناعها بأنه فأل سيء، اختاري اسماً آخر..

لم يكن أحد قادر على ردعها سوى آمنة (أم حسن) التي آثرت الصمت هذه المرة ليصبح ابن حسن على اسم أبيه (حسن).

كانت تجلس الحاجة آمنة في ركنها وملامح الانتظار بادية عليها. لم تفقد الأمل، كانت تنتظر، أصبحت علامة فارقة في هذا المكان.

صارت أقل حركة، تشهد من زاوية انتظارها على ناصية الشارع كل ما يجري حول هذه المنطقة، تجول عيناها في الفضاء، في المارة، تستمع إلى الغيب.. وتحدث نفسها... يتراكم الحزن عميقاً.

قال إبراهيم العائد من بين فكي الموت: في الحرب يجب أن ترتجل، أن تبدع في تلافي الضربات، أن تهاجم، ويمكنك أن تنجو

بضربة حظ!. لقد تفسخت السبطانة ونحن نضرب، كنت أصعد على الردم الناتج عن الدمار، أعتلي أسطح البيوت المنهارة، أواجه الموت، ألاعبه، أستفزه أحياناً، ألاحقه، كان مثيراً أن أراه قريباً وأن أنجو، في كل مرة أنجو فيها كنت أشعر بولادة جديدة، كنت أدور وأهاجم وأعتلي، كانت موسيقى في رأسي تحركني، تقودني، كنت أواجه اليأس، وينتابني الضحك أحياناً، لا طريق سوى المواجهة.. نجوت أكثر من مرة.. مرات كثيرة.

وعندما سألوه عن حسن، قال: أنا كنت محظوظاً، هناك دبابات تحولت إلى أشلاء، لم يخرج أحد منها، لا أعرف ما الذي حصل مع حسن..أطرق رأسه ومضى.

رجعت فاطمة إلى بيت أهلها بعد انقضاء سنة على عودة رفاق حسن بعد معركة طويلة مع الحاجة آمنة، التي لا تريد أن تصدق أن حسن لن يعود!. حسن مفقود!. كانت تقول لفاطمة أن عليها الانتظار.

قالت فاطمة أنها ستنتظر في ركنها الخاص.

كبرت الحاجة آمنة على زاويتها، مات زوجها، أضاف حزنا إلى بؤس انتظارها.

مر وقت طويل، لكنها اختزلت حياتها هنا. لم يعد في العمر بقية - كانت تقول: ذات انتظار سيأتي.. سيأتي.. لا يجب أن أضجر.

قالت لفراس: إذا عاد حسن فليقرأ لي الفاتحة، أخبره أنني انتظرته. أريد أن أبقى هنا وأموت هنا!.

خرجت تحمل ابريقها بانتظار عودة فراس ورفاقه، سيعودون بعد قليل.

كانت تمشي باتجاه زاويتها حين فاجأتها طلقة استقرت في قلبها.. انفجر قلب آمنة الذي امتلأ حباً، وانتظاراً..

سقط جسدها وعيناها بنصف إغماضة، وأنَّة أخيرة، وربما ابتسامة صغيرة في زاوية الفم.

هل كان يعرف من قتلها أين يسدد؟ قلبها الذي عرف طيبته الجميع. صورة أخيرة تم التقاطها: كان البخار يتصاعد من ابريق الشاي الملقى بجانب جسدها، بينما فارقت جسدها حرارة الحياة.

## رحيل 5

هو يوم شتوي بامتياز، يوم من أيام حزيران.

في هذه البلاد - بلاد الغرب يختار الطقس طقسه، هذا اليوم ماطر وبارد بدرجة ما، في تاريخ يوم صيفي في عرف بلادنا!.

هنا يتقلب الطقس، لا يرتبط بفصل اسمه الصيف، أو الشتاء.

هناك من يرصد ويبلغ، وتحمل الناس مظلاتها على النشرة الجوية، في البدء كانت تفوتنا النشرات الجوية..كانت تعنينا الأخبار، وعلى الجو أن يكون صحواً صيفا.

أعود هذا المساء، بعد دورة اللغة إلى السكن مبللاً ورفاقي في السكن والدورة، كنا جميعا مبللين رغم أن المدرسة لا تقع بعيدا عن مقر سكننا.

فيلا تقع في طرف شبه المدينة الجميلة، هي منطقة بين الريف والمدينة، كل شيء فيها جميل ومنظم، الشوارع، السكن، المؤسسات، الحدائق، الأشجار، الغابات، وسائل النقل...

الفيلا تقع على كتف الغابة، مؤلفة من طابقين، كنا نسكن الطابق الأرضي أربعة أفراد: أنا عبد الله وحسن وسعد وخالد.

لا خصوصية في المكان، ستة أسرة، في القاعة الكبيرة، كل سريرين على طابقين، وفسحة جلوس مع طاولة طعام وحمام ومطبخ للجميع.

في الطابق العلوي كان يسكن طالبي لجوء من دول أخرى، وكانوا أربعاً موزعين على غرفتين.

في أمسيات الشوق والحنين كنا نتبادل الحكايا، قصص الرحيل والأحلام! كان يحدث ذلك عادة مساء يوم الجمعة، كل واحد يحكي حكايته، رؤيته، أشواقه، أخباره...

وحين نغوص في أجواء الحزن، كان سعد ماهراً في إعادة الجميع إلى جو من المرح والحياة.

لم يتجاوز سعد الثلاثين وكان شعلة من الحيوية والنشاط وكثيراً ما كان حسن يناديه: «ماذا لديك أيها الماجن؟» وكان سعد يحب ذلك.

في تلك الأمسية وبعد أن جففنا ثيابنا وأعددنا الشاي، قال حسن:

«اليوم دورك يا صاحبي، أخبرنا.. ماذا لديك».

وقف سعد في وسط القاعة، تعلو وجهه ابتسامة، ربط شعره الطويل وأطلق لحيته القريبة إلى الشقرة، ارتدى كنزة رمادية وبنطال جينز وحذاء رياضياً. ظهر طوله الصريح ونحوله كأنما يخاطب جمهوراً عريضا كخطيب متمرس:

حدثنا عن طفولته في قريته التي تقع على رابية، عن آبار غير عميقة، ومياه نظيفة، وأرض خصبة، عن مزرعة وحيوانات، ونحل كثير، وعسل..

حكى عن أسرة كبيرة على شكل قرية، عن رجال طيبين، ونساء عظيمات، عن حب يملأ الأجواء، عن حفلات واحتفالات،عن مختار يسهر لديه الرجال ويحلون مشاكلهم كل يوم، عن مدرسة يتم بناؤها، عن مواسم السليقة، والبندورة، واحتفالات الطهور، عن

الحنة في الأعراس، عن الدبكات، والولائم، عن مشاركته في طفولته مع أقرانه بتمثيل بعض المشاهد في ساحة القرية،التي كانت تلقنهم إياها امرأة جميلة شقية كانوا يحبونها ويحسبون لها حساباً، كان الناس يضحكون للمشاهد التي تتضمن تقليد امرأة حبلى في أشهرها المختلفة، أو تقليد المختار أو بعض الشخصيات المعروفة أو تقديم نكات في جو من البهجة.

حدثنا عن كلاب البراري التي كان يبحث عنها وتبحث عنه. وروى حكاية بنت الجيران التي كان يراقبها من شقوق الصخور بين الجدران الفاصلة بين منزليهما الريفيين،كيف ضبطه والده، وكيف عاقبه.

كيف كان يشتاقها حين يأتي الفصل الدراسي،حين كان عليه أن يسكن في المدينة لمتابعة الدراسة مع أمه وإخوته.

عندما عاد ذات مرة وجدها تزوجت ولم يتجاوز عمرها الخامسة عشر، كيف فرح عندما سمع أن ابنها الثاني يحمل اسمه.

كان يحب في طفولته الذهاب إلى بركة مياة للسباحة، يعتقد أنها بركة رومانية.

«كنا نخلع ملابسنا على جانب البركة ونمضي وقتاً في السباحة هناك، نسبح بملابسنا الداخلية، ذات مرة قمنا أنا وصديقي بسرقة ملابس الجميع بعد أن قام كبيرهم بتغطيس رأسي في الماء بينما يضحك الآخرون، خرجت من الماء بهدوء، أخذت ملابسهم وأحذيتهم، ووضعتها في ساحة القرية، تصوروا مشهد خروجهم وهم يبحثون، كان يوماً يذكره أبناء القرية».

«أتسلق الأشجار، وأقضي وقتاً على أغصانها، أتمدد، أتناول طعاماً، أو فاكهة، او حبة بندورة بالخبز. وكنت أنزل عنها قافزاً، وذات قفزة علق بنطالي الأزرق القصير بطرف غصن وبقيت معلقاً في الهواء لحظات إلى أن تمزق ووقعت مرتطماً بالأرض».

حدثنا عن رفاق راحوا يبحثون عن الذهب، ولم يرق له البحث معهم، بعضهم لم يرجع، وبعضهم غاب عن الحياة في حمى البحث، وآخرون تاهوا في تفاصيل الرموز الموجودة على الأحجار البازلتية وأشكالها وإلى أين تشير، أمضوا أوقاتاً في البحث والتقصي والحفر وتحول العمل إلى هوس مسحورين، دخلوا طريق البحث ولم يخرجوا منه، خسروا الوقت، وكثيراً من الإنسجام. لم يذهب معهم أبداً.

تحدث عن جذوة الحياة التي اتقدت فيه في تلك البقعة، في صباحات الريف الجميلة، عن ركضه في البراري، عن واقع أجمل من الحلم.

وذلك الشغف الذي حمله من هناك حيث لازمته طاقته، يصحو، يترك نومه، يخرج للهواء يركض كأنه يطارد أحلاماً، يجمعها، في فضاء رحب، يعيد صياغتها، جميلة كما الواقع، يدور في حلقة لا تنتهي بين واقع وحلم متشابهي الروعة والجمال، هي طفولة غنية قضاها بين الحقول المزركشة بشقائق النعمان، والزهور البرية البيضاء والصفراء، بفراشات ألفتها البساتين، يذكر ذلك كأنه يحلق في صباحاته مع طيور القرية.

«في المساء تغيب الشمس هناك، تتسلل بعض أشعتها من بين أشجار الغابة الغربية القريبة من البلدة، وبقية ضوء، وأبقى أجلس

القرفصاء أرقب المشهد، أراه كله، لا يزعجني أحد، كأن الجميع يرقب المشهد ذاته في سكون عميق. أستمتع وأركض، أركض، ألهث، ولا أشعر بتعب..

ألعب مع رفاق لا أعرف أسماءهم، لا نتوقف عن اللعب، حتى يصبح العتم شديداً.

أعود إلى البيت منتشياً بالحياة، ممتلئاً بها، وتضحك أمي علي مظهري الذي يشبه العائد من معركة.. أشعر ببعض التعب، أنام ساعات قليلة، وأصحو لأتابع الحياة».

فضاءات ملونة، وأحلام وذكريات، بالأبيض والأسود، بهت لون بعضها، لا أكاد أميزها، لا أكاد أستبين ذكرى من حلم قديم راودني..

أسقط في أفخاخ العقل !.

تتماهى الألوان بين ما كان واقعا أو كان حلماً.

لكني لا أتوقف عن الحركة، أجمع الأحلام الجديدة، وأعيد نشرها على مرمى النظر، أعيد ترتيبها، أستشق عبق الذكريات وأحلام قديمة كأنها جزء من واقع لم يحصل، لن يحصل.

لا أريد لهذا الصخب أن يتوقف!. اللهاث..

أين توقفت؟!

ليس مهماً، أريد لهذه الألوان أن تستمر، لألق الحياة أن يرافقني، أن لا يتوقف الشغف أبداً.

تعالوا للحياة ياهووووووووووووو.

كان يتحدث بين الفصحى والعامية، كأنه نسي وجودنا، يمثل، يعلو صوته وينخفض، كنا نضحك أحيانا.. ويدخل في نوبة من الغناء الأوبرالي.. ساخراً بنوع من العبث والاستهتار.. وندخل في نوبة من الضحك.

## رحيل 6

أوراق.. أوراق، الكثير من الأوراق.

كيف أبدأ؟.

تتزاحم الأحداث، هواجس، أفكار، ذكريات تتمازج وتدور، تختلط مرة أخرى وتعاود الظهور بأشكال مختلفة، ثمة شيء حصل البارحة، وأشياء حصلت قبل عشرات السنين، لا زلنا نعيش آثارها، لا زلنا ندفع ثمناً.

لقد روى أبي كثيراً مما حصل عشرات المرات، كما فعلت أمي، وتشاركا في كثير من الأمسيات رواية تاريخ مشترك شهداه معاً.

أعيد ترتيب ذلك في ذهني محاولاً قراءتها مرة أخرى.

نام حسن وخالد، ولم يرجع سعد بعد،يتأخر سعد دائماً في ليل السبت حتى صباح الأحد بين العمل والمتعة، وغالباً ما تظهر عليه آثار النشوة، رائحة الدخان ورائحة الكحول أحياناً، ومزاج مرتفع، يقف في وسط الغرفة ينظر إلى الجميع ويسخر أحياناً من حالة النوم «ما فاز إلا النُّوَّم».

كان أحياناً يمثل حالة السكر، لكنه لم يأت سكراناً أبداً، كان دائماً في حالة من النشوة.

الوقت مبكر، لم تتجاوزالساعة الثانية عشر ليلاً. لن يعود قبل الخامسة صباحاً، كان يرافقه حسن أحياناً، ويعودان سوية، لكن حسن الليلة قرر النوم مبكراً.

أعددت كوباً من الشاي لنفسي، وجلست في الفسحة قرب النافذة المطلة على الغابة، أفكر بالأحداث..

هل كان ذلك حقيقياً؟ هل حصل ذلك؟

ها نحن نرث الرحيل - كنت أفكر.

الساعة السادسة والنصف صباحاً حين سمعنا طرقاً على الباب!. الجيران يعلمونا بمهلة الخروج حتى الساعة الثامنة!.

لدينا ساعة ونصف لاتخاذ القرار والوصول إلى خارج المخيم!.

قرار بهذا الحجم: البقاء أو الخروج..

جمع كل ما يمكن جمعه ومغادرة مخيم اليرموك!.

انتشرت في الفترة الماضية شائعات التوحش.

عندما حاولنا الوصول إلى بوابة المخيم بالأمس، تعالت أصوات الرصاص بدون توقف.

امتلأت القلوب بالرعب، التحرك في اتجاهات متباينة، الجميع يشعرون بأنهم مستهدفون، يركضون في فوضى..

عدنا إلى البيت مرة أخرى! اليوم نحصل على فرصة للخروج!.

لا نعرف من قرر! من أبلغ من؟.!

المهلة المحددة وصلت إلينا بالتناقل.. لا أحد يعلم المصدر!.

كانت حقيبة الأوراق جاهزة، حملنا بعض حاجياتنا، أغلقنا الباب بالمفتاح بعد أن خرجنا.

كنت أمشي إلى جوار أمي، وأنوء بحملي كما ينوء الآخرون.

كان علينا أن نمشي مسيرة طويلة حتى الوصول خارج المخيم.

لا توجد سيارات أو وسائط نقل، جميعها خارج المخيم.

أمي تجاوز عمرها الثمانين، كانت تشفق علي من حملي وأشفق عليها من عمرها...

سيل بشري.. هاهم يسارعون الخطو، يتركون خلفهم تاريخاً طويلا من الشقاء والبؤس والعمل المتواصل، من الفرح والحزن من التضحيات.. حياة كاملة!.

قالت أمي أنها رأت ذلك قبلاً!.

كانت تنظر مشدوهة إلى ما يجري، كانت بكامل وعيها.. تتوقف أحياناً تأخذ نفساً، تعيد ترتيب شالها الصوفي على كتفيها،تضع يداً فوق يد وتعاود النظر إلى المحيط لتتأكد أن ما تراه حقيقي، وأنه يحدث اليوم! كنت أرقب الحركة، كانوا يعبرون، يمرون في فوضى واضطراب.

لا يمكن لهذا السيل البشري أن يتوقف.

مرة أخرى أنظر في عيني أمي، ابتسامتها تشق طريقها إلى قلبي بيسر، تحمل الطمأنينة، ثمة عشق على هذه الأرض ينبت من عشق ويورق عشقاً، يروقني الضياء الذي يخرج من عينيها ويجتاحني:

- لا تقلق (تقول أمي).. أنا بخير. أشعر براحة وأتابع.

وصلنا خارج منطقة الحصار الذي سيتلوا...

حين وصلنا خان الشيح كان الأهالي ينتشرون على الشارع الرئيسي يوزعون المياه والعصير والمأكولات على النازحين.

البيت الريفي مؤلف من ثلاث غرف ومطبخ وحمام، الحديقة وحفرة المسبح، وخمس وعشرون نزيلاً.

صمتت أمي، استلقت على الأرض متعبة، عيناها مفتوحتان في طريقها إلى النوم، الرحيل والسنون ولا أعلم ما يكون، ما يدور في خلدها.. تركتها تنام.

لم يكن هناك مكان لي، الجو بارد يخترق اللحم، العظم، أرتجف برداً، خوفاً، إرهاقاً، جلست على كرسي في التيراس الأرضي بالقرب من شجرة زيتون.

أراقب بزوغ الفجر، أسمع أصوات الانفجارات على البعد، وبالقرب كانت أصوات شخير يعلو وحوارات النائمين، وأنين مكتوم.....

أغادر باكراً إلى العمل، وأعود باكراً لأحظى بوقت للنوم في الوردية النهارية.

في المساء البارد وقرب مدفأة الحطب راحت أمي تحدثني عن رحيلها الأول، أثار ما حصل البارحة ذاكرتها، واعتقدت أنها ستحدثني عن رحيل النكبة.

فاجأتني حين راحت تتحدث عن طفولتها المبكرة، عن هدم دار جدي في العام 1936. ابتسمت ابتسامة خفيفة وسرحت بنظرها خارج الغرفة باتجاه أشجار السرو الغامضة، كأنها تلتقط من الفراغ ما تحدثني عنه: «في ليلة من الليالي جاء خالك صالح من البرية وهو يلهث وينادي: - أمي معي الشباب بدنا نتعشى رحبت أمي قائلة: أهلاً وسهلاً.. تفضلوا. تحرك جدك عبد الرحيم بسرعة وهو يرحب بالثوار الذين يحملون أسلحتهم.

دخلوا جميعاً إلى المضافة وجلسوا على الأرض.

كنا أنا وأخواتي البنات في ثياب النوم، نستمع إلى ما يجري، وكنا سعيدين. أن يأتي الثوار إلى بيتنا - شرف عظيم.

كان عمري وقتها خمس أو ست سنوات.

جدك محتار تغمره فرحة عارمة، ويستمر بالترحيب..

يعمل صالح أخي وحمزة ابن عمي في فصيل واحد.

كان الجميع مرهقين، يبدو التعب عليهم، لكن معنوياتهم عالية، يمكنك أن تلحظ ذلك من كثرة الأحاديث والصوت المرتفع والضحكات العالية. تناوبوا الدخول إلى الحمام وكانوا ثلاثة عشر رجلاً وكان جدك الحاج عبد الرحيم يساعدهم في الوصول إلى غاياتهم، الغسيل، والاسترخاء، بينما كانت أمي تجهز الشاي على عجل، وتتابع تحضير العشاء وكنا حولها نساعدها.

جاءت أمي بإبريق الشاي الضخم تفوح منه رائحة الميريمية، وحمل أخي مصطفى كاسات الشاي.

عادت أمي للمطبخ وبدأت في المضافة أحاديث الثورة والثوار. كانوا يتحدثون عن ضرورة استمرار الثورة ضد الإنجليز، وكيف يقوم الإنجليز بدعم الصهاينة، كانوا يتحدثون عن قصة الشيخ فرحان ومجموعته ومعارك يافا والحاج أمين.

جاء العشاء وساد هرج ومرج وتناوبوا النكات والمزاح، وعلت الأصوات بالقهقهات، وامتلأ الجو بالدخان.

كان معظمهم يمسك بندقيته بين الحين والآخر يتكئ عليها بفخر. كان صالح أخي فخوراً ببندقيته التي اشتراها والدي بعد أن

باع إحدى بقراته. بينما جلس أخي مصطفى قرب باب الغرفة، كان مصطفى يعمل مراسلاً يتنقل بين الفصائل.

نادت أمي على صالح وقالت له إذا أرادوا النوم فسنحضر بعض الفراش من بيت عمك وعندما استشار صالح قائد الفصيل أخبره بأنه يجب أن يرحلوا قريباً حتى لا يراهم أحد وهم خارجين من البيت صباحاً.

رحل الجميع ودخلنا لترتيب المكان.

كنا ست بنات، كنا سعيدين ونحن نرتب المكان، نمرح ونلعب.

كان وجه والدي - جدك - ضاحكاً، منتشياً باستقبال الثوار، وكانت أمي تلهج بالدعاء، الله يحميكم، الله ينصركم. بينما انتفخت بطنها بانتظار المولود الجديد. في الصباح الباكر صحونا على صوت جدك كعادته، أيقظنا وأيقظ مصطفى الذي عاد إلى البيت متأخراً.

صحونا جميعا لصلاة الصبح ثم ذهبنا جميعاً إلى الحقل..

عند استراحتنا الأولى في التاسعة صباحاً ونحن نتناول بعض الطعام وصل الإنجليز ومعهم في العربة الأولى رجل يرتدي كيساً على رأسه حتى لا يتعرف عليه أحد، كان دليلهم ومخبرهم.

القوات تحاصر المكان. كانوا يصرخون لإخراجنا من البيت، خرجنا دون تردد أنا وأبي وأمي ومصطفى وأخواتي البنات.

سأل المترجم والدي عن عدد الثوار الذين كانوا هنا بالأمس وأسماءهم وأسلحتهم. لا أسرار في ذلك! كان رجل الكيس قد أشار إشارة واضحة إلى أبي ليتم اعتقاله مباشرة، بينما طلبوا من الجميع الابتعاد عن المنزل فوراً، حيث سيتم تفجير الدار.

تجمهر أبناء القرية ولم يكن الإنجليز يمانعون هذا التجمهر ليعتبروا مما يحصل.

وقت قصير وتم تدمير الدار على محتوياتها.

التقط أحد المصورين صورة لنا أمام البيت بعد أن تحول إلى ركام. انصرفت القوات وأخذوا معهم أبو كيس.

أخذوا والدي بينما انصرفنا أنا وأمي وأخواتي بالبكاء..

أصبحنا بلا مأوى.

هل تعرف يا ولدي لم يكن لدي رغبة بالخروج، ولكني خشيت عليكم أن تضطروا للبقاء بسببي. كيف لي أن أتصور بعدي عن حكايات العمر بين جدران البيت وتحت سقفه؟.

يا الله.. لقد مر الوقت، لابأس يا ولدي دعني أنام الآن..

## رحيل 7

الصراخ يعلو.. صوت اختناق، حشرجة، أنين.. وجع، ألم، عذاب... لا بد أنه خالد مرة أخرى.

أترك موقعي قرب نافذتي إلى الغابة، عالمي اليوم، وأتحرك باتجاه سرير في غرفة نوم المجموعة.

كان حسن يتململ في فراشه في الطابق العلوي للسرير ذي الطابقين، لم يكن يعي ما يحصل، بينما استمر خالد في السرير السفلي بالصراخ، يرتفع الصوت عندما أناديه بإسمه: خالد، أصح.. أصح.

يتحرك بتثاقل، يرفع رأسه قليلاً ويبدو عليه الجهد والشقاء.

تأكدت أنه لوكان للألم كتلة مادية لاختل النظام الكوني، لكان الشرق مركز هذا الكون - ولكنه كذلك - قلت لنفسي.

ربما لأنه مركز الكون - الشرق - أصبح مركزاً للشقاء؟! أحضرت كوباً من الماء، شرب قليلاً، تمتم بشيء لم أفهمه، ونام مرة أخرى.

في المرة السابقة عندما كان يصرخ، وكانت المرة الأولى التي نلتقي فيها بالكابوس، اجتمعنا كلنا بما فينا أصدقاء الطابق العلوي، كان صراخه القوي يوحي بجريمة على وشك الوقوع...

عدت لموقعي قرب نافذة الكون - عالمي - أراقب من خلف النافذة أشجاراً عالية، وطريق ترابي، وليل..

حركة الريح تعبث بالشجر بهدوء، وقبل أن أفتح نافذتي على داخلي عاود خالد صراخه أقوى..

عاوده الكابوس مرة أخرى.

قمت أساعده في الخروج من الكابوس وأخبرته أن عليه أن يتحرك قليلاً: «تعال نشرب الشاي، دعك من الكوابيس» جلسنا صامتين للحظات، ثم سألته إذا كان يريد الحديث عما يحصل؟.

«ليس الآن، مرعب، دعني أخرج منه الآن» وأردف لتغيير مجرى الحديث: «لم يرجع سعد بعد؟» وأجبته «لم يرجع، وحسن بقي الليلة هنا، وصلته أخبار غير سارة اليوم من أهله، سمعته يشتم، ولم يرد أن يقول شيئاً».

لم يقل خالد شيئاً، يشرب الشاي وهو ساهم خارج المكان، وربما خارج الزمان.

بعد أن حدثنا عن ابنته فرح وموتها، لم يضف شيئاً، ربما ذكر مرة شيئا عن اختفاء شقيقه وابنه سامي. لم يبح بشيء آخر.

كان مغلقاً، اتصالاته محدودة، يقضي أوقاتاً طويلة خارج البيت دون أن نعرف شيئاً عن ذلك، وعندما نكون معاً لا يقول شيئا مهماً.

كان بائساً إلى أقصى حدود البؤس، لا يستطيع إخفاء حزنه، وربما تعوزه الدموع ليعرف الجميع أنه يبكي.

كنت أحس به وأخشى عليه فقدان الأمل.

لو كان سعد هنا لساعدني قليلاً.

كان سعد يستطيع أن ينتزع منه ابتسامة، كان قادراً على مفاجأته، يجعله يضحك أحياناً، لكنه سرعان ما ينكفئ على نفسه، كأنه يشعر بالذنب إذا أفلتت منه ضحكة!.

أن تشعر بالذنب إذا باغتتك ضحكة، أي شقاء هذا؟.

رحت أحدثه محاولاً إخراجه من الكابوس وأحدث نفسي:

«بتعرف يا خالد، وصلنا هنا جميعاً منذ ثلاثة أشهر بأوقات متقاربة. في أي رحلة لأي بلد هناك فترة ذهول واندهاش، يقال أنها لاتتجاوز أسبوعين، هي مرحلة استكشاف، مرحلة الدخول إلى عوالم جديدة، كل شيء يبدو جديداً، غامضاً، أحياناً ساحراً أخاذاً.

لا زلنا نعيش فترة الانبهار، هي فترة طويلة لأن الهوة عميقة وتحتاج زمنا أطول لردمها، هي زمن انبهارنا بعالم لا نشبهه، لا يشبهنا. الناس في أشكالهم ولباسهم، حركاتهم، تواصلهم، التزامهم، سلوكياتهم، علاقاتهم... المتشردون، المثقفون، العوام... الشوارع وإشارات المرور، وسائل النقل، ساعات النشاط، عادات الأكل، المواعيد، العمل...البنوك، الأسواق، المحلات التجارية، المكتبات، المدارس، المعاهد، الجامعات، المشافي، المسارح، السينما... حدائق الحيوان، الحدائق الصغيرة والكبيرة والمزارع... العلاقات بين الأجيال، الحماية الإجتماعية، الرعاية الصحية، الأمن والأمان، حرية الصحافة، الحريات الفردية، النظم التي تربط الأفراد بالمجتمع.. عالم واسع لا يشبهنا.

سيدهشك كل شيء، وأنت لديك مستوى للمقارنة: ما حملته معك، ما تذكره، ما تعلمته، ما تؤمن به، ما يختبئ تحت جلدك.

عند الوصول كانت تشغلني فكرة قبولي كلاجئ، الآن تجاوزت ذلك. لشد ما يذهلني الوضع هنا.

لشد ما أذهلتني سهولة الحركة بين الدول! أين الحدود؟»

تنبه خالد للمرة الأولى، كأنه بدأ يسمع الحديث، ورحت أتابع:

«كيف تعرف أنك انتقلت من دولة لأخرى، لا حدود، لا جمارك، لا رجال أمن، كيف ذلك؟ كم هو جميل أن تتحرك حيث تريد، وقت تريد، الحدود هنا لتقديم الخدمات، هي حدود وصول الخدمة».

قاطعني خالد: «هل سافرت خارج البلد؟» حكيت له رحلتي مع أحد الأصدقاء، كيف قمنا بجولة إلى لوكسمبورغ وبلجيكا وفرنسا، دون موافقات، دون أن تعرف خطوط الفصل..

استوقفني كأنه يبحث عن شيء:

«هل فعلت ذلك حقا ؟»

لفتني إهتمامه وتفاعله مع الموضوع، إنه يفكر بشيء ما، أسعدني أن ذلك شده نوعاً ما، أيقظ شيئاً داخله.

تذكرت الحدود في الشرق الحزين.

إنها الحدود التي تعلمناها منذ الطفولة، الحدود التي نرسمها باستمرار في دروس الجغرافية، وننال من خلالها درجاتنا التي تحدد خطوط مستقبلنا.

عليك أن لاتنسى ذلك، أن ترسم بدقة تلك الحدود، عليك أن ترسم بدقة مواقع الفصل بين حدود البلاد حتى لا يؤدي ذلك إلى حرب ما، من أي نوع كانت...

الحدود تشكل خط السيادة الوطنية، خط الفصل الإنساني، الخط الذي لايحرم الاختلاط دون الحصول على موافقات شتى.

إنها نتاج التاريخ الحديث تلك الأبواب الموصدة، إنه التاريخ الذي نشربه مع قهوة الصباح، مع نشرات الأخبار، التاريخ الذي يدور فينا وندور فيه في حلقة لا خروج منها.

توقف خالد مشغول الفكر واتجه إلى النوم. تجاوزت الساعة الثانية صباحاً. يجب أن أنام أيضاً.

في الخارج ليل بارد، وأشجار تتمو، مطر رذاذ، ريح خفيفة، وسكون.

## رحيل 8

تتعالى أصوات الرعد، والبرق يشق العتم، ومطر غزير، وليل، وأنا قرب نافذتي على الغابة أرقب بصمت لوحة الحوار العجائبية بين عناصر الطبيعة، الماء، والهواء، والتراب.

بدت الغابة بأشجارها الباسقة محور هذا الحوار، تمد الأشجار جذورها عميقاً في التراب، تتسلق باتجاه السماء، تملأ الفراغ بأغصانها المتشابكة، ريح خفيفة، وتغتسل أغصانها بالمطر، وترتوي في لوحة عشق بديعة.

أتناول سيجارتي بهدوء وأرتشف قهوتي في زاويتي البللورية، بعد أن حاورت عائلتي على الخط في الضفة الأخرى زوجتي حنان، وابنتاي سلمى وفاتن، والصغير إبراهيم الذي لا يتجاوز عمره الخمس سنوات والذي جاء بعد انقطاع على غير انتظار.

سلمى في الخامسة عشرة، وفاتن في الثالثة عشرة.

في الحوار على الهاتف لم يكن ثمة خصوصية، على مقربة مني في مهجع النوم كان يستلقي خالد مفتوح العينين، وحسن في المطبخ يقوم بعمل ما.

الجميع يسمع ما يقوله الجميع، وكنت غير قادر على الخروج إلى الطريق أو إلى الغابة بسبب الجو الماطر، فاكتفيت بحوارات عامة.

قال إبراهيم ابني يشكوا أن أمه لا تسمح له بالخروج ليلعب بالشارع. داعبته قليلاً، ووعدته بأن أمه ستأخذه إلى الحديقة، وعندما يأتي هنا سأتركه يلعب كما يشاء، أحس بالزهو وأعطاني قبلتي وانصرف. كنت أفهم ذلك، وكنت أعلم كم تعاني حنان زوجتي من المسؤولية:

«الأولاد مسؤولية كبيرة يا عبد الله، والله تعبت» دعوتها دائما للصبر، هانت، لم يبق الكثير...

لم يكن من الممكن أن يخرج إبراهيم الصغير وحده، إن الحوادث تقع باستمرار.

المكان هنا يمتلئ بدخان السيجارة، ويتمازج صوت إبراهيم، مع صوت المطر وسحابة الدخان والبرق في الخارج، وأمضي خارج زمني إلى زمن بعيد...

في التاسعة صباحاً، في وقت لم يكن يتجاوز عمري خمس سنوات، كانت أمي مشغولة بحفلة غسيل الثياب بعد أن نام أخي الصغير، ولم يبق أحد غيري، تسللت من البيت خارجاً وتركت بابه دون إغلاق.

التقيت برفيقي رائد في الشارع وانطلقنا باتجاه المشفى القريبة، الذي كان موضوعنا الساخن آنذاك.

كان الجزء الجنوبي من المشفى هو أكثر ما يدور الحديث عن غرابته، لا سيما الغرفة على يسار الباب الذي لا يفتح أبداً.

الباب مغلق باستمرار وكان عليك الدخول من الباب الآخر، شأن المباني الحكومية الأخرى لدواع أمنية. كنا أولاد الشارع نمر جانب غرفة الموت ذهاباً وإياباً، يصرخ أحدنا ونهرب معاً بخوف يتملك الجميع، تعقبه ضحكات ساخرة، كيف هربنا، ومن كان أكثر خوفاً وتحديات جديدة تظهر تدعو للعودة إلى هذا الفعل المثير. تسللنا أنا وصاحبي إلى أسفل النافذة، نافذة الغرفة.. غرفة عزرائيل!.

هكذا كان يطلق عليها الناس، أو على الأقل أولاد الحارة. لم ينج أحد من المرضى الذين دخلوها، هكذا سرت الشائعات، وكنت لا

أفهم ذلك. كنت قررت اليوم رؤية عزرائيل، ماذا يفعل، كيف يقبض الأرواح؟. في البدء صنعت من ظهري سلماً ليقف عليه رائد ليصل بنظره إلى مستوى النافذة.

قفز كمن رأى شبحاً..هي لحظة..

همس: إنه هنا..

وقفت على ظهر رفيقي، كانت الغرفة خالية.

نزلت بسرعة قبل أن يأتي ملك الموت ويأخذ روحي، إذا لم يجد أحداً في الغرفة، كان يجب أن أنزل قبل أن تلتقي عيوننا، إذا التقت عيوننا فهي النهاية، هكذا يقول الأولاد.

كنت أدرك أنني أريد أن أعيش، أن أكبر كما وعدت أبي، كنت أرتعد هلعاً، وأشعر بالعطش.

لم أجد أحداً – قلت.

وأقسم رائد أنه رآه وأنه لا بد ذهب لحظة تلصصي.

حدثني طويلاً بما رآه خلال لحظة، كان يتخيل وكنت أصدق.

كيف استطاع في تلك اللحظة أن يرى عزرائيل وهو يقبض روح الرجل النائم في السرير؟. لكن الغرفة خالية!!.

كان يتحدث بصوت خافت خائف يصف شكل عزرائيل المخيف بلونيه الأبيض والأسود الطاغي، يمسك بيديه اللتين تشبهان القفازات الجلدية ضوءاً أخضر يخرج من الفم، ويسحب روح الرجل من حلقه.

قررت العودة إلى البيت والاختباء في موقع أكثر أماناً.

كانت الغرفة الآن - غرفة الموت - أشد غموضاً عما كانت عليه قبل أن أنظر فيها رغم أني لم أر شيئاً، ولكن رائد وكثير قبله أكدوا ذلك!.

اللون الأصفر المائل إلى البني يغطي الجدران، سريري مرضى، خزانة أدوية.. لا شيء غير عادي، وثمة باب معدني تقشر دهانه.

لم يكن أحد هناك لحظة المشاهدة، لكن قلبي يرتجف، كنت أخشى رؤية ما يتحدثون عنه.

تسللت مرة أخرى داخل بيتنا..

اقتربت بهدوء وأنا أسمع صوت أمي الشجي تغني أغنية حزينة:

يا ليل ما أطولك... هديتلي كتافي... مشيتتي حافي... وتجهش بالبكاء، وتتساقط دمعاتها غزيرة، بينما راحت تغسل بعض الثياب في وعاء معدني - اللجن- اقتربت يملؤني صوتها، يملؤني الخوف والحزن والعجز، أشعر بالغرابة وأنا لم أتجاوز سنتي الخامسة بعد!.

نظرت إلي وأنهت بالكاد بكاءها.

- لماذا تبكين أمي؟ سألت.

ارتبكت، ربما فاجأتها بوجودي، وفاجأتني ببكائها..

- لماذا تبكين أمي؟ كررت، كان صوتي حزيناً بائساً، فسارعت أمي:

- أنا مشتاقة لأهلي

- من؟

- ستك وسيدك، أمي وأبوي.

شعرت بالخجل، لأول مرة أدرك أن أمي تشتاق لأهلها وأننا لسنا فقط نحن عائلتها، إخوتي وأخواتي وأبي وأنا..

لم أعرف ماذا أقول، لكني لا زلت أحمل هذا الحزن حتى اليوم، لم أستطع الخلاص منه، ربما كان ناظماً لكثير من الأمور في حياتي!. أخذتني في حضنها وعرفت ما سببته لي، لكن ذلك كان قصتنا الصغيرة، حزننا السري المشترك..

غسلت أمي وجهي بمياه باردة، وبقيت صامتاً، راحت تمرر يدها فوق رأسي وتتمتم بأدعية لا أفهمها، لكن ذلك ساهم بتهدئتي...

هل عرفت أنني كنت عند غرفة الموت؟.

التم شمل العائلة وقت الغداء، فسألت والدي لماذا لم يأت جدي وجدتي منذ فترة طويلة.

نظرت إلي والدتي بطرف عينيها آملة ربما ألا أبوح بشيء مما حصل، لكن والدي أجابني بمرح:

«وأنت ماذا تريد ؟»

فأجبت بأنني اشتقت لهم، فأكد أن سيخبرهم ويدعوهم باسمي إلى الغداء، فأردفت والعشاء، وقال ضاحكاً: والعشاء.. سندعوهم للبقاء لدينا بضعة أيام.

أصبح الجو لطيفاً، ورأيت أمي تبتسم، وإخوتي يتحدثون عن مدارسهم، ووالدي يحاورهم ويضحك، ويوجه، ويحثهم على التفوق.

طلب مني والدي أن أكون جاهزاً لأرافقه، لأشهد حدثاً ما، بينما حاولت أمي ثنيه عن عزمه خوفاً مما يمكن أن يحصل.

قال أبي: «دعيه يشهد ذلك، لا يتكرر هذا الحدث كل يوم».

لم أفهم عم يتحدث والدي، لكنني ذهبت رفقة أبي إلى مكان قريب.

في الموقع كانت غرفة الموت خلفنا تماماً، ووقفنا في المنطقة المشرفة على منطقة منخفضة أشبه بالوادي.

أصوات إطلاق نار، وأشخاص على شكل مجموعات متصادمة، ودخان وحرائق، وانفجارات.. ومتفرجون في محيط المكان.

على البعد في مكان مقابل لمحت أخي الأكبر إبراهيم.

نظرت إلى أبي الذي أوضح أنه تدريب بالذخيرة الحية لفدائيين فلسطينيين يتدربون على القتال لاسترجاع فلسطين.

«لكنهم قلة، هل يستطيعون استرجاع فلسطين وحدهم؟ ونحن ماذا نفعل؟» قلت لوالدي الذي ضحك قائلاً:

«هناك كثيرون يتدربون في أماكن أخرى، وأنت عندما تكبر سيأتي دورك».

أصابتني خيبة أمل فقد كنت أعتقد أن فلسطين سترجع قبل أن أكبر، أنني سألعب قريباً في بيارة جدي، وأغوص في بحر حيفا.

لماذا يقول أبي أن وقتي سيأتي؟.

كل شيء يزداد غموضاً.

في الليل وفي الظلمة الحالكة كان رجل غريب الهيئة، بشعر فاحم طويل يصل حتى كتفيه، وملامح قاسية كأنه قد من صخر، كان يخترق باب بيتنا الخارجي.

يحمل عصا غليظة يتكئ عليها وتصل حتى صدره، تنفتح طاقة على قدر جسمه في مصراعي الباب الخشبي ويدخل بقامته الطويلة المنتصبة وملابسه القاتمة.

كنت أرتجف هلعاً، ورحت أصرخ وأمي توقظني وتتمتم بقراءاتها السحرية.

تكرر الكابوس عديد المرات سنوات طويلة. لم أفهم ذلك. ثمة من يوقظني وأنا أصرخ، أو تصطك أسناني.. وتدفع إلي كاسات الماء.. أشرب، وأعاود الكابوس أو أهرب داخله لئلا أزعج أحداً.

أحياناً أحدث نفسي في الحلم، أطمئن نفسي وأقول ينتهي الحلم بعد قليل!.

في مرات لاحقة يطور الكابوس نفسه، ليقنعني بأنه حقيقة، ويرتفع الصراخ...

كان علي أن أوقف تطوير دفاعاتي ليتوقف الكابوس عن التصعيد... المطر في الخارج يستمر بالهطول، وأصوات الرعود والمطر تتعالى وتزداد وتيرتها في سيمفونية عذبة تدعوني موسيقاها للإسترخاء.

أنفث دخان سيجارتي،ونظراتي باتجاه أشجار الغابة وحبات المطر التي تطرق زجاج النافذة وتسيل عليه، وأتابع المشهد بينما يأتي حسن بكوبي شاي إلى زاويتنا، يجلس مبتسماً، ربما سنبدأ حواراً عن أمكنة أخرى في الشرق الحزين خلف الجبال والوديان وراء البحار في أزمنة مضت أقل وحشية وأكثر دفئاً.

## رحيل 9

يتكاثف الوقت أحياناً، يصبح لزجاً، ثقيلاً، يلقي في مساءات الوحدة بظلاله، يقف في ليالي الغربة كئيباً أمام ناظريك، ويلونك بلونه، وتصبح ليلتك الشتوية أشد برودة.

ساعدني تناغم ما يحصل في الخارج البرق، والرعد، والمطر، والأشجار، أمام النافذة على تعديل مزاجي، ومنحني شعوراً بالسكينة والاسترخاء.

تتراءى خيالات وذكرى وتهيم خلف النافذة، تمضي بأفكارك بعيداً، وتبقى هنا جسداً.

لا يقوى زجاج النافذة على الحؤول دون ابتعادك عن المكان.

أفكارك، خيالاتك، رغباتك، أمنياتك تتحرك بحرية لا توقفها النوافذ ولا الغابات، تنتقل بين الفروع وعلى غصون الأشجار، وتصعد إلى فراغات رحبة لا حدود لها.

حين جاء حسن بكوبي الشاي، كنت أحلق بعيداً، خارج الزمان والمكان، خارج الفعل...

أعادني صوته إلى موقعي على كرسي قبالة النافذة - الغابة في بيت في أقاصي الكون...

حسن تجاوز الثلاثين، يميل أن يكون طويلاً، نحيف بشكل واضح، ذا بشرة بيضاء، وقداستطال وجهه قليلاً وبرزت عظامه، بانت جلدة رأسه في المقدمة بسبب صلع مبكر رغم الملامح الشابة، هو أقرب للمرح، يتحدث بدون حسابات وأحياناً دون ترتيب، كثيراً ما تسبقه الكلمات وتسبب له بعض المشكلات، شديد التهذيب،

يحب الآخرين ويحبونه. شكرته لكوب الشاي، واستأذنني بالجلوس، ولم يكن بادي المرح شأن الأيام السابقة.

رحت أستدرجه، ما الذي يشغل باله؟ وكيف يمكن مساعدته؟

- «هل ستقول ما يضايقك؟ كنت تشتم على الهاتف، الأفضل أن تتركنا نساعدك» - قلت له

- «لا أعرف يا أستاذ عبد الله، هل يمكنني أن أقول؟ سأختنق، إن ما سيحصل أكبر بكثير من القدرة على الكتمان، أكبر مما يمكنني قوله، إن العار فيما يحصل وليس فيما أقول». صمت قليلاً يفكر ثم تابع:

- «هي أختي من أمي تريد أن تتزوج من رجل العار، إن مجرد ذكر اسمه عار...

كيف أقول لك من هو هذا الرجل؟! هو تاجر حروب لزج، مخلوق عجيب، يلقبونه في المنطقة (طوطح) لأنه يطيح بكل شيء أمامه،لا يهمه شيء، لا يهمه أهل، لا تهمه قرابة أو صداقة، أو معرفة، لا دماء في وجهه، لا يعرف غير نفسه، يعمل مع كل الأطراف، لا أحد يعرف من أين جاء، فجأة صار بيننا في المنطقة، بدأ بتقديم بعض الخدمات للناس، ثم راح يصطادهم».

- هل يوجد أحد يعمل مع كل الأطراف، وتتعامل معه كل الأطراف؟ أنت تبالغ!.

- «صدقني هذا (طوطح) يعمل مع الجميع، رجل زئبقي، أينما يكون يحل الخراب، لن تصدق، هو كذلك، وأختي تريد الزواج منه، لا أعرف ما الذي يربطها به وكيف تعرفت عليه!.

أمي قالت: «إن والده شخص مهم - أبو شوكت - دع أختك تتزوج منه، الأفضل أن نفعل ذلك قبل أن تجلب العار لنا».

ولكن الزواج منه أشد أنواع العار... ماذا أقول لوالدي الشهيد.. والدي حسن الذي حملت اسمه والذي استشهد في حصار بيروت، قالوا إنه مفقود، ولا يزالون يقولون...

مرعلى استشهاده ثلاث وثلاثون سنة ولا زال مفقوداً، لم ينتزع الاعتراف بأنه شهيد..

الشهادة شرف يا أستاذ عبد الله.. شرف... لكن الفقدان!. ماذا أقول له، هو ليس أبوها، ولكنه أبي وهي أختي.. أختي مصرة على الزواج من (طوطح)، لقد سيطر على قلبها وعقلها.

قلت لك حيثما يحل هذا الرجل، يحل الخراب!.

قل لي بالله عليك ماذا أفعل؟.

إنه زعيم عصابة، عصابات متفرقة، تجار حروب، يبيعون كل شيء، أثاث، أدوات، ناس....

كل شيء عنده قابل للبيع، حتى الذين يعملون معه يبيعهم في مرحلة لاحقة.

أمي قالت أننا لا نقدر عليه، وقالت أن أختي تريده، وعمي حسين - أبوها - لا يرى ما أراه، أخي وأخوها الشقيق الأكبر لها تم سوقه إلى الجيش ولا أخبار عنه، ولا أستبعد أن يكون (طوطح) وراء ذلك.

ماذا أقول للناس الذين سرقهم، والذين سطا على أحلامهم، الذين آذاهم في أولادهم، ماذا أقول للذين فجعهم بطريقة ما؟ ماذا أفعل يا أستاذ؟

أشعر بنفسي أنني سأصبح شريكا لهذا العار.. مجرد قبولي بفكرة زواجه من أختي يشعرني بشراكة بشعة لا يد لي فيها. سأشعر بالعار إلى الأبد؟ كيف سأرى نفسي في المرآة؟!. لا أعرف ماذا وجدت أختي فيه ؟ لا أفهم ذلك».

كان حسن يقف أحياناً وهو يشرح، يحرك ذراعيه في الهواء معبراً عن انفعالاته، يضرب على رأسه، يتحرك بعيداً عن الكرسي ويرجع، يعاود الجلوس لحظات، ثم ما يلبث أن ينفعل ويعبر بحركات غاضبة: «لوكنت هناك..لوكنت هناك..».

- لا يمكنك فعل شيء، إهدأ قليلاً، إذا لم تستطع إقناعها فلا قيمة لأي شيء آخر في هذا الوقت، دع والدها ووالدتها يتصرفان حسب الواقع. إهدأ قليلاً.. خذ سيجارة.

حسن لا يدخن بانتظام - حتى اليوم - لكنه يدخن أحياناً، هو مشروع مدخن على الأغلب..

أشعل سيجارته نفث بقوة وهو ينظر خارج النافذة بلا تحديد... أردت أخذ الوضع باتجاهات أخرى، أحاول نزع فتيل التوتر.. فاتجهت لذاكرته:

- هل قلت أن أمك تزوجت من عمك؟ كيف حصل ذلك؟. كان حسن متصالحاً مع نفسه في هذه النقطة، لا يشعر بالحرج، وراح يتحدث:

«حين استشهد والدي، كانت جدتي آمنة تصر على أنه مفقود كما أخبروها.

عندما لا يجدون جثة، ولا يكون الاسم بين قوائم الأسرى فإنه مفقود. بقيت أمي عاماً كاملاً في بيت جدي في غرفة زواجها، لكنها قررت بعد ذلك أن تعود إلى بيت أهلها، رغم إصرار جدتي على بقاء أمي في بيت الزوجية، وكانت مفاوضات صعبة، تم اختصارها لاحقا بالولد (حسن الصغير - أنا).

وعدت أمي جدتي بزيارتها كل يوم، ومعها الولد، وأنها تتركني لجدتي متى أرادت ذلك.

غادرت أمي وأنا بين يديها وسط الدموع والنواح والعويل، لحظة خروجها اجتمع أهل الحارة على دموع جدتي ونحيبها وهي تودع أمي وتودعني كأنها تفارق بعض روحها، كأنه إعلان موت حسن - والدي - ابنها.

بقيت جدتي في الفراش عدة أيام، تشعر بالوهن، بالمرض، بالعجز عن الحركة، بالقهر..

افتقدها أهل الحارة، كنت رضيعاً وقتها، لكني سمعت هذه القصة عشرات المرات.

لأول مرة تستسلم جدتي وتغيب عن الشارع، عن مخبز الحارة، عن أصحابها وأحبابها، عن بيئتها، عن كل شيء.. لكن كثيراً منهم جاؤوا إليها رغم وعورة الطريق إلى غرفتها - الدرج الضيق والدرجات العالية -

كان مجيء الناس إليها يحملون الأخبار والحكايا، الورد والهدايا جزءاً من العلاج، أما الجزء الأهم بالنسبة لها فكان وجودي.

كانت علاقتنا تنمو، ويزداد تعلقي بها، وتعلقها بي.

لا أذكر شيئاً بدون وجودها، الطعام والشراب، اللعب، الآخرون، كل شيء لدي مرتبط بوجهها، بصوتها، برائحتها، بلمسات يديها التي أشعر بها حتى اللحظة، ببريق عينيها، بغنائها، بدمعها، بصومها وصلاتها...

لم أتخيل يوماً أنني سأكون بعيداً عنها، أنني قد أفقدها.

أصبح عمري أربع سنوات، عندما بدأت أمي تلين أمام الضغوطات العائلية، أصبح أمر الزواج يمكن التفكير به، أصبحت تسمع أحاديث الزواج بعد أن كانت تتشنج عندما يبدأ أحد ما بهذا الموضوع، أصبحت تصغي.. كانت لا زالت شابة صغيرة، لم تعرف من الحياة سوى حسن والدي، الذي غادر مبكراً.

كثيرون قالوا لها (لا زلت شابة.. بأول عمرك.. لا تضيعي حياتك..). وكانت جدتي ترقب عن كثب ما يجري في هذا المنحى، وتحاورها مرة باللين، ومرة بالصراخ والغضب، وكانت تذكرها أنها لا زالت على ذمة رجل!.

وكانت أمي تصمت دائماً عند هذه النقطة.

وعندما تغيب أمي يومين متتاليين، تذهب إليها جدتي تستقصي وتستفسر وتبحث وتعود، تصمت أحياناً وأحياناً أخرى تبقى تحدث نفسها بصوت مسموع فترات طويلة. كانت جدتي آمنة تفكر وتعرف أن أمي ستتزوج يوماً ما وهو أكثر ما كان يشعرها بالقلق، وربما كانت تعرف في قرارة نفسها أن حسن لن يعود، حسن مفقود، ودبابته مفقودة، وكامل الطاقم مفقود! لا يمكن أن يكون كل ذلك مصادفة.

إذا لم يعثرو عليهم لا يعني أنهم ليسوا شهداء، لا يعني حرمانهم هذا الشرف.

ذات يوم قالت جدتي لعمي حسين - ابنها:

(لم لا تتزوج فاطمة؟ أهلها يضغطون عليها، وهي لا تستطيع الوقوف إلى الأبد أمام هذه الضغوطات، فاطمة حلوة وبنت ناس، يجب ألا تتزوج رجلاً غريباً، كيف نتركها،ونترك ابن أخيك ؟ تزوجها يا ولدي، تزوجها يا حسين).

اعترض عمي حسين في البداية، كانت الفكرة غريبة، ثم سرعان ما وجد ذلك مناسباً.

تردد قليلاً والخواطر تجول في رأسه، هل يجوز؟ كان مقتنعاً أن أخاه حسن استشهد وأنه لن يعود، وأن الزواج من فاطمة هو الحل الأمثل للجميع.

تجاوز كل شيء، وافق، وكان يجب إقناع أمي هذه المرة.

لجدتي القدرة الكافية على الإقناع:

(يا بنتي إذا بدك تتزوجي هذا حسين أخو حسن، شاب شغيل ومحترم، بتعرفيه وبيعرفك، بيصونك وبيصون حسن الصغير - لحمه ودمه - هذا طلب رسمي، فكري على مهلك).

تركت جدتي مهلة كافية لأمي، لتفكر بالموضوع، وتشاور نفسها، وتشاور أهلها، لتقبل الفكرة في البداية.

الحل الأفضل لأمي أن تعود إلى غرفتها، وتتزوج من حسين الشاب الوسيم في نفس الغرفة التي عاشت بها، وأن أكبر بين

جدتي وأمي وعمي. لم يطل تفكير أمي، تمت الإجراءات البسيطة على عجل وتزوجت أمي، وتخلت جدتي عن القلق.

كان عمي رجلاً رائعاً، طيباً مع أمه، مع أمي، معي، مع الجميع. شعرت برعايته دائماً وقبل زواجه من أمي، ولم أعرف معنى اليتم، كان أباً عظيماً لي. كنت موضوع جدتي الدائم، تأخذني معها حيث تذهب، وبعد دخولي المدرسة، حدثت عني كل المعلمين والمدير وتابعتني باستمرار، توصلني إلى المدرسة وتعود بي.

كان الجميع وحتى الباعة أمام المدرسة يعرفون أنني حفيد (الحاجة آمنة) يبتسم حسن مستذكرا: «اشترت لي جدتي ذات يوم كرة قدم أصلية، كان ذلك يكفي لأصبح كابتن فريق الحارة».

دخل سعد منذ لحظات وقد سمع آخر الحديث:

- يا حسن دائماً تحدثنا عن جدتك، ألا توجد نساء أخريات في هذا الكون الفسيح، الصبايا.. الصبايا؟!. ابتسم حسن إبتسامة عريضة:

- ها.. جاء الماجن، أين كنت ؟.

- حدثنا عن الصبايا في حارتك، في حياتك، لم يبق شعر في رأسك وأنت تتحدث عن التاريخ، حدثنا عن المستقبل. وانفجر بضحكته الفاقعة قبل أن يجلس ويحيينا.

- والله لو فتحنا رأسك لن نرى غير النساء، على كل حال تأخر الوقت، والقصة تحتاج إلى وقت أطول مما تبقى لنبدأ نومنا، أشعر بالتعب، لنفعل ذلك في وقت آخر.

تحسن مزاج حسن، وخرج من عزلته وبعض كآبة، واكتملت عودتي للمكان، وخالد لا زال نائما في سريره، وسعد الممتلئ حياة يزداد ألقاً ويمنح المكان بعض المرح، وأصدقاؤنا في الطابق العلوي يمرون بنا، يبتسمون ونبتسم في حوار صامت.

تسرب البرد على مهل، وكنا بدأنا نرتجف.. جمع الليل أجزاءه واكتمل.. المطر ناعم رشيق في الخارج والهدوء ينسحب إلينا ونمضي إلى النوم.

## رحيل 10

أصحو فجأة على الصمت!.

في عمق صمت الليل، يتوالى الصراخ في داخلي.. عميقاً. أصحو!. الجميع نيام.

أخرج من الحلم، أو ربما لا زلت داخله، كأنني خارج من سباق،أشعر بالإرهاق، أفتح عيني بهدوء، تتدافع الصور بين النوم واليقظة، وتتناثر أمامي متمازجة في مشهد سريالي غامض.

أخرج إلى زاويتي، آخذ سيجارة، أسحب بعمق النفس الأول وأنفث دخانها، وفي الخارج تبدو الغابة مليئة بالصمت والسكون.

وأحاول فصل المشاهد...

تك... تك... تك...

تدق عكاز والدي وهو ينزل على مهل درجة - درجة، بينما يمسك بيده اليسرى الدرابزين المعدني.

تصرخ سلمى: «جدي» وتهرع إلى الباب في شقة الطابق الأرضي. فاتن تلحق بها، تصرخ مثلها، تقلد حركتها وتفتحان الباب.

يلحق إبراهيم الصغير أختيه فرحاً بخطواته الأولى.

يبتسم والدي أثناء نزوله الرزين، ويخاطبهم عن بعد وقد انفرجت أساريره، إلى أن يصل إلى أسفل الدرج أمام الباب الخشبي.

يشعر الجميع بالغبطة، يوزع عليهم كف يده ملامساً وجوههم الصغيرة، تغمرهم سعادة، ويناول كلاً منهم شيئاً كان دسه في جيبه قبل أن ينزل تحسباً لهذا اللقاء الدافئ.

كان ذلك حدثاً شبه يومي، جعلهم ينتظرون ترحاب جدهم وفرحه بهم، وجعله يؤكد صوت عصاه بانتظام. يتابع طريقه خارج البيت، يفتح الباب المعدني ويدلف خارجاً للبحث عن مسار يلتقي فيه زمنه الضائع، للبحث عن صديق قديم شاركه بحر حيفا، وطريق سهل وادي الحمام، وهواء جبل الكرمل، وبيادر قريته، بياراتها، ساحاتها، مدرستها ومسجدها.....

عن رفيق شاركه الحلم وبعض الطريق، شاركه الإنكسارات والهزائم، التاريخ والجغرافية، شاركه الكفاح في مواجهة الفقر والبؤس والمهانة. شاركه النكبة، وإجراءات العبور إلى اللجوء.. والخيام.

شاركه الحلم بالعودة ويشاركه.

يسير في خطواته قليلاً، ويلتقيان في مكان ما: والدي (علي) وصديقه (يوسف)، يلتقيان في وسط المسافة، في الثلث، في الربع... لا يهم، أصبحا يعرفان كيف يلتقيان دون مواعيد.

يعيدان الحكايا آلاف المرات، ويضحكان عند نفس المواقف بنفس الطريقة، يشتمان من استحق الشتم آلاف المرات، يتحدثان عن نساء الزمن القديم، يتلفتان خائفين بنفس الطريقة، يتعثر أحدهما برواية فيكمل الآخر، يمضيان الكثير من الوقت في الشوارع، وعلى حدود البساتين القريبة، يتحدثان هناك عن البيادر في القرية قرب حيفا، عن أشجار التين والزيتون والرمان، عن أشجار الجوز واللوز والمشمش والزعرور والجميز، عن العيون والآبار، عن زراعة التبغ، عن السمسم والقزحة، عن حيوانات البيت وطيوره، عن الغنم والبقر والجمال، يتحدثان عن البيض البلدي وزيت الزيتون، عن الزغاليل

والحمام، عن الغزلان والأرانب والثعالب والضباع والأفاعي. عن الأعراس والمآتم، عن مواسم الحصاد ومواسم القطاف، وساحة الأفراح في وسط البلد، عن أطباق القش المزخرفة...

يتحدثان عن الإنجليز وعملائهم، عن العصابات الصهيونية، والعمليات والمعارك وقصف الطائرات،عن القتال، عن الشهداء، والفقدان والهزائم، وانتصارات صغيرة هنا وهناك.

يتحدثان عن سادة القرية وملاكيها وفلاحيها، عن أبطالها، عن مجانينها. عن المخاتير ورجال الدين وخريجي الأزهر..

عن حكايا الأمهات والجدات ولعب الأولاد، عن العيد والكعك... عن المرض، والسفر، عن الموت والحياة.....

عن مغارة الطابون: أقدم مواطن الإنسان في العالم في الكرمل..

عن مدرسة تم تحويلها إلى كنيس، ومقهى إلى مكتب بريد.. ومسجد ترك خراباً.

يتجولان في شوارع المخيم يلتقيان آخرين، يبادلانهم التحيات ويمضيان في أحاديثهما خارج المكان.. إلى فلسطين، إلى البلاد - حديثهما اليومي. يعود أبي منتشياً إلى البيت، أجلس إليه بعد أن يستيقظ من غفوة بعد عودته، أو في المساءات قبل النوم، ويحدثني بالتفصيل عن البلاد، عن طفولته وشبابه، عن مياه بحر حيفا وأمواجه التي تداعب قدميه بكسل، عن رائحة البحر التي لا زالت تعيش في منطقة ما في رأسه، ويسألني دائماً دون أن ينتظر جواباً: «هل نعود يوماً؟».

نتشارك فراغ الصالون، وأمي تروح وتجيء تبتسم في وجهي، تقدم لنا الشاي بالميريمية، يتذوق أبي الشاي ويثني على أمي «أمك بتعمل أحسن شاي بالعالم»، ويحدثني عن الميريمية وفوائدها، عن الأعشاب في البلاد: الزهورات، والزعتر، والبابونج، الخبيزة والعلت والعكوب..الدريهمة.... يطول الحديث لا يتوقف.

أصبح يغوص في تفاصيل صغيرة وصرت أخاف عليه، بدأ يخرج عن الواقع، ويصبح اهتمامه به أقل، ويعيش بين الذكرى والحلم والوهم، يغادر المكان بعيداً.. إلى هناك!.

حين غاب ذات خروج على غير المعتاد، كان أسلم روحه تحت شجرة في البستان القريب.

لم ينتظر أن نزرع الأرض التي قام بشرائها في خان الشيح، كانت روحه تطير كل يوم، يعيش هناك... ولا رغبة لديه للعيش هنا! عاد مرة أخرى وإلى الأبد.

ألقى بجسده المتعب، خلع انتظاره على قارعة اللجوء وغادرت روحه... ربما إلى هناك!.

تذكرت الأشجار التي تركتها وحيدة في مواجهة الظلم الإنساني، وبشاعة ما يحصل، الأشجار التي غرسناها معاً في أرض بديلة - ليست فلسطين.

كان أبي يقول: «الشجر روح، الشجر روح يسبح بحمده».

في خان الشيح أصبحت الأشجار صبايا يافعات، وصرت أفهم ماذا يعني (الشجر روح)، أشجار السرو ترتفع فوق سور البيت وتمتد على جانبين باتجاه الغرب والجنوب، ترتفع بفرح وخيلاء في

الجهة الغربية باتجاه جبل الشيخ، بينما يقف الورد ضاحكاً بألوانه الزاهية بين جذوع شجر السرو.

شجرة النارنج حملت هذا العام حبة واحدة، و حملت شجرة الليمون عشر حبات صغيرات وشجرة البوملي القصيرة حملت حبة صغيرة، أشجار مختلفة يمتلئ بها المكان، تفاح وجارنك وخوخ، لوز ومشمش ودراق، رمان وتين و..... وأربع شجرات زيتون كن في الأرض عند الشراء.

شجيرات الميريمية الثلاث نهضن يعبق بروائحها المكان، أشمها في كل الأوقات، أسلم عليها باليد، آخذ بعض وريقاتها لأخلطها بالشاي.

في أيام تالية لنزوحنا من مخيم اليرموك كانت أمي تتجول في المكان بين الشجر في حوار صامت مع الطبيعة، مشيت إليها فراحت تقص علي عملها في الأرض هناك تارةً وتارةً تقدم بعض خبرتها، ومرة تحدثني عن جدي الذي كان يسيج بستانه بالصبار: «كل يوم يشرب الحليب وزيت الزيتون، يشرب البيض البلدي ويأكل الصبار - كان يحب الصبار كثيراً- ثم يبدأ الفطور».

تتوقف قليلاً عن المشي، تنظر بعيداً وتقول: «لو كان أبوك هنا» - الله يرحمه - كان يحب النوم تحت الشجر.

قلت لها ممتلئاً بالفضول لمعرفة ما جرى بعد هدم بيت جدي: «بعد أن جاء الثوار إلى بيت جدي وهدمه الإنجليز ماذا حصل؟ أين عشتم؟».

جلست على حافة السور المنخفض بين الحديقة والرصيف المحيط بحفرة المسبح، وجلست إلى جوارها:

- «كانت أياماً صعبة يا ولدي، كانت (خديجة) أختي الكبرى تستعد للزواج، وتجهز جهازها، كان عريسها ناجح بن عبد الله السعد من القرية وتربطنا به صلة قرابة بعيدة.

الإنجليز أعطونا وقت قصير لإخراج حاجاتنا من البيت، ولم يسمحوا لأحد أن يساعدنا.

فقط أمي ونحن البنات.

كنا نركض، نحضر بعض الأشياء من الداخل ونتعثر، وكثيراً ما وقعت مع أشيائي. وقت قصير جداً وأبعدونا عن البيت، ثم سمعنا دوي انفجار ضخم، الكثير من الغبار ارتفع وظهر بعد ذلك البيت وقد صار ركاماً، وكان جزء من جهاز خديجة بقي تحت الردم».

تمسح أمي دمعة وتتابع:

«قال المترجم أن علينا ألا نبني في هذا المكان مرة أخرى وإلا سيتم هدمه».

تدمير الذاكرة جزء من هذا العقاب - قلت لنفسي.

حتى لا يقال أن الثوار مروا من هنا.

تدمير المنازل ليس ابتكاراً حديثاً..

«كان الضابط يبتسم بحقد «قالت أمي بألم» والله لما كان الإنجليز يداهموا القرية ما يتركوا شي، يخلطوا الطحين بالزيت بالكاز».

توقفت طويلاً ثم تابعت: «رحلنا إلى بيت عمي أبومحمود - أخ جدك عبد الرحيم - أعطونا غرفة كبيرة، وبدأنا بناء بيتنا الجديد في بستاننا على حدود البلد».

تصمت قليلاً وتمد بصرها إلى الأمام كأنها تحاول رؤية الصورة بشكل أوضح: «كان الجميع يعرف أبو كيس، مخبر الإنجليز.

هو من قرية مجاورة، تعرف عليه بعض شباب القرية بسبب قامته الطويلة، ووحمة صغيرة على يده اليسرى، غاب عنه أن يخفيها في البدء، ثم صار يخفيها دائماً، ما أكد الشكوك فيه».

تحدق باتجاه الأرض، تصمت، ثم تتابع:

«أخبر مصطفى خالك قيادة الفصيل بما جرى بعد زيارتهم المسائية، وأخبرهم بأمر أبو كيس».

لحظات صمت، تلتقط بضعة بحصات صغيرة، ترمي بها قريباً الواحدة تلو الأخرى، وترمي آخرها بعيداً وتقول:

«اجتمع الفصيل في المواقع الحرشية، في الغابة القريبة من القرية، وقام أفراد الفصيل بمواساة خالك صالح، الذي كان يشعر بالفخر أن يقدم أهله هذه التضحية كرمى للثورة».

صمتت طويلاً تصغي إلى صوت إنفجارات جديدة على البعد - تهدأ الإنفجارات فتتابع:

«قررت قيادة الفصيل المساهمة في بناء بيتنا الجديد، واختلفوا على قتل أبو كيس».

صمتت تستذكر: «قال عبد المعطي قائد الفصيل أنه من الأفضل ألا ننحرف عن رأس الأفعى - قصده الإنجليز - وأن قتل أبو كيس سيضر بالثورة، لن يفيدنا ذلك.وقال أننا يجب ألا نوجه السلاح نحو الداخل مهما كانت الأسباب» «اتفق الثوار على متابعة أخبار جدك عبد الرحيم والعمل على إطلاق سراحه».

أصوات انفجارات تتالى وننصت جميعاً.

- متى ستنتهي هذه الحرب؟ تسأل أمي بأسى.

- والله ما حدا بيعرف.

تقوم أمي للصلاة.

آخذ كرسيين أضعهما على التيراس القريب من المطبخ وغرفة الجلوس والذي يرتفع درجتين عن أرض الرصيف المحيط بالمسبح.

أضع أحد الكرسيين باتجاه القبلة، تجلس أمي وتصلي، بينما أجول بناظري بين الأشجار، وأنتبه إلى حركة الناس في الداخل والخارج. قلت بشغف: أمي، هل تكملين؟. ابتسمت بفرح:

«عمي أبو محمود كان كريماً ومضيافاً، لكنه عصبي المزاج حاد الطباع، وكانت أمي على عجل للانتقال إلى بيتنا الجديد، لذلك كانت تتابع باستمرار أعمال البناء، وتستحث العاملين وتشجعهم».

تصمت على صوت رشقات مدوية بعيدة، ترفع رأسها قليلاً بإصغاء، ثم تعود:

«ذات يوم جاء عمي يقول لأمي أن أبا حسن المرجان يطلب سعاد أختي لابنه حسن الذي يعمل خياطاً. أرادت أمي الإنتظار لحين خروج أبي من سجن الإنجليز، لكن عمي كان له رأي آخر: (البنت كبرت، وأبو صالح الله يفك أسره - الزواج سترة)، فأصرت أمي حينها على سؤال سعاد (حتى لا نكسر خاطرها)».

تبتسم أمي ابتسامة خفيفة وتقول: «ذابت سعاد خجلاً، وأمي تسألها - اللي بتشوفيه، وترد أمي: والله حسن شاب حلو وشغيل،

وأهله محترمين، وابن بلدنا، والله أحسن من الغربة، توكلي على الله». «انتقلت سعاد أختي إلى بيت زوجها في وسط البلد، وكانت خديجة تزوجت ناجح بعد هدم بيتنا بأربعين يوماً، تزوجت ابنتاه - يا ناري - وهوفي سجن الإنجليز».

- وأنت ما تزوجت ؟ قلت مازحاً.

ضحكت وهي تقول: «أنا كنت صغيرة خمس أو ست سنين».

تأخذ نفساً عميقاً، تنظر بعيداً:

«كنت صغيرة أمتلئ بالحيوية والنشاط، أريد أن أكبر بسرعة، فكنت أساعد أمي في كل ما تعمله، وأقف إلى جانب والدي، ألبيه قبل أن يفكر أحياناً، أتحرك دائماً لتلبية الجميع لأثبت لهم أنني لم أعد صغيرة، وكانوا سعيدين بذلك، أحبوا ذلك واعتادوا عليه، كنت قادرة على إثارة الحركة في أي مكان، كانوا يقولون ضاحكين: جاءت زينب، مشى البيت.

في بيت عمي كنت أصحو باكراً مع أمي، أساعد في ترتيب البيت، وأرافقها إلى الأرض، كان ذلك يحصل عند صلاة الفجر.

لا زلت حتى اليوم بهذه العادة، عدا الذهاب إلى الأرض.

عند العودة في التاسعة صباحاً أو بعدها بقليل، أقوم وأخواتي بتنظيم الفطور، نفطر مع بيت عمي، وأروح للعب في ساحة البيت.

كنت ألعب أنا وزيد، كان يكبرني بسنتين أو ثلاث، وكنا نضحك على الفاضي والمليان، وكان علي يبقى بعيداً، لا يلعب معنا، لا يضحك ولا يبتسم، كنت أنادي عليه ليلعب معنا، كان دائماً يتشاغل، كان يحسب نفسه على الرجال.

كنت أتحرك طول الوقت، أضحك وأغني، ومرة وقعت عن ظهر الحمار ومن خوفي أمسكت قدمه الخلفية وأنا ملقاة على الأرض، وأضحك من قلبي رغم الخوف. لا أعرف كيف نجوت، لم يؤذيني الحمار وبقي ساكناً طوال وجودي على الأرض».

«عندما يأتي عمي أبو محمود، كنت أركض عنده، كان يحبني - الله يرحمه - يبوسني ويعطيني ملبسة نعنع من جيب دشداشته».

«كان عمي محتاراً، يسجلني بالمدرسة أو يبقيني بدون تعليم مثل أخواتي البنات. كان أبي يخاف من العار، أن تدخل بناته المدرسة ويتعلموا كتابة المكاتيب، وبعدين عمي تشاور مع أمي: والله حرام البنت شاطرة، ولازم تتعلم».

ازدادت وتيرة الأصوات، حدة الصبيب المدفعي، رشقات نيران كثيفة، الأرض تهتز. صمتت أمي ثم قالت: «طول عمرنا بالعذاب».

قدر الشرق يا أمي.

إلى السكون أعود مرة أخرى في بلاد الغرب.

سكون مذهل، سلام، زرع، أشجار، غابة... وليل.

لا زالوا نياماً أصدقائي. وأتابع في قلب السكون: السكون!.

## رحيل 11

مر وقت طويل منذ وصلت هنا..

كأن ذلك حصل مع شخص آخر.

أوزع نفسي على أزمنة غريبة، أتمدد عليها إلى أن أطمئن إلى إنجاز ذلك، أتقاسمها مع جغرافية متباينة لا تحكمها خطوط الطول والعرض، تتفاعل في مخيلتي، أتناولها على مهل، أتابع رسم لوحة ثلاثية الأبعاد للزمان والمكان والفعل الإنساني.

يبدو المشهد ساخراً ومؤلماً بآن.

تحضرني موسيقى قديمة.. نينوى.. تزور ذاكرتي أوقات الحزن الرمادي.

يستقبل حسن أحد أقاربه، ويجلسان في الزاوية المطلة على الغابة. ويتابع خالد صمته مستلقياً، بينما راح سعد يبحث في جهاز الكمبيوتر المحمول عن شيء ما. وأنا أسترخي في سريري بعد الغداء، بين التأمل والنوم، أحلام وأطياف، آمال بأن الوقت سيمر وسيتغير كل شيء، لقد تغير كل شيء سابقاً فلم لا يتغير الآن، سيكون.. إهدأ.. سيكون - أقول لنفسي.

أغمض عيني وأتابع مشهد وصولي إلى هذا البيت:

أفتح عيني على اتساعهما، بعد أن خرجت من الزحام الشديد، من انتظار طويل.

أسير في الشوارع، في منطقة المشاة..

كل شيء بدا غريباً، وضجيج رحلتي يجول في رأسي..

أبدأ الخلاص منه، كأن مصنعاً تتوقف آلاته عن العمل في آخر النهار ويبقى دويه في الرأس، يتلاشى رويداً.. رويداً.

أتابع سير قدمي ونظرات عيني واندهاشي...

أعطوني عنواناً أسافر إليه بالقطار.

وصلت إلى السكن مساءً، الجو يميل إلى البرودة، نسمة خفيفة، ويهبط العتم على مهل.

أخذت مكاني بين الآخرين، بعد تعارف سريع:

أنا عبد الله - حسن - خالد – سعد.

أشاروا إلى الأسرة الفارغة، فاخترت الركن السفلي لسرير ذو طابقين، رتبت أموري على عجل، وضعت حقيبة الظهر فوق رأسي باتجاه فراغ بين رأس السرير والجدار. أخذ الإعياء مني مأخذا.. نمت.

في الصباح تلفت حولي، كان أصدقاء السكن نياماً، خرجت من النزل - البيت على طرف الغابة في طرف المدينة الصغيرة.

سمعت أصوات طيور، الشمس تحجبها بعض الغيوم، لم أر أحداً.

آخرالكون - قلت لنفسي.

درت حول البيت مرتين، أتأكد من المحيط، من الجوار!. لا جوار سوى الغابة.

يبعد أقرب بناء خمسين متراً على الأقل.

يقع بيتنا في نهاية الطريق المتفرع الصاعد إلى الأعلى على مسافة غير بعيدة من الشارع الأصل.

فكرت بالشخوص إلى المحطة، أرصفة القطار الرمادية، لأتأكد أن رحلاتها تنتهي في هذه المدينة القصية في آخر الكون.

سأتبين إذا كانت السكة تنتهي هنا وأن المدينة هنا نهاية المطاف.

عادت بي الذاكرة حينها إلى شاعر يلقي كلماته عبر شارة مسلسل تلفزيوني منذ أكثر من ثلاثين عاماً بصوت أجش محبب يقول:

واحد هون... وواحد هون... وواحد بآخر هالكون..

هل كان هنا ذات يوم؟!. ليبدأ الكون هنا أو ينتهي، ماذا يمكنني أن أفعل؟ صرت هنا.

مشيت باتجاه الغابة في طريق معبد بين الأشجار، محاولاً حفظ الطريق.

في الغابة بعض المارة، كثير منهم يرتدي ملابس رياضية، بعضهم يمارس الجري، وبعضهم على الدراجات الهوائية، وآخرون ينزهون كلابهم...

ابتسامات، تحيات، يشدون الكلاب إليهم أو ينادوهم حتى لا يزعجوا الغرباء.

لم أوغل في الغابة في رحلتي الأولى لاستكشافها، عدت مسرعاً.

ينادي حسن بصوت مرتفع، يقطع علي أفكاري: هل تشرب شاي أستاذ، من يشرب الشاي ؟. يقفز سعد:

«توقفوا عن شرب الشاي، وجدت العنوان، الخريطة، اليوم السبت، استعدوا للحدث القادم».

عن أي عنوان يتحدث، أسلوبه المعتاد، يعتقد أنك تتابعه دائماً، أو أنك تقرأ أفكاره وأنك تعرف ما يقصده، كثيراً ما يخطو خطوة أو خطوتين إلى الأمام.

- أي عنوان، عم تتحدث - قلت له ولم أصح بعد تماماً من تأملاتي

- «اسمعوا جميعاً، والضيف يمكنه المجيء معنا، هناك حانة أسطورية تبعد من هنا ما يزيد عن نصف ساعة، اسمها (بيت الحلم - فقط أطرق الباب) يجب أن تطرق الباب ليفتحوا لك وتدخل، عندما تفتح صاحبة البيت وترحب بك.. أقصد بنا، تدعونا للدخول، يعطينا هذا الفعل الإحساس بزيارة خاصة دافئة، لأصدقاء أو أقارب.

في الداخل يمكنك أن تحصل على طاولتك الخاصة، ويمكنك أن تطرق على أي طاولة خشبية في الصالة إذا أعجبك أحد الجالسين أو الجالسات، وتنتظر لحظة، إذا طرق أحد الجالسين فهو يدعوك للانضمام ويمكنك الجلوس، وإذا تم تجاهلك، ولم تتلق الرد فعليك متابعة السير بدون ضغينة، وبالمقابل إذا تلقيت طلباً للجلوس إليك يمكنك قبول الطلب أو تجاهله».

يتابع سعد وينظر في الوجوه:

- ما رأيكم، لعبة رائعة، تجربة جميلة، صمت.. يتابع ترويجه للفكرة:

- «الجو رائع، يمكنك أن تمضي ليلة مع غريب، أو غريبة، دون الاضطرار لمعرفة الأسماء إذا أردت، يمكنك تبادل الآراء، أو المزاح، أو التعارف.. شيء مذهل، يمكنك أن تختار موسيقى موجودة لديهم، أن تقترح تغييراً في الإضاءة، وهناك غرف للراحة والاسترخاء. يمكنك أن

تسترخي بشكل منفرد في غرفة عرضها لا يزيد عن المترين ونصف، وطولها أربعة أمتار، ملونة بالأبيض، فيها ستائر كثيفة وستائر شفافة، ولمبة إضاءة واحدة، هناك سرير مفرد للاستلقاء والنوم والحلم، هناك حمام صغير لدوش منعش. يسمح بالدخول لشخص واحد إلى الغرفة بقصد الاستراحة، أكرر فقط شخص واحد.

لا يوجد ضمن الغرف واي - فاي، هناك سرير وعلاقة وحمام، شامبو ومنشفة. تضع النقود في الحصالة أمام باب الغرفة حسب الوقت الذي ترغب بقضائه، يفتح الباب وتدخل. لمن لا يشرب الكحول، يمكنه شرب العصير».

ضحك ضحكة صغيرة وانتظر ردود الفعل. رد حسن أولاً:

- والله حلو، كيف تكتشف هذه الأشياء، أنا ومحمود ضيفي أعجبتنا الفكرة.

- عظيم. صرخ سعد ثم نادى:

- أستاذ عبد الله ستذهب معنا، نشرب قليلاً، نستمتع، لن نسكر، ولكن السهرة حلوة، تجربة جديدة، جرب.

- هذا مثير، أحب أن آتي ولكن...

- لا يوجد ولكن، ستأتي، وخالد لا يمكن أن تبقى وحيداً، لنخرج من المكان، دعونا نغير، لننطلق بعد نصف ساعة.

حاول خالد التملص، كان سعد يغني، ولا يسمع أحداً، أخذ قراره: «سنذهب، اليوم خمر وغداً أمر» يرقص وهو يضع سماعات الموبايل في أذنيه، ويصرخ فرحاً.

أصبح الجو أقل جدية، بعض المرح، ولا زال خالد مقيداً إلى عطالته،

وتند عنه بين حين وآخر ابتسامة خفيفة. يشده سعد من يده يحاول أن يجعله يرقص.. أصاب سعد مس من الجنون، من الفرح، هو هكذا.

- ولكن يا سعد ألا تتوقف المواصلات بوقف محدد، دعنا لا ننام في الشوارع - قلت أحثه لإيجاد طريقة للعودة.

راح سعد بمزاجه المرتفع يطلق العنان لكلماته، لرؤيته الخاصة:

- «لنكن أكثر مرحاً، لا تفكر بالوقت كيف سيمضي، لا تفكر بدلاً عن الوقت، دعه يمر، إنه يمر.. وكن أنت قادر على المرور.. إلى أين؟ إلى حيث تريد، إلى حيث يمكنك المرور، كن مثل قطرة الماء التي تنفذ من الصخر.. تمتع وأنت ترى الصخور، وأنت تمر بجانب البحر، وأنت تشرب العصير، وأنت منهك، عندما تضطر للنوم في الشوارع، وأنت ترتدي الثياب، وأنت تخلعها، وأنت تضع يدك في جيبك، وأنت تصعد الدرج أو تنزله، تمتع وأنت تهرب وأنت تواجه... ابتسم لنفسك، وأخبرها أنك على قيد الحياة، على قيد الفرح».

- يبدو أنك بدأت تثمل، قبل وصولنا - قلت.

- يا أستاذ عبد الله، دعنا نمرح قليلاً، نحب أنفسنا، ونستثمر الوقت، وبالمناسبة، أرى أن نختار موضوعاً لجلوسنا في الحانة، لا نريد خوضاً في السياسة هذه الليلة.

- أختر لنا موضوعاً، دعنا نسمع منك - يقول حسن.

- سنتحدث في النساء، فقط في النساء، الرجال يتحدثون في السياسة أو النساء حين يجتمعون، لا سياسة اليوم... الموافقون: أغلبية.. قرار.. قرار.

قال ذلك دون تصويت، وأطلق ضحكته الرعناء.

- لننطلق.. تابع بمرح.

يبتسم الجميع، حتى خالد.

بانت الحانة على البعد، لوحات مضيئة، باب خشبي عريض وعالي كأنه قادم من العصور الوسطى. قال سعد:

- أريد أن أتمنى أمنية وأطرق الباب.

- كأنك تعاطيت الحشيش اليوم - يقول حسن ضاحكاً.

تقدم سعد وبدأ يطرق الباب بإيقاع راقص مدروس:

تك - تكتاكتوك - تتكتك – تتكتكتكتاكتاكتاك...

بينما نشعر بشيء من الإحراج ضاحكين. تفتح الباب صبية لا يتجاوز عمرها الخامسة والعشرين، شقراء نحيلة بقوامها الممشوق، وابتسامة عذبة أقرب إلى الضحك متأثرة ربما بالإيقاع الفريد الذي سمعته تواً، ترتدي فستان سهرة باللونين الأسود والأحمر يظهر من مفاتنها أكثر مما يخفي.

تجمد سعد مذهولاً، تسمر أمام الباب.

ارتبك قليلاً أو ادعى الارتباك، ثم قال بلغة انكليزية طليقة:

«هنا بيت الحلم؟ جئنا نحلم» وحرك يده بطريقة مسرحية معبراً عن ارتباك مصطنع، مشيراً إلى الداخل كأنه يستعطفها.

ضحكت الحسناء الصغيرة، ورحبت بنا.

دلفنا إلى بيت الحلم، مكان تعليق الثياب، البار، صالة وطاولات خشبية من القرون الوسطى، وباب عريض يؤدي إلى غرف الراحة، ولوحات جدارية عديدة، زهور، ونساء، وخيول، بحار وأشرعة، أنهار وأشجار..... سأل حسن مخاطباً سعد:

- ماذا تمنيت قبل أن تطرق الباب؟

- تمنيت أن تستقبلنا امرأة جميلة، بيت الحلم يستحق عناء الوصول إليه، هل رأيت يا خالد ما رأيناه.

يتفاعل خالد بالحد الأدنى.

محمود مبهور مثلنا بالمكان، بالجو، بالعلاقة بين أفراد مجموعتنا، وكان يضحك باستمرار، وسعد يقودنا، يتصرف كما لو كان من أصحاب المحل.

أخذنا طاولة في الزاوية البعيدة عن البار.

الإضاءة خافتة، يتدلى من السقف مصباح إضاءة كلاسيكي، موسيقى ناعمة تصل أسماعنا.

دقائق معدودة ونعتاد المكان، كأننا نعرفه منذ زمن بعيد.

نادلة جذابة تقف أمام الطاولة، تأخذ الطلبات وتوزع ابتسامة عريضة بالتساوي على الجميع: مشروبات كحولية سعد وحسن ومحمود، وعصير برتقال لي ولخالد. سأل حسن:

- من قال أنه يمكنك أن تتمنى أمنية قبل طرق الباب؟ كيف عرفت ذلك؟ يجيب سعد ضاحكاً:

- لم يقل أحد ذلك، أنا فكرت، أعجبتني الفكرة، نفذت، ما رأيكم أن نعلم الإدارة بالفكرة ؟

- مجنون، الفكرة جميلة، أعجبتني.

لفتتني لغة سعد الإنكليزية فسألته:

- أين تعلمت اللغة، أنت تتكلم بطلاقة، أدهشتني!. ابتسم سعد قائلاً:

- «الحياة قصيرة يا صاحبي، لتعيش أكثر عليك أن تتعلم أكثر من لغة، عندما تتعلم عدة لغات فإنك تعيش عدة حيوات.

تصور كم عدد النساء اللاتي يمكنك الحوار معهن إذا امتلكت لغتهن».

كان واضحاً أنه يجر الحديث باتجاه الموضوع الذي اقترحه. قال حسن مخاطباً سعد:

- كل شيء عندك يقاس بالنساء، أراهن أنك هنا بسبب إمرأة، بالتأكيد قصة لجوئك لها علاقة بامرأة.

يجيب سعد: «الآن هناك رجل يفهمني، وهذا سبب مناسب لأشعر أن وصولي هنا لم يذهب بدون ثمن. طبعاً يا عزيزي، طبعاً بسبب امرأة، وإلا لكنت شخصا آخر.

الجميع هناك يقاتل من أجل الوطن، وأنا أبلي من أجل وطن..» وأطلق ضحكته الماجنة. شرب ما في الكأس دفعة واحدة، وبصوت فيه جدية مصطنعة تابع:

- «المرأة وطن، يؤسفني أني لا أعرف من قال ذلك، لكنني أتبنى الموضوع وأعيشه، أحب الوطن، الأبيض والأسمر والخلاسي، الوطن ذو العيون العسلية، والعيون السوداء، أو الملونة، سأختار الوطن الذي أريد، أو يختارني الوطن.. ها هل ترون؟ كلما خسرت وطنا أربح آخر... يا للسعادة... دن.. دندن.. دنده.. ده دندن...».

راح يغني ويرقص جالساً، يقف قليلاً يحرك يديه راقصاً، يصرخ، يطلق صيحاته:

- «نساء العالم أوطاني .. ترللا لا.. ترااللا اللا تررممممم» يغني يدندن، ثم يقول «ما نفع العالم بدون نساء».

كنا نتضاحك، ونتبادل النكات، ويزداد الهرج والمرج، وصارت طاولتنا محط أنظار الجيران، وراح سعد يوزع ابتساماته على الطاولات ويحرك يديه محيياً، ويتلقى ابتسامات الآخرين وإشاراتهم. كنا نسمع صوت الطرق بين الحين والآخر، نلتفت جميعاً تتطاول عنق سعد، وعيناه تخرجان من محجريهما، تلمعان ببريق صاخب، يأخذ نفساً عميقاً يحاول أن يتذوق رائحة تعبر خياشيمه ويقول:

«لو تأتي امرأة جميلة تطرق طاولتنا، سأعزف لها مقطوعة كاملة مرحباً بها، سأجعلها ترقص قبل أن تجلس».

يقول حسن: «كأنك تفقد توازنك».

يجيب سعد بلسان واضح: «لا يا صاحبي، أنا فقدت توازني مرة واحدة في حياتي، سأخبرك بها، كان ذلك في حفلة تكيلا.. حفل تعارف، وهناك ناس من جنسيات مختلفة، التقيت على البار بفتاة لا تتجاوز الرابعة والعشرين، ربما أصغر، تحفة فنية، صديقي صاحب الدعوة اختفى أول ربع ساعة، ولم أكن أعرف هذه التيكيلا، ما إن رأيت تلك التحفة حتى فقدت نصف توازني والنصف الآخر فقدته بعد الكاس الثالثة، هل تعرف ماجرى؟ أنا لا أعرف، صحوت في اليوم التالي في غرفة لا أعرفها، لا أعرف ماذا حصل، وكيف اختفت تحفتي، كنت في الغرفة وحيداً حين صحوت، كان في الخزانة ملابس نسائية، تسللت خارجاً قبل أن يدعي أحد أنني هناك بداعي السرقة ولن أضيف شيئا آخر في هذه الحادثة».

ويسأله حسن: «وما قصة المرأة التي أرسلتك إلى هذه البلاد؟».

يبدأ سعد قصته:

- «التقيت في عملي بإمرأة غاية في الجمال، تم تعيينها مؤخراً، النوع الذي أحبه، أبيع عمري من أجله، ولعل هذا ما حصل، تصور أنا أبيع عمري من أجل ذلك، كنت أرغب بالبكاء أحياناً عندما أراها، تتحرك عواطفي وتهيج باتجاه الفرح أو باتجاه البكاء، أشياء تركض في جسمي، نيران، سهام، يصيبني دوار، أرتبك، ماذا يجب أن أفعل؟ هل أمشي، أقف، أرجع، أصمت، أحكي. كلما رأيتها، أخاطب نفسي كأنني أكرر دروسي: استرخ، قل ما عندك - القاعدة الذهبية الأولى - التلقائية، عليك أن تبقي خيوط اللعبة بيدك، لا تفلتها، عبر بنظراتك، بصوتك، دع كل شيء يحصل، دع الأمور تصلح نفسها، وفكر دائما أنك تملك قدمين للهروب وأحياناً تحتاج الهروب للأمام».

يشرب ويتابع، لا يوجد ما يوقفه، تصدح موسيقا خاصة بداخله تقوده، يطلق خياله ويتحدث بمتعة:

- «خلف الأبواب المقفلة يخلوا الكون سوى من جسدينا» يقول هذا ويصمت، يمكنك أن ترى دمعة عصية في زاوية العين:

- «هل رأيت نسمة على شكل امرأة، إنها هي، أي جنون أصابني، انفجر في داخلي، من داخلي، يتشظى الجنون في دمي، وينتج كائنات مجنونة، تركض تسابق الريح، تعصف بي، تذوب في جسدي، تتماهى فيه، أحملها وأطير، أحلق عالياً.. ما أجمل النساء، ما أجمل النساء». يصمت قليلاً، يهز رأسه يمنة ويسرة، يتذكر شيئاً ويقول:

- «عندما تضحك أهتز من الداخل والخارج، تعبرني كل أحاسيس الفرح، تبدو جيوشاً هذه الأحاسيس، تجتاح قلبي، تحيط به، تحاصره، أضحك، أبكي، كل شيء يتحرك.. ما أجمل الحياة.. ما أجمل الحياة».

- أنت تحب العيون الملونة - يقول حسن-

- «أحب كل العيون ما دامت تنسجم مع المحيط، أحب العيون التي تصيح، تنادي، أحب حوار العيون»

يرفع سعد كأسه ويقول: «كعبك أبيض».

يرفع حسن ومحمود كأسيهما ويشيران إلينا أنا وخالد فنرفع كأسينا: «كعبك أبيض» نشرب جميعاً، كل ما في الكؤوس.

وتأتي النادلة لطلبات جديدة، يحاورها سعد ويضحكان.

تذهب وتعود بالطلبات.

ويصر حسن: «لم تقل لنا حتى اللحظة كيف أرسلتك إلينا».

يتابع سعد كأنه لم يسمع شيئاً:

- «عليك أن تجعل المراة تضحك، أن تفاجئها دائماً، عندما تضحك المرأة فإنك تكون قد فاجأتها بطريقة ما، وربما فاجأت نفسك، عليك أن تحتل خيالها، أن تطلقه وتقفز إليه، هل تفهم يا حسن؟».

وأحاول استفزازه: «وماذا عني؟». يضحك سعد ويقول: «أنت تجاوزت الخمسين، ستحتاج إلى مظهر رجل ثري».

يقاطع حسن: «وما الفائدة إذا كانت المرأة تتزوجك من أجل فلوسك؟».

يجيب سعد بلسان غير ثقيل:

- «أنا لا أتحدث عن الأخلاق، هل ستقنعني بأن امرأة في العشرين تحب رجلا مفلساً في الخمسين؟ ما المشكلة إذا تزوجت

امرأة من أجل شبابها، وهي تزوجتك من أجل فلوسك! أنت تأخذ أغلى ما عندها

- شبابها- وهي تأخذ أرخص ما عندك فلوسك.

كان هناك رجل يطلقون عليه في المنطقة لقب أبو الذهب بسبب ثرائه، تزوج ثلاث نساء تباعاً وقد تجاوز التسعين، وجميعهن تحت سن الخامسة والعشرين، وكن يطمعن في الميراث، ماتت النساء الثلاث تباعاً قبل أن يموت أبو الذهب».

يعيده حسن إلى المرأة التي أرسلته هنا:

- هل تفتقدها تلك المرأة ؟ هل يحزنك فراقها؟

- «أنا أشعر بالحزن مثلكم، ولكني لا أعيش فيه، أنتم تشترون الحزن، تدفعون ثمن شرائه، وعندما يكتشفون ذلك هنا قد تقوم شركات خاصة بإنتاج الحزن وتعليبه وتوزيعه للراغبين، وقد يجد البعض عملاً، يستولدون منه الحزن.

الفراق جزء من الحياة يا صاحبي، وعليك أن تقبل به، لا شيء يستمر - قاعدة ذهبية أخرى –

يقول حسن مستفزاً: «ولكنك لست مخلصاً لها تلك المرأة».

ويرد سعد: «أنت تخلط الأمور يا حسن، أنا مخلص لنفسي، أحب نفسي، كن مخلصاً لنفسك ولن تحتاج إخلاص أحد آخر. أنا خلقت لأحب النساء، النساء أجمل ما في الكون».

ويتابع حسن استفزازه: «قاعدة ذهبية جديدة؟ أنت لا تفكر بشيء آخر؟».

يرد سعد: «إذا فكرت بشيء آخر، يكون من أجل النساء». وطارت ضحكته ترن في الفضاء طويلاً، وكل من في الحانة، ينظر باتجاهنا.

- ولكن كيف أرسلتك هذه المرأة هنا؟ كررت السؤال للمرة الألف.

- «والله يا أستاذ كان زوجها رجلاً مهماً، تسرب إليه اهتمامي الشديد بزوجته، واهتمامها بي، وفي هذه الظروف تسهل تصفية الحسابات. أخبرني أحد معارفي بأن على المغادرة بأسرع وقت، العمر غالي يا أستاذ، هربت».

لم نكن نعرف حتى اللحظة أنه يتحدث عن امرأة متزوجة.

كم هو ماجن هذا الرجل كما يقول حسن! لا ضوابط له ولا حدود. ونسمعه يقول: «اشرب - تمتع» يرفع الكأس يدلقه دفعة واحدة، يفتح عينيه واسعاً، يجول بنظره وقد استطالت رقبته.

- أي مجنون هذا - يعلن حسن - وأقول في نفسي «أي مجنون» وربما نتفق جميعاً على ذلك.

أحسسنا جميعاً بالنشوة، جماعة الكحول، وجماعة العصير... أمسية جميلة، تألق سعد فيها، تخلص من بعض غموضه وأثار جوا لطيفاً من المرح، وبقي علينا تدبر أمر العودة إلى البيت.

خرجنا للهواء النقي،الجو منعش، قليل من البرد. أغلق باب بيت الحلم خلفنا، ورحنا نمشي في الطريق، في أجواء ليلة هنية لا تتكرر.

## رحيل 12

هل اجتاح القهر خلايا إنسان الشرق في أزمنة البؤس السرمدية، أعاد تكوينها واستوطن الجينات، دخل في تركيبها، لينتقل عبر الأجيال؟.

هل أصبحنا نرث القهر والبؤس، كما نرث لون العيون، وشكل الوجه وتقاطيعه، طول القامة ولون الشعر وشكله؟ كيف يمكنك الخلاص؟ أسأل نفسي أثناء متابعتي الأخبار القادمة من هناك، وأميل إلى هذا التفسير المنتفخ بالهزيمة، لأتوقف عن التفكير.

إن الأشياء السيئة تحصل باستمرار، ليس بالضرورة كنتائج لمقدمات، وليس ملائماً بنفس الوقت تفسيرها على أنها جزء من القدر الذي يلاحقنا باستمرار، يحيط بنا في الزمان والمكان، يحاصرنا بطريقة ما.

هل ينبغي التسليم بذلك والقبول بالتفسير السهل للأحداث لهذا البؤس المستمر؟.

كيف أفسر هذا بطريقة أخرى؟.

أضيق ذرعاً بهذه الأفكار الكئيبة، أقف وأتمشى جيئة وذهاباً في المساحة الضيقة خارج مهجع النوم، وأعاود حوار نفسي:

كيف يمكنك أن تتغير؟ أن تخرج من جلدك؟ أن تتوقف عن أن تكون شخصاً من هناك؟ إذا تركت أشياءك، هل تتركك أشياؤك، وناسك، أهلك؟ لا سبيل.. لا سبيل.

الرغبات التي ظهرت هناك، المشاعر، الأحلام، الأسئلة الصغيرة،

والأسئلة الكبيرة، كل ذلك نما فينا قبل أن نعي، وتغلغل في تكويننا العضوي.

تسمع صوت رائحة ما يطرق بقوة أبواب ذاكرتك، فتستيقظ حواسك، تفتح ذاكرتك، تهب، تستنفر، أنت من هناك.!

تصدح موسيقا تطربك، وقد تبكيك، يتسلل اللحن إليك، يحملك إلى هناك.

هي ليست أجساداً مادية مستقلة، هي أشياؤنا، التي تملأ فضاءنا، دنيانا، خلايانا، وأجزاء الخلايا، تعبرنا ونعجزعن عبورها...

إن ذلك ليس مرضاً كالجذام، أو الطاعون، أو الكوليرا، يستدعي ضعف الجسد أو وهنه؟. إنه يستولي على كل شيء بمعرفتنا أو بدونها، لا يكمن في مكان ما، بل يمتد في كل مكان من جغرافيا جسدك، يخرج إليك ساخراً أحياناً، يلقنك الدرس الذي عليك أن لا تنساه أبداً، أو تتجاهله، أنت من هناك.. أنت من هناك.. لا مناص.. لا مناص.!

لم يتوقف خالد عن كونه قادم من هناك، ويحمل ما يحمله من وجع، من ميراث!.

قال سعد ذات مرة: «يجب أن نفعل شيئاً، هذا الرجل يموت بصمت، كما ماتت ابنته فرح».

ذات حرب في زمن التوحش - لا زالت مستمرة - ماتت فرح، طفلة خالد في عمر الزهور، وها هو يذبل غير قادر على المقاومة، ساهم أبداً.. صامت.. لا يقول.!

إنه يسير في طريق مسدود.

قلت لحسن وسعد «لو نستطيع فعل شيء، سيقتله الحزن هذا الرجل، أو يقتل نفسه».

كنا وحيدين هذا المساء أنا وخالد في بيت السكن، بينما خرج حسن وسعد إلى حفل مسائي رتب له سعد مع آخرين، وقد يستمر الحفل حتى الصباح.

كانت أضواء النهار تتلاشى وسكون عميق يتجول في المكان، وصمت. ولا زال خالد يمارس صمته في زاوية ضيقة فوق سريره في مهجع النوم.

وكنت عدت من جولة طويلة بين أشجار الغابة القريبة في زيارة لمروج خضراء واسعة، توسطت قلب الغابة

- مرحبا خالد - قلت

- أهلاً أستاذ عبد الله - يرد بهدوء.

- سأعد لنا فنجانين من قهوة البلاد، ألا تشتهيها؟ القهوة مزاج، ورفقة طيبة، ألا تشرب معي؟

- لابأس، شكراً - قال بخجل.

- تعال وتجهز، تعال نشربها قرب نافذة الغابة.

كان يتحرك ببطء، بينما رحت أعد القهوة باستمتاع، أحب هذا العمل - إعداد القهوة - ورؤيتها وهي تفور، أرفعها عن الموقد وأعيدها، أشم رائحتها كأنها قادمة من هناك.

أسكب فنجانين على مهل، وكأسين طويلين من المياه، أضيف المجموعة إلى منفضة السجائر المعدنية على صينية واسعة. جلسنا في الركن المحبب على الزاوية البللورية.

رفع خالد رأسه وقال مرة أخرى:

- شكراً على القهوة

ملأت أشعة الحزن المنبثقة من عينيه المسافة بيننا .!

- لم لا تتحدث يا خالد؟ أعطني فرصة لأفهمك، لأساعدك.

- ماذا أقول يا أستاذ؟

- تحدث، قل ما يؤرقك، لا تبقى صامتاً، قل ما تريد، أي شيء، ما يخطر على بالك، نحتاج دائماً إلى أصدقاء نقول لهم.

- مشكلتي كبيرة، قصتي طويلة ومؤلمة، ولا أحب أن أكون ثقيلاً على أحد.

أحسست أنه يريد أن يقول شيئاً، أن يتحدث، أنه بحاجة لمن يسمعه، فقلت له مشجعا:

- «كلنا لدينا مشاكل كبيرة، لم تعد هناك مشاكل صغيرة بعد هذه الحرب، كلنا لدينا ظروف قاسية، واختناقات، وكلنا نشعر بالغربة، لكن لا تجعل ذلك يقتلك، اخرج من جوك الخاص، تحدث، سيساعدك ذلك، إن الحياة تستمر، دعنا لا نجمع الوجع، دعنا نبعثره، نتغلب عليه، دعني أساعدك».

كان بحاجة إلى دفعة مناسبة بحجم قدرته على الصمت ليبوح بما اختنق به، وقلت لنفسي أنه سيقول الكثير، إذا بدأ لن يتوقف حتى يقول كل شيء.

أخذت سيجارة، انتشرت سحائب الدخان فوقنا، أخذت رشفة من قهوة رائعة المذاق، وتركته يتحدث دون أن أقاطعه، دون أن أضبط الإيقاع، سأتركه لإيقاعه الخاص، وأستمع إلى ما يقول:

«العالم ظالم يا أستاذ، هذه الحرب جردتني من كل شيء، من ابنتي فرح، من ابني سامي، من أخي، من زوجتي، واجهت ذلك وحدي، والآن لم يبق شيء أخاف عليه، لا يوجد من ينتظرني.

عندما أجد ابني سأتوقف عن البحث، لن أبحث عن شيء آخر»

توقف للحظات، عيناه زائغتان باتجاه الغابة:

«أنا ضعيف، أعلم ذلك،ولكن هذا أنا، لم أستطع أن أكون قوياً، كنت أنام مظلوماً كل يوم في حياتي.

سكن الخوف قلبي دائماً، لا أذكر متى بدأت أخاف، صحوت على عمري خائفاً.

منذ طفولتي المبكرة كنت أخاف من كل شيء، أموت رعباً من الأصوات العالية، من الظلام، من السكون المطلق.

حكايا الجن والعفاريت التي كانت تتحدث بها عمتي دائماً حين تزورنا ملأت رأسي، وأطلقت فيَ خيالات مريضة، كنت أحلم بهم، أرى أطيافاً.

في الصباح الباكر بين اليقظة والنوم كنت أرى الملائكة، لن تصدق، كنت أراهم، أقدامهم قرب الأرض، ورؤوسهم في السماء، أعمدة بيضاء وشفافة، عريضة وعالية بعيداً في السماء، تملأ عيني، لا تلامس أقدامهم الأرض - ليس لهم أقدام، لم أر أجنحة، ولكن العمود الأبيض يبدأ فوق الأرض قليلاً، لا يتلوثون بالطين، لا يبللهم المطر، أنظر من الأسفل إلى الأعلى مأخوذاً بوجودهم، أشعر بقشعريرة ولكني أرغب برؤيتهم على مراحل أو دفعة واحدة، لا أرى ابتساماتهم ولكني اشعر بها.

في بعض الليالي يرتجف قلبي حتى الموت.

في الحلم أرى الجن بأجسام مختلفة، ليست أجساماً كبيرة مثل الملائكة. كان هناك شكلاً شهيراً يزورني،يظهر على شكل أجساد تقف على ارتفاع غير كبير في الهواء، ربما متر، أكثر قليلاً أو أقل قليلاً، أجسامها مخططة مثل خطوط النحل بالأصفر والأسود، ورؤوس كبيرة، ووجوه ضاحكة مرعبة بأفواه كبيرة وأسنان غير منتظمة. أصرخ.. يضحك.. أفتح عيني، لا أراه.. أشعر به.!

أخرج من نومي، أتجمد، عيناي تجولان في المكان، أبحث خائفاً، وأسمع صوت أبي في الغرفة المجاورة، يتحدث في نومه، يشتم، وأزداد هلعاً، خائفاً من النوم وخائفاً من الصحو.

صار الخوف جزءاً ملتصقاً بي، الخوف من الحشرات، الخوف من الجرذان، من الحيوانات، من الفراغ والعتمة والصمت، والصراخ، والموت. الخوف من الفقدان»

يصمت لحظات، يشرب قليلاً من الماء، رشفة قهوة، يتركني مأخوذاً بما يقول ويتابع:

«أبي يناديني بأوصاف لا أحب تذكرها، أقلها يا جبان، أنا جبان يا أستاذ، أبي يناديني بأوصاف غير لائقة، ويستخدمها الآخرون، يرددوا وراء أبي، وصرت أعتاد على ذلك.

كانت أمي رقيقة، وديعة، أخذت عنها وداعتها.

والدي يعمل آذناً في المدرسة التي كنت تلميذاً فيها.

في النهار أضطر لمساعدته في الفرصة، وبعض الحصص الدرسية،

بموافقة المعلمين، كرهت هذا الوضع الدائم، وكنت أشعر بالحرج دائماً أمام رفاقي.

في الليل يرسلني لأشتري له زجاجة المشروب - النبيذ أو العرق - وبعض المازة الرخيصة.

يرتجف قلبي الصغير وأنا أسير في الليل إلى محل المشروبات الوحيد في المنطقة، تخلو الشوارع من المارة في ليالي الشتاء الباردة.

حين أعود، أكون مبللاً أحياناً من المطر، أرتجف - وتختلط علي الأمور - بين البرد والخوف، لكنني كنت أرتجف، وتساعدني أمي في التخلص من الملابس المبللة، وأعود للوقوف بجانب أبي، قريباً منه وهو يثمل، حتى أستطيع تلبيته بسرعة،قبل أن يغضب، قبل أن يصرخ عالياً، أنا أكره الصراخ يا أستاذ، لا أحب الأصوات العالية، لكنه يصرخ دائماً، وأقول لو يتكلم بهدوء، لفعلت ما أفعله بالصراخ، لا حاجة للصراخ إذاً، لكنه يحب أن يطلق صيحاته، الصراخ يخصه على الأغلب، هو يعرف أنني سألبيه، إذا أشار فقط، لكنه لا يتوقف، صراخ.... صراخ.....»

يشرب بعض الماء، ورشفة من قهوة بردت، يزداد تعلقي واهتمامي بينما يتابع:

«عرض علي ذات مرة الشراب، نظرت إلى والدتي أستجير بها، وهي ترقب بصمت ما يحدث، وقلت لأبي: لا أحبه.. صرخ عالياً: اشرب، اشرب يا ابن.. وقبل أن يتابع ابتلعت الكأس الموجود أمامه دفعة واحدة، وبكيت، يومها أشفق علي أبي - المرة الوحيدة التي أذكر أنه أشفق علي بها، أخذتني أمي إلى صدرها وهي تبكي وقالت لأبي أنها ستترك البيت إذا استمر الوضع على هذه الحال،

ولم يقل شيئاً، أعطتني أمي كوباً من الشاي الساخن، ونمت أحمل خوفا جديداً - أن تترك البيت أمي.

يطلب أستاذنا المتدين - القريب إلى التطرف - يطلب منا تلاميذ الصف أن نصلي صلاة المغرب في المسجد القريب من المدرسة، ويجري التفقد بنفسه داخل حرم المسجد.

كنت ممزقاً بين ما يجري في بيتنا، ما يجبرني أبي عليه وبين تطرف أستاذي وما يجبرني عليه، بين وداعة أمي وسطوة أبي»

يتوقف قليلا عن الحديث ثم يسألني بغتة:

- «أروي لك حكاية لا علاقة لك بها، ألا توقفني، ألا يشبه الهذيان ما أقوله ؟»

- أحب أن أسمعك، أرجو أن تكمل، أنت تقول أشياء هامة؟.

يشرب ما بقي في كأس الماء، وما بقي في فنجان القهوة ويستأنف:

«كان لدينا أستاذ يصفنا بالبهائم، يعلو صوته ويقول: هل فهمت يا بهيم؟ ويضربني أبي قائلاً: كيف نقصت علاماتك؟ أتريد أن تصبح مثلي؟ كنت شاطر يا أستاذ، أفهم كل شيء، ولكني كثيراً ما كنت مشغولاً بطلبات أبي في البيت والمدرسة.

ذات مرة طلب منا أستاذ المؤشر - هكذا كنا نسميه - أن نكتب من واحد إلى ألف كعقوبة لا نعرف سببها، تصور أن تبقى طيلة الليلة تكتب ولا ينتهي الواجب المدرسي، وتذهب في اليوم التالي مثقلاً بالنعاس، خائفاً من عصا المؤشر الطويلة المستديرة المقطع التي يحملها هذا الرجل. يسأل أستاذ في الصف: من والده نجار؟ يرفع تلميذان أيديهما.

يطلب الأستاذ من كل منهما إحضار عصا لمعاقبة التلاميذ المقصرين - آلة القمع الرسمية - ويكون هذان التلميذان أول الضحايا - لنجرب عصا والدك فيك - وضعت الإدارة عرفاء سريين، انضباط سري في مدرسة ابتدائية، تصور أن ذلك أصبح جزءاً من ثقافة المدارس في منطقتنا: الابتدائية والإعدادية والثانوية.

يقدم الانضباط السري قوائمه المدونة على ورقة مطوية طولياً عدة مرات للمعلم المناوب، وتقرأ الأسماء على العلن من فوق المنصة المؤلفة من ميدة الدرج العريض الموصل إلى الطابق الثاني.

يمكن أن يكون اسمك بينهم ومسجلا إلى جواره فعلتك التي تستحق عليها العقاب.

يقرر أحد التلاميذ من الإنضباط السري أنك تستحق العقاب، ويعتبر هذا حكماً مبرماً، ويصبح دور الأستاذ المناوب تنفيذ قرار اتخذه تلميذ في الإنضباط السري. .

أي مهزلة؟ أليس هذا ما يحصل.!

كنا نصفق أحياناً عندما يظهر المدير فجأة، ليعلن عفواً عاماً.

كنا نفرح، وكنا نحب المدير الذي لا يطل من الطابق العلوي إلا عندما تكون هناك مناسبة قومية، أو عندما يحتاج بعض التصفيق فيصدر عفوه العام.

الخوف يحيط بنا منذ طفولتنا، كيف نكون أصحاء؟ كيف تطلب مني أن أكون شخصاً آخر.. هذا أنا، إذا كنت ميتاً، كيف أمنح أبنائي الحياة.. كيف؟».

توقف عن الحديث، قام إلى المطبخ، يعد بنفسه القهوة من جديد،

قال إنه يرغب بذلك، ويرغب أن يشم رائحتها وهي تفور على الموقد. عندما عدنا مرة أخرى إلى مواقعنا قال:

«لقد تكلمت كثيراً، لم أتوقع يوماً أن أفعل ذلك» فقلت:

«كان عليك أن تتحدث، أنا أستمع، لديك رواية مهمة» ابتسم ابتسامة حزينة وتابع:

«ذات يوم وقعت كارثتي التي لم أستطع تجاهلها طوال عمري: كل مرة أذهب لشراء زجاجة عرق أو نبيذ لوالدي، أعود بها ملفوفة بجريدة، أضعها تحت ملابسي، تحت إبطي، ألوي يدي وأمسكها من الأسفل، أحاول اختيار الطرق الخالية حتى لا يصادفني أحد أعرفه. لكن الكارثة وقعت ذات يوم، وقعت زجاجة العرق من تحت ملابسي، أحدثت صوتاً قوياً، وانتشرت رائحتها في المكان.

أي جريمة.. أي كارثة؟.!

هربت على عجل، ثم توقفت أستجمع أفكاري، كنت أسمع دقات قلبي المتسارعة، ولهاثي المنفلت برداً وخوفاً.

ليس لدي ما أشتري به مرة أخرى، ضاقت الدنيا، واسودت أكثر من الظلام المحيط بسبب الغيوم الكثيفة وانقطاع التيار الكهربائي. تفقدت الشمع الذي أوصاني بشرائه أبي - لا زالت الكهرباء - تنقطع كل يوم. لا زال الشمع معي.

عدت مرة أخرى إلى بائع الخمور، قلت له إن الزجاجة انكسرت على الطريق، وغداً أسدد ثمنها. كان لطيفاً معي وأعطاني الزجاجة.

تأخرت في العودة ووجدت أبي ينتظر في الخارج، يغلي من الغضب،

صرخ قليلاً وبدأ سكرته على عجل، وأنا واقف إلى جانبه كتمثال، مثل خادم الملك بانتظار الأوامر.

في اليوم التالي أخبرت أمي بانكسار زجاجة العرق، أعطتني ثمنها لتسديده، وضمتني وبكت بصمت.

عندما علم والدي بأمر الزجاجة، راحت تتقاذفه الشياطين، صرخ عالياً، وقفت أمي في الوسط وأقسمت: (أقسم إذا مددت يدك على الصبي سأحرق نفسي بالكاز أمام خلق الله). أول مرة أرى أمي تخرج عن وداعتها بهذه الحدة، وشعرت بخوف شديد أن تفعل أمي ما أقسمت عليه.

أصاب والدي الجمود، خرج ولم يقل شيئاً».

صمت خالد طويلاً ينظر إلى الأسفل بين قدميه ويعاود النظر إلى الخارج وأخذ جرعة ماء كبيرة وراح يتابع:

«كانت ليلة سوداء معتمة، البرد يكنس الشوارع من المارة، خرج أبي ولم يعد.

لم يقل شيئاً عندما خرج، لم يصرخ، لكنه خرج يختنق بالحنق والغضب.

بكت أمي بحرقة بعد خروجه، ضمتني أنا وإخوتي، ونمنا ليلتها جميعاً متجاورين، أنا وأخي وأختي وأمي»

توقف قليلاً، وقف على قدميه مشى إلى المطبخ، أحضر كأس ماء، شرب بعضاً منه وجلس يتابع:

«كان يحصل أن يخرج والدي بين الحين والحين، دون أن يعود، ينام

خارج البيت، وتعودت أمي ألا تسأله أين ينام خارجاً بعد خلاف حصل ذات مرة نتيجة لذلك.

لم يعد ليلتها.!

لم يأت في الصباح إلى عمله في المدرسة.!

تلفت حولي، بحثت في كل مكان في المدرسة، شعرت بالقلق.

وصلنا الخبر عند التاسعة.

كان متكوماً يلتف على نفسه من البرد، متجمداً على سطح بيت لم يجرؤ على دخوله في حالة ثمالة ربما، على سطح بيت عمي - أخوه الأكبر - كان أبي ميتاً، من البرد، من القهر، تشمع كبد؟ عمي يصلي الأوقات حاضراً، يخرج على وضوء، وينام على وضوء، حتى يلاقي وجه ربه طاهراً، وزوجته تصلي وتقرأ القرآن.

لا يذهب والدي هناك احتراماً لمشاعر أخيه.

تسلل أبي وقتها إلى سطح البيت متجاوزاً بوابته المعدنية الخارجية بفتح درفتي الباب معاً، تسلل إلى السطح في ليلة شتوية باردة.

وجدته زوجة عمي صباحاً وهي تزمع ملء طاسة المازوت من البرميل على السطح.

كان قابعاً قرب جدار الدرج»

توقف طويلاً دون كلام، واعتقدت أنه سيتوقف هنا وهممت بطلب المتابعة ولكنه استأنف:

«بعد وفاة والدي تحسنت حياتنا، لا أحب هذا الشعور، لكنه الحقيقة. تحسنت علاماتي، توقف الصراخ في البيت، ولكن ساءت

حالة أمي التي كان عليها أن تكون كل شيء في البيت، كانت أوقاتاً قاسية عليها» لحظات صمت، يشرب قليلاً من الماء:

«بعد أن تزوجت، وأنجبت سامي وفرح،أردت أن يكون لهما ولنا نصيباً من اسميهما.

لا تستطيع أن تحل مشاكلك بأسماء الأولاد يا أستاذ!

ما الذي أصاب بلادنا، من أين جاء كل هذا الجنون؟ كل هذا التوحش والقتل والدمار؟

لم أصدق في البداية أنه يحصل، كنت أكذب نفسي إلى أن فقدت ولدي. أنا مثل الآخرين جزء من الفواجع التي تملأ البلد.

كيف نلم ما وقع؟ قل يا أستاذ ماذ أفعل؟ هل تساعدني بالبحث عن سامي؟ هل يمكننا فعل شيء حقاً؟ صمت طويلاً هذه المرة، أربكني، وقلت له:

«بالتأكيد سنحاول فعل شيء، سنبحث معاً عن سامي» لمعت عيناه شكراً وتابع:

«لقد عشت خائفاً طوال الوقت يا أستاذ، كنت أنزع للهدوء، للسلام، مع الآخرين، مع نفسي، لكني فشلت، الأمر لا يتعلق بي وحدي، القصف والقنص والحرق والقتال والخطف والهرب والتشرد وغير ذلك وتموت ابنتي ويختفي ولدي ويختفي أخي.. الأمر أكبر مني.

لو دفنت إبني بيدي لعرفت أنه بين يدي الله، إبني سامي تركته يغادر البلاد مع أخي، عندما كنت وزوجتي وفرح في الحصار، كان سامي سبقني مع عمه بساعات قليلة خارج المنطقة قبل أن يتم الإغلاق ونعلق هناك.

لم يظهرا مرة أخرى أخي وإبني، لم يتصلا، لا نعلم إن كانا غادرا البلاد.

ماذا أفعل يا أستاذ، كيف أبحث؟ أين أبحث؟ زوجتي لن تعود إلي، وفرح دفنتها بيدي هاتين».

توقف عن الكلام، ووقف على قدميه وهو ينظر إلى يديه قائلاً:

«أجل بيدي هاتين ».

صمت طويلاً والدمع يترقرق في عينيه، يبتلع اختناق صوته ويعود:

«تصور يا أستاذ أن أفضل ما حصل لي في سنوات الحرب هذه أني دفنت فرح ابنتي بيدي»

توقف مرة أخرى يتغلب على غصة وقفت في حلقه، شرب قليلاً من الماء وكابر على نفسه:

«العالم ظالم يا أستاذ، لقد حرمت من معرفة مصير إبني..

ماذا بقي لي؟ قل لي أين أخطأت أنا يا أستاذ؟». لا ينتظر إجابة ويتابع: «جئت هنا على أمل أن أجد سامي. هل أجده؟ زوجتي تقول أنني لا أحبها ولا أحب أولادي، وتقول أنني تزوجتها إرضاء لأمي.

كان ذلك في البداية، ولكني أحببتها بعد ذلك، وأحببت أولادي، أحببت حياتنا.

بقيت حياتنا هادئة جميلة حتى بداية الحرب، كيف لا أحب أولادي؟ هل يوجد رجل لا يحب أولاده؟ أنا أحبهم لكني فشلت في حمايتهم.! هل كان ذلك ذنبي؟ كان الأمر مهولاً، لم يكن ذنبي.

زوجتي تقول أنه ذنبي!.

كم أنا بائس وحزين، سأبكي، أريد أن أبكي كثيراً، دهراً، بحجم الحزن في صدري، هل ستبكي معي يا أستاذ؟ هل تساعدني؟ «وغاب في نوبة بكاء يائس مظلوم.

هدهدت على كتفه، أوقفته وعانقته يبكي على كتفي.

راح يغسل وجهه عله يخلص على مهل من بقايا أنين ووجع. يمكنك أن ترى شكل العذاب في الفراغ، يخرج وجع هذا الرجل يملأ فراغ الغرفة، ويخرج باتجاه الفراغ التالي، يتمدد فيه كدخان سيجارة - أشد كثافة - وتسأل نفسك كيف كان هذا الوجع محبوساً طيلة الوقت في هذا الجسد الصغير؟ أجل صغير على هذا الحجم من الألم.

تفتح الباب، تشعر بالبرد والارتجاف، تدلف خارجاً للحظات يبللك المطر ويختلط بدموع عينيك، ويعاود صوت نحيب خالد في الداخل، تعود إليه تضمه من جديد كطفل وتستمران دهراً.. تهدأ العاصفة.

## رحيل 13

تتحلق الأشجار حول مساحات خضراء واسعة من المروج، يجاريها نهر في أحد طرفيها.

في كل مرة أجلس هنا، أشعر أن المكان يرحب بي، يستقبلني، صار يخصني.

أجلس على كرسي المعتاد، المشرف على انحناءة خفيفة في الأرض تزيد المشهد ألقاً.

شارف وقت النهار على الانتهاء، وقاربت الشمس خط الأفق، يصل السباق إلى نهايته بعد قليل، وتمضي الشمس إلى عالم آخر، تشرق في زاوية أخرى من هذا العالم الجميل.

السير في الطريق من زاويتي البللورية في بيت السكن القابع على كتف الغابة، وصولاً إلى هذا المكان - تحفة السلام والسكينة - إحدى متعي الكبرى.

حين وصلت هنا كانت الشمس تمرر بقايا أشعة وحلقات متباينة الأشكال عبر فروع وأوراق الشجرة التي أجلس تحتها وحيداً على كرسي خشبي كأنه مزروع هنا منذ آلاف السنين.

أتابع الناس تمر على مهل، والطيور أمامي على المرج، على الأشجار، وفي الفراغ. أحول الفراغ أمامي إلى أطياف وخيالات وأشكال، أجعل منه أرصفة لشوارع طفولتي، مراجيح أطفالي ورملهم، أملؤه بحكايا قديمة، أشاهد فيه أكداس أحلام انطفأت، أرى على مرمى البصر في الفراغ الذي ابتدعته اختلاطات وألوان، قصص، أفراح وأحزان، أمازج بينه وبين حركات الطيور التي تداعب الهواء

المرح، تارة أغيب في تفاصيل عتيقة، وتأخذني إلى زوايا تساهم في نبشها، وتارة تشدني كائنات هذا المحيط إلى هذا الجمال الأخاذ.

أحب السناجب التي تهرب على عجل، والأرانب التي لا يفزعها اقتراب إنسان، والغربان السوداء التي تتحرك بين القفز والركض والطيران. مجموعة كبيرة من الغربان تتوسط المرج، يملأ نعيقها المكان، كأنه صراخ، كأنها هيئة المحكمة التي قرأت عنها تعقد جلستها.

غربان كثر يجتمعون وسط المرج على شكل حلقة داخل حلقة.

تذكرت ما قرأت عن محاكم الغربان: عند ارتكاب أحد الغربان جريمة ما، تعقد المحكمة جلستها، يؤتى بالغراب المذنب تحت حراسة مشددة ويخفض رأسه وجناحيه بينما يصدر الحكم.

في محكمة الغربان يعاقب مغتصب طعام الفراخ بنتف ريشه حتى يصبح غير قادر على الطيران كالفراخ الصغيرة، وتلزم المحكمة الغراب الذي قام باغتصاب عش أو هدمه، ببناء عش جديد لصاحب العش المعتدى عليه. وتستلزم جريمة الاعتداء على أنثى غراب آخر إعدام المعتدي. تبدأ الغربان بالتنفيذ فوراً بعد صدور الحكم، تمزق الغراب المعتدي بمناقيرها حتى الموت، ويتم التحقق من موته و دفنه في حفرة يتم حفرها.

تلح علي صور قديمة وتتلاحق أمامي... يتزايد حماسي في سنة التخرج، أستحث الوقت على المرور، أصبح أكثر جداً واجتهاداً، أعد نفسي بالكثير، أحلم، ينتهي السباق عما قريب، يجب أن أصل إلى النهاية، أن أتخرج في الوقت المحدد....

أطلق العنان لأحلام وردية.!

سأنطلق إلى الحياة - قلت لنفسي حينها- لم أكن أعلم أن الحياة هي كل لحظة نعيشها، انطلقت في رحم أمي وتنتهي بعد أن يهيلوا تراب القبرعلى جسدي وأصبح غير قادر على العودة.

أنا على موعد مؤجل مع الحياة - بعد صدور نتائج التخرج - اطمأننت بسذاجة لهذا الموعد الذي ضربته لنفسي.

سنعلن خطوبتنا أنا وسلوى - أول ما تبادر إلى ذهني.

أدرس في كتبي بنهم، أنفض أحلام اليقظة مبتسماً، وأعود إلى دراستي.

سلوى رفيقتي من السنة الأولى، لا أعرف الكلية بدونها.

وقفت إلى جانبي صبية حين كنت أقف أمام لوحة إعلانات السنة الأولى في المدخل العريض للكلية، في اليوم الدراسي الأول. قامت بترتيب شكلها بصورة بسيطة، لكنها ملفتة. التفت إليها، كانت أساريرها منفرجة، على وشك ابتسامة، وسألتني إذا كان هذا الإعلان يخص السنة الأولى، أجبتها بالإيجاب، كتبت شيئاً على دفترها، كما فعلت أنا، شكرتني وانصرفت.

لم يكن الدوام قد انتظم، وكان العدد محدوداً في المدرج الكبير. جلسنا مصادفة في الصف الأول، أنا وهي، التقت عيوننا، وكان ذلك عنوان الحياة الجامعية التي أسرتني في سنينها الأربع.

أصبحنا مع الوقت ثنائياً متلازماً - سلوى وعبد الله - الدراسة، والاستراحة والكافتيريا والرحلات، والمناسبات.

تنتمي سلوى إلى عائلة غنية، وأنا إلى عائلة متوسطة أقرب إلى الفقيرة، لكننا لم نعر ذلك أهمية، لم نلتفت إلى ذلك طيلة الوقت.

في ذلك الوقت كان الانحياز للعمال والطبقات الفقيرة في كل مكان. الموضوع الأكثر تناولاً والأكثر بريقاً - الطبقة الكادحة - وكنت وسلوى نتوافق على كل شيء، لم نختلف على شيء.

أبتسم الآن وأنا أفكر: كيف كان يمكن أن نتزوج؟. أسأل نفسي: «هل تؤمن بالوهم من طرف واحد؟ وبانهيار الوهم من الصدمة الأولى؟» كان وهماً من طرف واحد.!

لا شيء يجمعنا.. أشياء كثيرة جمعتنا لكنها انتهت دفعة واحدة.

أن تؤيد الطبقات الفقيرة وتتعاطف معها شيء، وأن تنتمي إليها شيء آخر.!

كان يروق لي أن أطلق لحيتي، كانت تزيد حجم وجهي، تشعرني بالملاءة والقوة، وتمنحني بعض الغموض، أحببت ذلك، لم أكن أريد أن يقرأني أحد.

لحيتي هي الشيء الوحيد الذي أعطيته بعض الأهمية في مظهري، وعندما أضطر لحلاقتها أشعر بالاضطراب والارتباك، كانت عنصر التوازن الذي يمنحني سكينة ما.

أحبت سلوى لحيتي دائماً، تشدني منها عندما تمازحني، وأسعدني هذا دائماً.

في أول مرة دعوتها إلى الكافتيريا القريبة من الكلية، رأيتها تدخن، سحبت علبة الدخان الأجنبية، سيجارة طويلة، قدمت إلي، اعتذرت: «لا أدخن» كان شكلها رائعاً وهي تمسك السيجارة، تدخن، تنفث، تتناول فنجانها، تتحدث تضحك، أحببت كل ذلك، أحببت

حركة ابتلاع ريقها، كان ذلك يشدني بقوة، أتابعها كلها بشغف، كأني أكتشف حدثاً جديداً، وأعيد في كل مرة إكتشافها.

ألحت علي ذات مرة قائلة أنها تحب أن تراني أدخن:

«سيكون شكلك رائعاً بهذه اللحية مع السيجارة» أخذت السيجارة، أدخن وتضحك، ويضحك قلبي.

ذهبت سلوى، وبقيت السيجارة في يدي.

أخرج من الذاكرة قليلاً، أتناول سيجارة، أسحب بعمق، أنفث دخانها أتابعه وأعود إلى سلوى، سلوى كانت رفيقتي من اللحظة الأولى، بقينا دائماً معاً، أصبحت كل شيء...

كانت زيارتها الوحيدة لنا في بيتنا هي وأمها، للتعزية بعد استشهاد أخي إبراهيم في معارك بيروت عام 1982.

لم نتحدث كثيراً في الحب، لكنه يظهر في علاقتنا، في سلوكياتنا. عندما أخبرتها بعواطفي تجاهها، ضحكت، لم يفاجئها ذلك، كان كل شيء واضحاً، احتفلنا احتفالاً صغيراً في الكافتيريا.

حلمت بها، أخبرتها، تضحك، لا تقول شيئاً، اعتبرت ذلك واضحاً، لهفتي، لهفتها.

وكان لنا دائماً احتفالاتنا الصغيرة.

انتظرت التخرج.. كان لي نظريتي حول اللحظة الحاسمة، التاريخية، نقطة الإنعطاف، شيء يشبه عتبة الربح التي درسناها، قبل هذه النقطة لا يوجد ربح، وبعد هذه النقطة أنت في طريقك إلى الربح.

كنت أنتظر لحظة العمر التي ستربطنا إلى الأبد-لحظتنا- التي

ستنسج مشاعرنا معاً كجديلة، كنسيج متشابك، اللحظة التي لا تتكرر في العمر، التي تجعل كلاً منا يعود إلى تلك اللحظة التي تفسر تاريخاً من العلاقة، من المشاعر.

لا أعرف كيف أشرح ذلك تماماً، لكنها لحظة التحام بكل ما هو رائع وجميل وممتع في هذا العالم، أن أحدق في عينيها وتحدق بي ويلامسنا نفس الإحساس بنفس اللحظة، نحلق ولا نعود.

لكنني لم أعش اللحظة التي بنيت عليها نظريتي، ربما لم تكن سوى في مخيلتي.

في شهر امتحان التخرج، كانت تمضي على عجل، تهرب من أمامي، تقول أتصل لاحقاً، لا تتصل، وعندما أتصل يقولون «خرجت إلى السوق» «إلى المكتبة...»

كانت صدمة عمري وأنا أراها تخرج متأبطة ذراع أستاذنا في الجامعة. أعلنا خطوبتهما.!

ردت أمها ذات مرة على الهاتف: «تمت خطبة سلوى - العقبى لك - دعها لحياتها».

جاءت هذه المكالمة طلقة الرحمة على علاقتنا.

يكبر الأستاذ غريب سلوى بخمس وعشرين عاماً على الأقل، غادرته زوجته الأجنبية مع ابنهما إلى بلادها منذ سنتين.

هو أستاذ جامعي، يتمتع بمنصب حكومي رفيع، يمتلك بيتاً واسعاً في أغلى منطقة في العالم ربما، سيارة فاخرة....

كيف تضع نفسك في الميزان- قلت لنفسي- أحلامك الزاهية جثث.

هل وجب أن يكون حبنا أكثر زخماً، أشد وضوحاً؟. هل للزواج حسابات مختلفة؟ أجل على ما يبدو.

كانت تلك صدمتي الأولى، مأساتي الشخصية التي تأخرت طويلاً لأتجاوزها.

تزوجت سلوى قبل صدور النتائج النهائية، كل شيء مضى سريعاً كصاعقة، كان الاحتفال مهيباً يليق بالأستاذ غريب كرجل دولة، وأستاذ جامعة، ويليق بسلوى كعروس جميلة شابة.

رحت ليلة العرس إلى المكان الذي جمعنا دائماً.

كان غيابها هو ما يميز هذا المكان، الذي أدخله للمرة الأولى وحيداً منذ ارتبطنا، منذ أصبحنا صديقين.

جئت أودع المكان، شربت قهوتي وحيداً مع سيجارة من نوع سجائرها.. تلمست لحيتي، خرجت ولم أعد إليه مرة أخرى.

تواجهنا صدمات صغيرة هنا وهناك، عقبات، لكنها كانت مفاجأة العمر، كيف يحدث هذا؟ حاولت التماسك، لم أستطع إخفاء صدمتي. أشعر بالخواء..

كيف سأجسر هذه الهوة السحيقة التي أحدثتها سلوى.

كيف كان يجب أن تكون علاقتنا أو مشاعرنا.. لنبقى معاً إلى الأبد؟ لأن نأخذ لحظتنا؟ ألقي بعطالتي، بارتباكي، وتتمسك بحيائها الساحر، تطلق ضحكتها الرائعة، وأمسك يدها ونمضي في رحلة لا تؤلمنا مشاقها طالما كنا معاً؟.

نمت طويلاً، وكانت أمي تروح وتجيء، وتنظر إلي، قدمت تعاطفها بخجل وحذر، وقام أبي بأشياء كثيرة ليساعدني على التوازن مرة أخرى.

شعرت بالإعياء وقتها، ضعفت مقاومة جسمي، ومرضت.

أصابتني الحمى، كنت أهذي، أراقب نفسي، أمر عبر بناء سقفه قوسي، يشبه سقف حلقي، يتحرك لساني باتجاه سقف الحلق، يمر اللسان بحركة التقدم والتراجع على سقف الحلق، أركض تحت المبنى، الذي يتطاول، يمتد، يصبح أكثر ظلمة، يتحرك إلى أعلى، يعاود السقف الانخفاض إلى أسفل، أسمع صوتاً غريباً، صوتي لا أميزه، لا أسمعه، تصيبني حكة في سقف حلقي، أتحرك، أدخل مغارة معتمة، أحس بلسان المزمار... صراخ... أريد أن أقف، أنحني إلى الأمام قليلاً، أمسك شيئاً ما، أشعر بالغثيان، أرجع رأسي إلى المخدة بسرعة مغمض العينين، أسمع صوتاً محبباً، أريد أن أراها، أفتح عيني، أركض تحت البناء القوسي، أتجه مرة أخرى إلى العتمة، أسمعها، لا أراها، أحاول الوقوف مرة أخرى، أمسك شيئاً ما.. أقع.

أغفو، أدخل غيبوبتي ربما، وأرى الممر يتسع ويطول، ولا زال السقف القوسي يتجاوب ارتفاعه وتقوسه مع حكة تصيب سقف حلقي... تظهر أعمدة وأقواس، أمشي إلى الأمام، وأستدير برأسي إلى الخلف، إلى اليسار، أحدق في الأقواس، وأدخل العتم، أحاول الرجوع، لا طريق، أسمع صراخاً وأنيناً مكتوماً، وأشعر بيد تمتد إلى جبهتي تقيس حرارتي.. اليد باردة، أرتجف، سرى البرد في جسمي، أسمع صوت رعد، أنا تحت سقف يشبه سقف الحلق، يتحرك لساني، أبحث في الظلام عن نقطة ماء، أمشي، أهبط درجات باتجاه ظلام دامس، يعاود الأنين، غرف كثيرة وعتم، أبحث عن درج للعودة، لا درج.. لا عودة.. من أزال الدرج؟ لا أضواء....

كم مضى على هذا الظلام؟ كم طالت هذه الحالة؟ كيف خرجت؟ لا أعرف! لا أذكر.!

فتحت عيني كانوا قد تحلقوا حولي، أمي تحمل قطعة قماشية ملفوفة بالنشاء، تبللها بالماء وتضعها فوق جبهتي.

والدي يجلس بجوار السرير يلفه قلق غامض.

تبتسم أمي، يبتسم أبي، يبتسم إخوتي.... لقد فتح عينيه.!

كم كان ثقيلاً مرضي! قالت أمي: «لم تصح منذ ثلاثة أيام، كنت تشرب الماء وتعود للنوم».

التقيت سلوى مرة واحدة بعد زواجها، وكان ذلك مصادفة في مؤتمر علمي.

تتأبط ذراع زوجها متألقة في أربعينياتها وكان هو قد تجاوز السبعين. كم كانت جميلة.! نظراته شاردة، صار بقايا الرجل الذي عرفته يوماً، وبقي اسماً يتم استخدامه في لعبة إعطاء الأهمية لحدث ما.

سلوى بكامل أناقتها، لا شيء حقيقي فيها، لمحت ابتسامة بلهاء معلقة على شفتيها ترسمها طالما كان هناك آخرون، حصل ذلك في ساحة الخروج من القاعة بعد أن إنتهى المؤتمر.

لم تكن هي المرأة التي كانت رفيقة سنوات الدراسة.

وقفت ابنتها إلى جانبها آنذاك، كأنها سلوى أيام دراستنا قبل ما يزيد عن عشرين عاماً.

هل يمكن لسلوى أن تزوج ابنتها لرجل يكبرها بخمس وعشرين عاماً.. لا أظن! لمحتني ولمحتها، ومضيت. كأنها لا تخصني - هي كذلك.

كأن ما حدث لي، حدث مع أشخاص آخرين، في الواقع، في فيلم سينمائي، شيء يشبه حكاية في كتاب في زمن آخر، وأنا مجرد قارئ أو مشاهد.

أثر يشبه أثر قراءتك لمأساة في كتاب.

أغلق الستار على سلوى، وأشعر بالأسى من أجلها أحياناً.

أتناول سيجارة أخرى، يبدأ العتم سدول عباءته على مهل وتضيء العتمة في هذا الفراغ حنان زوجتي، ابنتاي سلمى وفاتن وابني إبراهيم - أسرتي الجميلة، كم أشتاقهم، حان وقت الاتصال.

## رحيل 14

الصورة الواضحة، واضحة اللاشيء، يرتمي خلفها سر عظيم أو أسرار.!

عليك أن تدخل إلى التفاصيل لتفهم أكثر - أقول لنفسي.

تدخل الأزقة، والأماكن الضيقة، تتوه، تغرق في التفاصيل الصغيرة. لا أشعر أني فهمت أكثر.!

نسيت ملامح المشهد، ذاكرتي السيئة أو العاجزة عن تخزين كل شيء، تفشل في استرداد الصورة كاملة، وأنا هنا بين الأشياء الصغيرة، عليك أن تخرج مرة أخرى من التفاصيل.!

أبتعد قليلاً لأرى المشهد كاملاً..

أغير نظارتي، وأرى المشهد من جديد، وأعجز عن التفسير - بحاجة إلى تفاصيل - التفاصيل ستجعلني أفهم أكثر.

ما هذه الحلقة التي أدخلت نفسي فيها؟.

لا تساعدني الذاكرة على الإحتفاظ بالمشهد أثناء الرحلة إلى عالم الأشياء الصغيرة، والجزئيات التي يتكون منها المشهد، ولا تساعدني في رحلة العودة إلى المشهد الكلي.

التفاصيل كثيرة.. كثيرة، أكبر من قدرتي على استيعابها.

من غير الممكن ربط مجموعة من العقول وذواكرها على التوازي أو على التسلسل لإنجاز العمل وإعادة العقول إلى مواقعها مع احتفاظ كل منها بالذاكرة الكلية لمجموعة العقول - رحت أهذي.!

هذا عمل مؤسسات. تحاول مؤسسات كبيرة ودور دراسات تحليل

حدث أو أحداث وقد تصيب أو تخطئ وأنت تريد أن تفهم ما يجري في العالم.! ربما أحتاج خريطة، أحتاج سرعة الانتقال بالإتجاهين بين المشهد العام وتفاصيله، والاستعانة بخريطة ما لأتجاوز مسألة النسيان بين الذهاب والإياب! سأنشئ خريطة.

ما حاجتي لكل هذا العمل؟ الحقيقة.. أبحث عن الحقيقة، أريد أن أفهم ما يجري.

أنت تهذي - أخاطب نفسي.

أقلب أقنية البث من الأعلى إلى أسفل، أسمعها، أشاهد، أراقب، أتابع، أفتح صفحات الشبكة، أستمر بالبحث، أكتب على أوراق منفصلة بعض الأحداث والوقائع. أحاول صنع خريطة - أفشل - الوقت لا يتسع لفهم كل شيء، والخريطة تصبح قديمة بمضمونها قبل أن تنجز، الأحداث أسرع دائما من قدرتك على الإستيعاب وصنع الخرائط.

إدمان.. إدمان سماع الأقنية، وإدمان البحث، وإدمان الإنتقال بين المشهد والتفاصيل، يغريني المشهد وتغريني التفاصيل ولا سبيل لالتقاطهما معاً.!

أتابع شغفي، أقرأ في كتب غريبة عن العالم السري، ينتابني إحساس بالخديعة، بعدم حقيقية الأشياء، بعمر من الصور المزيفة، والمظاهر غير المتطابقة مع حقيقة ما يجري.!

كل شيء مرتبط بكل شيء، لا يجري كل شيء كما نراه.! هلوسات البحث والقراءة.

سأتوقف عن الإدمان - قلت لنفسي.

أمزق الخرائط الفاشلة والأوراق التي كتبتها. أشعر بالإعياء.

سأصمت.. أنا بحاجة لذلك. سأبحث عن مكان يحترم الصمت، أتوقف فيه عن الكلام، عن التفكير، أخرج قليلا من داخلي، ألتحم بالطبيعة - الكون - وقد لا أعود...

تبرق فكرة قبل أن أخرج من شغفي:

«ماذا لوصمت الجميع دفعة واحدة، لو يصمت العالم!»

«لماذا لا يكون هناك يوم للصمت العالمي، مثل يوم المرأة، ويوم الشجرة، ويوم العمال، نصمت فيه كلنا على هذه الأرض، لا حوار، لا أحاديث، لا تقنيات، لا أنوار، لا أكل، لا شرب، لا عبادات، لا انفجارات، أو تجارب أسلحة أو حروب، لا تعذيب..... فقط صمت، لنتساوى جميعاً بالصمت.

دعنا نتوقف يوماً، ولنر ما يحدث، هل تتخيل أن ينجو المعذبون يوماً؟ أن يتوقف العالم عن الهدير والحركة؟ دعنا نحسب ما نوفره، ونلقي بالنتيجة إلى الجائعين.

هل تعتقد أن العالم سيربح؟ مهما يكن.

علينا أن نحارب قوى الضجيج، بعد أن تنتهي الحرب على الإرهاب سنختار عدواَ مناسباً - ليكن الضجيج - سنحتاج إلى طاقة كبيرة من الصمت، سنحتاج إلى قدرة الشركات الكبيرة في العالم على تحمل خسائر عظيمة، بسبب إيقاف ضجيجها المنتج لأوراق النقد والعبودية.! هل سيكون الضجيج هو العدو القادم للعالم؟ أشك في ذلك.

الضجيج سيمفونية مفضلة للدول المافيا، صوت الأسلحة والانفجارات، القذائف والهاونات، الصواريخ، الرصاص.... الصوت

الأكثر إطراباً لعالم مجنون، يجني أمواله الطائلة من هذا الضجيج، ضجيج الحروب، الدمار والقتل، لإنفاقها على رفاهيتهم، ولياليهم، ومجونهم... »

هذيان.. هذيان منتظم - أزجر نفسي.

سأترك العالم وأحاول أن أفعل شيئاً لنفسي.

أعود إلى زاويتي الصغيرة في أقاصي الكون - زاويتي البللورية على الغابة. أبحث عن استراحة طويلة.

كان الوقت صبحاً، الساعة السابعة والنصف، لا زال الجميع نياماً. ربما خالد لم يكن نائماً، لكنه بقي في فراشه يستمر في سكونه.

أعددت إفطاري، قدحاً كبيراً من الشاي، جبنة وزيتون وخبز الحبوب.

أسرح بنظري إلى الخارج، أحاور أشجاري، أشعر بابتسامة ما.

أعود اليوم لزيارة الغابة - قلت في سري - منذ زمن لم أفعل ذلك، وقد كنت بين أروقة بحوث لفهم العالم وما يجري فيه - دون جدوى - عليك أن تفهم عالمك الخاص - أقول لنفسي أصالحها:

«ابتلع اللحظة، إزدردها، واستنشق الزمن، واركض، دع خفقان قلبك يزداد، أليس جميلاً ذلك؟ أن تزداد سرعة جريان الدم في عروقك، دع نبض قلبك ينشط بالجري... بالأحداث... بالحب..»..

تكثر أحاديثي في ساعات الوحدة، وتتأرجح في فضاء ثلاثي الأبعاد بحركات لا يحكمها انتظام ما.

تومض فجأة بيانات في رأسي، تخلصني من شعور مبهم راودني عندما تحدث إلي حسن عن (طوطح) الذي سيتزوج أخته.

ثمة شيء في قصة حسن أعرفه، هناك شيء مألوف، لم أدرك كنهه. لحظة الومض هذه تشبه لحظة حل مسألة حسابية استعصت على الحل ذات مساء، وفي الصباح أفقت على حلها. حسن قال «أبو شوكت - رجل مهم - سيتزوج ابنه (طوطح)» من أخته. أعرف هذا الاسم جيداً - أردت التأكد قبل أن أخبر حسن.

أجول في أزقة الذاكرة، أبحث عن رجل مهم «أبو شوكت»، أعتقد أنه هو. ربما تشابه أسماء - لا بالتأكيد هو - كم رجل مهم له هذا الاسم.

يا للعار.. يا لسخرية القدر..

بلى هو يسكن في المدخل الشمالي، سيارته سوداء ذات الستائر، وعناصر الحراسة التي تقرأ كل من يمر أمامها.. إنه هو.

أبو شوكت ابن أبو كيس رجل الإنجليز.

تتوارث هذه المخلوقات اللزجة أفكارها وأخلاقها وقدراتها فضلاً عن الخصائص الجسدية، يتغير الشكل قليلاً ربما، تستمر في التناسل والانتقال من جيل إلى جيل وتنقل صنعتها كما تتناقل الأجيال صناعة يدوية أو حرفة، يغيرون أساليبهم لتلائم العصر.

أشعر برغبة مفاجئة بفنجان قهوة مزاج وأنا أحاول الخروج من حالة الحوار مع نفسي التي تلاحقني في وحدتي.

أنهيت فطوري للتو.

أطل برأسي في مهجع النوم، وأرى خالداً مفتوح العينين ينظر من سريره السفلي إلى اللاشيء.

(ذات حوار راح خالد يحدثني:

«هل أنا قتلت أبي يا أستاذ، وأولادي فرح وسامي، وأخي، وكل الذين ماتوا هناك، هل أنا قتلتهم؟ أنا لا أستطيع إيذاء نملة».

«توقف عن جلد نفسك - أقول - لا تحملها فوق طاقتها» وأتابع مشجعاً «الحياة تستمر» ويرد بصوت لا يكاد يسمع «ليست حياتي». إنه لا ينام، وإذا نام يصرخ، يصارع،..... ازدادت كوابيسه وصراخه. اتفقنا جميعاً على ضرورة مراجعته أخصائي عصبية. قام حسن بحجز موعد، ولم يعارض خالد، كان مستسلماً.

وصف له الدكتور حبوب تهدئة قبل النوم مباشرة، وأوصى بممارسة الرياضة، وأنشطة إجتماعية، حفلات، مسيرات، مناسبات... في المساءات كنا نسير معاً أنا وخالد، باتجاه الغابة، نأخذ استراحتنا على كرسينا المعتاد، نرقب حركة المارة، وكلابهم، طيور المساء، نسمع صوت نقار الخشب أحياناً، الغربان... نصمت طويلاً).

فكرت في هذا الصباح الجميل، لم لا نخرج إلى الغابة. تخليت عن حذري ودعوته ولما يزل على سريره إلى فنجان قهوة.

ابتسم ابتسامة خفيفة: «صباح الخير». «أنا والقهوة ننتظرك» أنجز صنع القهوة وأنتقل إلى موقعنا المفضل - الزاوية البللورية - أملأ جهاز تعبئة السجائر بتبغ رخيص، أضع على فمه غلافاً فارغاً للسيجارة في نهايته فلتر، أسحب عتلة الجهاز ويصبح لدي سيجارة نظامية، تقنية جميلة، صارت جزءاً من طقوس حديثة للحصول على سيجارة رخيصة. أتمتع بهذه الحركات بينما تروق القهوة قليلاً، وأنا أستمتع برائحة تأخذني إلى متعة قديمة وذكرى لقاء ناس أحببتهم، إجتمعت إليهم ذات يوم إلى فنجان قهوة صباحي.

يأتي خالد بهدوئه المعتاد، ويأخذ كرسياً، أشعل سيجارتي، وأتابع السحاب الذي تصدره، يمتعني شكله وانتشاره، ويذكرني بسهرات الصحب آن إجتماعنا في أزمنة دهرية.

أحتسي قهوة الصباح مع خالد وقد خرجت من حالة الهذيان المربك. تناولنا بعض الحديث، ودعوته للخروج، في نزهة صباحية إلى الغابة: «دعنا نخرج نأخذ بعض الهواء المنعش، ونعود لنجتمع مع الشباب لمناقشة البحث عن سامي وعمه»

- لمعت عيناه حزناً وبعض أمل.

خرجنا نعب هواء نقياً، وننعم بهدوء الطبيعة وسلامها. تناولنا أحاديث عامة، عن الأشجار والهواء والجو والطيور..

سألته بحذر:

- ما الأخبار هناك ؟.

- لا جديد.

- ألا تتصل زوجتك، أقاربك؟ يجيب بصوت هادئ حزين:

- «والله يا أستاذ عبد الله، تعتبرني زوجتي قاتل ولدينا، هي تسكن الآن في بيت شقيق لها مع أمها، وكلما تحدثت إليها أشعر بأنني أخطبها من جديد، كأني أحاول إقناعها بأن تكون زوجتي، إنها تجعل الأمر صعباً. وبعد ما حصل راحت تقول أني لا أحبها، وأنها أخطأت بالزواج، لعلها تصحح خطأها».

- إنها مصدومة، عليك أن تراعي هذا.

- وأنا مصدوم، أليسوا أولادي أيضاً، أنا أراعي هذا على كل حال.

- أليس لك أقرباء آخرون؟ ألم تقل أن لك أختاً؟

- أختي أمينة تتصل بي دائماً، كل يومين أو ثلاثة، حسب الشبكة. في منطقة سكنها لا تتوفر شبكة جيدة، وتتصل عندما تذهب إلى بيت عمها من هناك.

- هل هي مرتاحة؟ أقصد أوضاعها.

- أمورها بخير، يعمل زوجها نجاراً، فقد ورشته في الحرب، لكنه يعمل الآن بالأجرة، وأمورهم جيدة - مستورين.

وصلنا إلى الكرسي الخشبي الذي اعتدنا الجلوس عليه.. أخذنا استراحة. جلسنا صامتين زمناً طويلاً.

التفت إلي وقال: «ألا نعود»

عدنا، أعلم أن كلينا يفكر بالبحث عن سامي وعمه، كل بطريقته. لا أعرف إذا كنت مخطئاً وأنا أوقد الأمل في روحه المعذبة، ولكني كنت قد وعدته سابقاً بالمساعدة.

سيبقى خالد يتعذب إذا لم يصل إلى يقين!.

حتى لو كان يقينا بموت شقيقه وابنه سامي، سيكون ذلك أهون آلاف المرات من أمل سراب يلاحقه إلى الأبد ولا يصل إليه.

قاربت الساعة العاشرة والنصف حين وصلنا بيت السكن.

يصحو حسن وسعد على مهل، يغني حسن بصوت أجش، ويضع سعد سماعة الموبايل في أذنيه، ويرقص على أنغام مايسمع ويهز رأسه بشعره الطويل طرباً بحركات مرحة رشيقة، يتحركان باتجاه المطبخ لإعداد فطور شهي يليق بالروح الشابة.

«هل تشربان الشاي» يسأل حسن وقد قطع أغنيته.

«نعم سننضم إلى الفطور» المطبخ الصغير بالكاد يتسع لأربعتنا معا، لكن ذلك يسعدنا، ويضفي جواً من الألفة والمرح.

تم إعداد الفطور بين غناء صوت أجش، ورقص ساخر، وابتسامة تقاوم حزن دهر، وجسد منتعش بالهواء الطلق، وهذا الجو الحميمي.

جلسنا أربعتنا إلى الفطور وعينا خالد معلقتان بي.

يلتقط سعد الإشارات، وينتقل بعينيه البراقتين بين وجهي ووجه خالد، يرفع سماعات الأذن، يوقف أغنية الموبايل ويقول:

«تفضل أستاذ عبد الله، كلنا آذان صاغية». التفت حسن إليه باستغراب وهو يزدرد لقمته، ولم يقل شيئاً.

- بدون مقدمات، كيف نبحث عن سامي وعمه؟.

حك سعد رأسه وهو يخفضها على صدره، وفتح حسن عينيه واسعاً، وتعلقت عينا خالد بالفراغ، فاستردفت:

- دعونا نفكر معاً، ليس المطلوب جواب فوري، يحتاج الأمر إلى تفكير - هل تعتقد أن ذلك سهل - يسأل حسن.

- لا ليس سهلاً، لهذا نحتاج المساعدة، نحتاج أن نفكر معاً.

يفرك سعد جبينه وقد بدا جاداً: «سنعمل ما يمكن عمله - ربما لا يمكننا فعل الكثير» ثم يلتفت إلى خالد ويسأل:

«هل لديك صوراً لسامي وعمه» هز خالد رأسه بالإيجاب.

«هل تعرف إذا كانا وصلا خارج البلد؟» خالد لا يعرف، ليس لديه إجابة.

اقترح حسن أن نأخذ وقتاً في التفكير ويضع كل منا خطته منفرداً، ثم يتم جمع الخطط، نناقشها، ونطورها ونرى ماذا يمكن أن نعمل.

يضحك سعد موافقاً: «كيف أصبحت خبيراً في حل المسائل» - يرد حسن بشيء من الحنق: «يا فهيم، في درس اللغة قامت المدرسة بجمع إجابات الطلاب مكتوبة على أوراق بدون أسماء لسؤال (كيف تدرس وتحصل على علامة كاملة؟) ثم قرأت الإجابات، كل واحد أعطى إجابة وفقاً لتجربته الشخصية، ثم دار النقاش وحصلنا على حلول جديدة غير موجودة بالأوراق، الطريقة فعالة، أعجبتني»

أذهلني حسن على بساطته بطريقة تفكير سليمة:

«صحيح ما يقوله حسن، سنفعل هذا، ليضع كل منا تصوره، ونجتمع ليلاً».

أسعدني الجو ورأيت بعض الارتياح على وجه خالد.

ورأيت تأجيل الحوار مع حسن إلى مناسبة لاحقة. الوقت ظهراً.

بدأت رحلة البحث في عالم الفقدان.

حسن الذي فقد والده يشارك في البحث عن سامي وعمه.

كان علي أن أتأكد أن لا شيء يتغير من تلقاء نفسة، وأن أخوض التجربة مع الأصحاب بحثاً عن كنز خالد المفقود، ربما نسير والطريق يمتد، لا ينتهي.

سنبدأ البحث نتلمس طريقنا بين من كتب لهم الوصول بعد رحلتهم في عالم الظلمة، في دروب معتمة، باردة، في دروب مقفرة،

موحشة، في طرق الغابات المليئة بالوحوش، في الصحارى المفعمة بالشمس والرياح، في الفيافي والقفار، في البحار التي أغرتها سفن الهجرة فابتلعت بعضها، في دروب مليئة بالذئاب البشرية، بالقراصنة والمجرمين، مليئة بالحيتان وسمك القرش.

عندما تفقد أشياءك في العتمة، هل تجدها في النور؟ لم تسعف الأقدار كثيرين، يمتلئ عالم واسع من الظلم والظلام بجثث ضحايا أرواح فرت جزعة من براري التوحش إلى مصائر مجهولة.

## رحيل 15

كان الفجر ينفض على مهل بقايا عتمة الليل، حين أخذت سيجارتي الأولى قرب النافذة مع فنجان قهوة....

أنشودة حزينة هذا الرحيل، تعزف موسيقى، انتظمنا تمثالاً وسط دهشة وبكاء وعذاب فراق، نخلع دفئاً يرتديه حضورنا المشترك حين ينفصل عالمينا، ويبدأ برد البعاد، برد التنائي، بملامسة أرواحنا العارية آن يبتدئ الرحيل.

ضمني والدي أمام صالة الإقلاع في مطار دمشق، وكأنه لن يتركني.! منذ متى لم يضمني! سنوات طويلة، كبرت فيها، منذ أن رأى أني عبرت إلى الرجولة، نعوض سنوات بلا عناق. توقفنا، أصبحنا تمثالاً، قطعة واحدة، سمعت نحيباً مكتوماً خافتاً، ومددت يدي على رقبته، ألامسها برؤوس أصابعي...

مر دهر ونحن تمثال وسط الطريق إلى الرحيل.

أخرج وأبي من تمثالنا، ألوح وأختفي باتجاه المجهول.

أبحث عن عمل في بلاد العمل، تستقبلنا تأخذ سنين عمرنا الجميلة، وتلقي بنا مرة أخرى على أرصفة الزمن البليد، إلى محطات انتظارنا الأخيرة، إلى زمن التلاشي، نحمل عكازاً، وندور نحكي حكايات لا يسمعها أحد، لم نعد ننتمي إلى هنا، لم نكن ننتمي حيث العمل.

في آخر النهار عند عودتك الأخيرة، يمكنك التأكد من إغلاق الأبواب، وإطفاء الإضاءة، والذهاب إلى الفراش - ربما وحيداً.

أيقظتني تلك الصورة حينها، حزمت أمتعتي قبل أن يتم رحيلي العام وعدت ألتحم مرة أخرى بعالمي الذي أحب، قبل أن يفوت الأوان، قبل أن أصبح خارج خارطة الأهل والأصحاب.

تركت البريق في بلاد تغص بالمتناقضات، تمتلئ بالسادة والعبيد، وتشعرك بالقزامة في كل وقت أمام الواقع المتخم بثراء يفوق المقاييس البشرية.

كانت مدن البؤس المتحركة تنقل عبيد هذا القرن من معسكرات النوم في الصحارى الكئيبة إلى مواقع البؤس، توزعهم على إمبرطوريات العمل حيث يتطلب الأمر. تزيد الحرارة والرطوبة أوقات الشقاء، شقاء وعذاباً، تزيد سوداوية استغلال الإنسان للإنسان، تؤكد الفوارق التي لن يقدر لها أن تقل، تتزايد في عالم مليء بالظلم، وتزداد ظروف العيش شظفاً، لا يوجد ما يوازيها في عوالم أخرى في هذا الكون، ولا حتى في البراري الوحشية.

عدت لأن الوقت يمضي، لن تنتظرني الحياة، ولأن الوطن لازال يفتح ذراعيه.

لا زالت ذاكرتي السمعية، تسترد صوت النحيب الخافت، ولا زالت ذاكرة الألم - رغم عودتي إلى حضن الأهل - تشعرني بأن ذلك لا زال يحصل - نحيب أبي.!

يستفيق خالد، وينضم إلي يخرجني من حواري مع الذات:

«صباح الخير» «صباح الخير». «كيف كانت أحلامك الليلة؟» - أقول.

ابتسم وقال: «رأيت سامي الليلة».

- تعال حدثني.

- سأعد فنجان القهوة وآتي. دلفنا معاً إلى المطبخ. تركته يقوم بإعداد القهوة، بينما وقفت لأشم رائحتها حين تغلي.

سبقته إلى الطاولة قرب زاويتنا، جهزت سيجارتي بانتظار قدومه، فنجان قهوة مع رواية حلم قصير - أمر مشوق.

يصب خالد القهوة، يعطيني فنجاني، يأخذ رشفة وهو يشعر بانتشاء ما: - «كنت هناك، عائداً أبحث عن عنوان، أسير في الطرقات، في شوراع أحببتها، كانت مشوهة بالدمار، والحلم يتلاعب بها، لا يعطيها حقيقتها، شعرت أنها شوارعنا، في أعلى المنحدر أجد أخي وليد يجر عربة يبيع عليها - يعمل كبائع متجول- لا أذكر ما كان يبيع - لكنه أشار خجلاً كأنه يقول هذا ما آلت إليه الأمور- هو أستاذ علوم في الثانوية - كأنه يوضح أنه مضطر.

أردت أن أعرف فقط أين أجد سامي، أشار أخي إلى اتجاه، ابتسم لي وافترقنا، هو باتجاه أسفل الطريق، وأنا صعدت حيث أشار.

انتبهت أنني أسير في الطريق الخطأ، إنه طريق مغلق، البيوت قديمة متداعية، والشوارع خالية، أعود أدراجي، يتغير شكل الطريق، هناك شجرة كبيرة لم أرها من قبل، يخرج سامي من زقاق ضيق، يناديني: (أبي)... ويرتمي في أحضاني، أضمه طويلاً، نقف في وسط الطريق كتمثال، بكيت بصوت مكتوم خافت، مد يده إلى رقبتي يلامسها بأصابعه.

أخرج وسامي من عناقنا، وأراه يلوح ويركض مسرعاً، باتجاه المكان الذي جاء منه، أصبح المكان بعيداً، والشجرة مورقة وسط

الطريق، أنادي لا يسمع، لا يلتفت،، ابتلعته عتمة مفاجئة، يختفي في المجهول. رحت أبكي، رأيت مياهاً صافية في محيط الشجرة، صحوت وقد أصاب المخدة بعض البلل. كان الحلم قوياً لدرجة أنني أحس بالعناق حتى اللحظة».

توقف عن الحديث مبتسماً، أخذ رشفة أخرى يتوج متعة لقائه الخيالية في الحلم بفنجان قهوة واقعي.!

ثم قال: «ماذا تقول يا أستاذ؟»

يبحث عن ردة فعلي، أو يبحث عن مشاركة في هذه المتعة المفاجئة.

- «حلم جميل، رائع، جعلك سعيداً».

- «أتراه كان يشير إلى مكان وجوده، ربما لا زال هناك، لم يخرج إلى مكان، يقولون الماء الصافي خير، والشجرة المورقة هل تقول شيئاً؟»

- «لا أفهم بتفسير الأحلام، ولكن دعنا نأمل الخير»

- «لكنه حي، لقد رأيته حياً، شعرت أنه سيعود»

- «أرجو أن تجده عما قريب». صمتنا قليلاً فأردفت:

- «منذ متى لم تره في الحلم؟»

- «مضى وقت طويل، وكنت أتساءل لماذا لا يزورني، لا يبحث عني»

- «بالتأكيد سيبحث عنك، سيبحث عن عودته، لنأمل أنه على قيد الحياة».

أحسست أني أخطأت بجملتي الأخيرة (على قيد الحياة).

أصيب خالد بانقباض مفاجئ، صمت، وأربكني.

«هل نخرج قليلاً، نحن بحاجة للتسوق، ونتابع حوارنا على الطريق؟»

قلت ذلك لأشجعه على الخروج، طالما أن موضوع الحوار الرئيسي سيكون حول سامي فإنه سيأتي.!

«لابأس» يرد موافقاً.

راجعت سريعاً على الشبكة درجات الحرارة المتوقعة في المنطقة، الجو بارد، تصل درجة الحرارة العظمى أربع درجات مئوية. ارتديت ملابسي الثقيلة، بينما أصر خالد على ملابسه الخفيفة.

خرجنا نبدأ مسيرنا باتجاه مركز التسوق. قلت له: «هل تحدثني عن سامي، عن فرح، عن عائلتك، أيام الفرح لديك، ذكرياتك الجميلة؟» نظر إلي طويلاً، لعل الفكرة راقت له، وقال:

- «أجل، ولكن هل نذهب إلى محطة القطار أولاً».

- «لنذهب، لدينا الكثير من الوقت، ومركز التسوق ومحطة القطارات في نفس الاتجاه»، ابتسم مرتاحاً، وكان يبدو أنه ينتقل إلى صور جميلة في حياته.

- «ألا تشعر بالبرد؟» قلت له.

- «بلى، لكني أحب ذلك»

- «كيف؟ ستمرض، والجو بارد جداً»

- «أحبه، أحب البرد، أحب الأوقات إليَّ هي أوقات البرد، تصور أحب أن أشعر بلسعة البرد، بوخزه الشديد»

- «كيف هذا؟»

- «أحب أن أحس بالبرد يتمدد من الخارج باتجاه الداخل في جسمي، أحب أن أحس بحركته وانتقاله من طبقة إلى طبقة، من الجلد إلى الطبقات المتتالية من اللحم، إلى أن يصل إلى العظم، أن يصل أحشائي»

- «كم هذا غريب، أحقاً ما تقول؟ لم أعرف أحداً على هذا النحو»

- «بل أكثر، أحب أن أرتجف، أن يقصف جسمي، ينتفض برداً، وأن أعاود الدفء على مهل بالاتجاه المعاكس من الداخل إلى الخارج بدون استخدام أدوات التحمية والتسخين، أحب أن يتم ذلك بالدفاع الذاتي للجسم، ويطول وقته وأن أشعر به طبقة - طبقة».

- «أكاد لا أصدق، أنت تمزح؟»

- «أنت تعلم أني لا أمزح، يمتعني مشهد قطعة لحم تتجمد في الهواء البارد، تقطعها من الوسط بسكين حاد، وترى الطبقات التي وصل إليها البرد».

- «أنت تفاجئني».

- «بعد وفاة والدي متجمداً، بقي الأمر عالقاً بي، أغراني الموت برداً بالبحث، أردت أن أفهم كيف يترك الإنسان نفسه يموت برداً، لماذا مات أبي على هذا النحو، وكان يمكنه البقاء - وفق تقديري».

- «وهل فهمت، هل اكتشفت شيئاً؟».

- «في طفولتي جربت البرد طوعاً، علني أفهم، كنت أصل إلى مرحلة أتوقف عندها، ولم أفهم، ثم رحت أقرأ عن ذلك.

قرأت منذ سنتين عن فنان قضى متجمداً فوق أحد الأرصفة في إحدى العواصم العربية.

كان شارك في معرض لرسوماته هناك، بعد أن شارك بأكثر من معرض عالمي، وكتب أشعاراً وأغاني، دفعته أوضاعه الإقتصادية إلى التشرد.

مات بعمر الثلاثة والأربعين متجمداً في شوارع عاصمة مزدحمة».

- «أعرف هذا الرجل، قرأت عنه، وشعرت بالعار، وقلت لنفسي وقتها يستطيع الإنسان أن يصرخ، أن يعوي ووووووووو.. لكن كبرياءه منعه، وفضل الموت صامتاً.. يا للعار»

- «أنت تعرف أنه ليس أبي وحده من مات متجمداً، قرأت عن الموت برداً وشعرت براحة ما وأنا أتيقن أن أبي لم يمت منتحراً بالبرد، لم ينتحر بسببي أو لأي سبب».

- «رائع، كيف وصلت إلى هذه النتيجة؟»

- «ينتج القلب والكبد معظم حرارة الجسم بالتناغم مع حرارة مركز المخ، تنتج هذه الأعضاء عند البرد حرارة غير كافية، ويبدأ جسدنا بالإرتعاش لإبقائنا دافئين، ويعمد جسدنا إلى تضييق الأوعية الدموية لإعادة توجيه الدم إلى الأنسجة الأعمق والأكثر أهمية، وهو ما يساعد على تقليل كمية الحرارة المفقودة ولهذا السبب تشكل المشروبات الكحولية خطراً كبيراً في حالة البرد لأنها تعمد إلى إنبساط الأوعية الدموية»

- «مثير، نظرية مهمة»

- «ليست نظرية، هذا علم مؤكد، والأهم أن المرء يبدأ بالإرتباك

عند درجة حرارة جسم تقل عن إثنين وثلاثين درجة مئوية، ويبدأ الخمول بالتفكير، والحديث، وفقدان التفكير المنطقي، ولدى قضاء وقت في الجو القارس تجهد العضلات المسؤولة عن انقباض أوعيتنا الدموية وتبدأ الفشل، ويؤدي هذا إلى عودة مفاجئة للدم الدافئ المسحوب من أطراف الجسم، ما يجعل الشخص يشعر بالاشتعال كأنه يحترق للحظة، ويشعر الشخص المشوش بهذه الحالة بحرارة عالية، وضرورة خلع ملابسه وهو ما يسمى - بالتعري المتناقض - وهو سبب موت ربع الحالات. بزيادة برودة الجسم يدخل الشخص في حالة غيبوبة، ثم تبدأ العضلات بالتصلب، ويزداد معدل انخفاض التنفس وصولاً إلى الموت».

- «مذهل، كأني أتعرف عليك من جديد».

- «بالتأكيد سمعت عن الموت جوعاً، إنهم كثيرون على أية حال، ليسوا فقط في مناطق الحروب، ليس عدداً صغيراً، إنها أعداد تسم المجتمع الدولي بالعار، إذا كنت تفكر فيه فسترى قرون هؤلاء المنافقين الذين يتباكون على موت الإنسان جوعاً، بينما رواتب الموظفين الذين يدرسون الجوع ويصورون الأفلام ويعقدون المؤتمرات أكثر بكثير مما يحتاج هؤلاء الجوعى كي لا يموتوا»

- «تماماً».

- «نتيجة للجوع تنهار العضلات والأنسجة للحفاظ على الأنظمة الحيوية للجسم مثل الجهاز العصبي، وعضلة القلب، والرئتين.

ويؤدي ضمور المعدة فيما بعد إلى ضعف الإدراك والشعور بالجوع.

إن إدراك الجوع يتحكم فيه الجزء الفارغ من المعدة.

غالباً ما يكون للضحايا إحساس ضعيف بالعطش، وينتج الجفاف.

يظهر التعب، ويجعل المصاب فاقداً للقدرة على الحركة أو تناول الطعام.

يتألم الذين يقضون جوعاً في البدء، ثم تصبح مواجهة الموت جوعاً أسهل» يصمت قليلاً ثم يتابع:

- «من أقسى برأيك الموت جوعاً أم الموت برداً؟»

- «يا للمقارنة! نحن نتحدث عن موت في الحالتين، لا أعرف على أية حال، ما رأيك أنت؟»

- «الموت جوعاً يستمر أياماً كثيرة، ربما عشرات الأيام، الموت برداً يستمر لساعات» توقف لحظة وأردف:

- «هل أتوقف، لا يعجبك الحديث؟»

- «لا.. لا.. استمر، مثير ما تقوله، أكمل، أكمل، ولكننا اتفقنا أن تتحدث عن أيامك الحلوة، والحديث يمضي باتجاه آخر»

- «أنت على حق، لم أنس، فأنا أحب أن أجلس في برد محطات القطار لأن ذلك يذكرني بأيام جميلة مع عائلتي، أجمل أيام».

يتوقف قليلاً ونأخذ كرسياً على رصيف المحطة ويتابع:

- «ذات شتاء أخذت عائلتي في رحلة معي في القطار، وكنت ذاهباً في مهمة عمل، واقترحت على زوجتي السفر برفقتي مع الأولاد، سيتيح لنا ذلك البقاء معاً.

كان البرد يحتل الشوارع التي بدت خالية، وكنا نرتجف على رصيف المحطة، نتشوق لرحلتنا الأولى، فرح وسامي أحبا البقاء على الرصيف، فخرجنا جميعاً من قاعة الانتظار، إلى الرصيف، كان الوقت مساء، تبدأ الرحلة الساعة الثامنة، وتستمر ثماني ساعات.

الجو بارد واخز، يصل حتى العظم، يمكنك ملاحظة الأبخرة التي تخرج من فمك. راح سامي وفرح يركضان جيئة وذهاباً على طول الرصيف. اشتريا بعض الأطعمة في المحطة، وشربنا شايا ساخناً زوجتي وأنا ريثما وصل القطار.

حجزت غرفتي نوم صغيرتين - كابينتين - في القطار المسافر من دمشق في عربة النوم، في كل كابينة سريرين فوق بعضهما، قام رجل القطار بفتح الغرفتين في الباب الوسطي بينهما بناء على طلبنا.

يختار سامي وفرح السريرين العلويين، الذين يصل إليهما سلم صغير معلق. في الكابينة مغسلة ماء وهناك خزانة صغيرة يمكنك اكتشاف مكانها ببحث قصير.

الجو في الداخل دافئ أكثر مما ينبغي.

تصور أن يكون لديك ثمان ساعات متواصلة تقضيها مع عائلتك في تلك الحجيرات الصغيرة.

كنا نشعر بحرية كبيرة رغم حجم المكان المحدود، كم كان ذلك رائعاً. سامي وفرح أحبا القطار كثيراً. لقطاراتنا أصوات أشد ضجيجاً، تختلف قليلاً في صفيرها، أصوات احتكاكها بالسكك، لكني أحببتها وأولادي وزوجتي.

أحب رؤية القطارات تقف وتسير، يصعد الركاب وينزلون، أحب أصوات حركة القطارات، الإضاءة الليلية.

يذكرني البرد الشديد بأبي وعائلتي ويذكرني الدفء بأمي».

ابتسمت لروايته، لطريقته وهو ينظر في البعيد، ويتابع كأنه يتناول

مشهداً تلو آخر، وأسعدني أن يستيقظ فيه الإحساس بالجمال، بروعة الحياة، وسألته:

- «هل كانت تلك هي المرة الوحيدة في القطار؟».

- «لا.. كانت هناك مرة أخرى، وبعدها تفاقمت الأزمة، تدحرجت الأمور بسرعة وبطريقة سيئة».

- «هل تحدثني أكثر عن فرح وسامي؟».

لمحت بريق حياة في عينيه، مزيجاً في نظرة وقال:

- «كانا مفعمين بالحياة، طاقة، طاقة يا أستاذ، هي تلك الأيام التي عرفت فيها معنى الحياة.

سامي وفرح دائمي الحركة، كل بطريقته، يتبادلان الأسئلة، ونسمع، يتجاوبان في سعادة، ويضحكان، حين يضيق المكان في غرفة القطار يخرجان إلى الممر، وكنت أناديهما برفق حتى لا يضيقا على حركة المسافرين، لا سيما عند التوقف في المحطات، ويعودان، يقفز سامي إلى الأعلى بطريقة تجعل فرح تضحك من قلبها، كان يقوم بكل الحركات التي تجعلنا نضحك.. كم كان ذلك جميلاً.!

ذات مرة قال سامي أنه لو كان حيواناً لأحب أن يكون نسراً، وقالت فرح أنها تحب أن تكون فراشة.!

طار النسر واحترقت الفراشة». قال ذلك وحبس دمعتين.

- «عائلة رائعة حقاً، استمتعت بوقت جميل مع عائلتك»

- «سأقول لك سراً: إنني آتي كثيراً إلى المحطة، أجلس في العراء، أخزن بعض البرد، وتلوح صور أراها وأعود».

- «هل تقول حقاً، أنت تقضي أوقاتاً مع البرد هنا في هذا المكان؟»

- «أحياناً هنا، وأخرى في الغابة» ثم أشار إلى مكان قرب المحطة:

- «أنظر إلى ذلك المتشرد» قال ذلك وانتظر مني تعقيباً:

- «أشفق عليهم هؤلاء المشردين، الدولة هنا تتبنى الجميع فلماذا يتشردون؟»

كان المتشرد يجلس على فرشة موضوعة فوق كرتون سميك على الأرض أمام محل تجاري ويغطي نفسه بحرامين، وإلى جانبه كلبه يغطيه بغطاء صوفي، وضع أمامه علبة يلقي فيها بعض المارة بقطع نقدية صغيرة، بينما راح يقرأ في كتاب سميك بين يديه.

تعبر فترة صمت بيننا، يرفع خالد رأسه ويقول:

- «أعتقد أن قيمة التشرد هنا في قدرته على منح طالبيه إحساساً عالياً بالحرية، إنه يتخلص من عبودية الحضارة - ألا تعتقد ذلك؟».

- «لا أفكر على هذا النحو، التشرد في بلادنا بسبب الحاجة، الفقر، الحروب، ربما للتشرد هنا معنى مختلفاً». ثم أردفت:

- «وأنت تعرض نفسك للبرد ألم تمرض؟ ألا تمرض؟»

- «بلى مرضت كثيراً، وأصابتني الحمى، والسعال الحاد، والسعال الديكي».

- «لماذا تعذب نفسك إذاً؟ لا تجعل البرد ينام في فراشك، كيف تترك البرد يصل عظامك؟ إنك تجعلني أرتجف» صمتنا معاً وراح يسرح في المدى.

جسدي ينتفض، وصل البرد داخلي بسرعة، أسناني تصطك، وكنت أفكر هل فقد عقله هذا الرجل؟ إنه متزن تماماً فيما يقول، ولكن فيما يخص علاقته بالبرد فثمة شيء خطأ.!

لا زال صامداً، يبتسم ابتسامة قادمة من أعماقه ولا زالت عيناه في المدى...

نظرت إليه ووقفت: «هيا بنا، يكفيك هذا البرد لمدة عام، دعنا نذهب للتسوق».

اليوم رأيت رجلاً جديداً، لم أعرفه من قبل، خالد الضعيف لديه نقاط قوة، لو كان هذا تحدي لمواجهة البرد لاعتبرت هذا هزيمة أمامه. توقفنا في مركز التسوق القريب من المحطة، رحت أسترد أنفاسي التي تسارعت برداً وأحاول الوصول إلى التوازن الحراري والتوازن النفسي أي جنون يعصف بهذا الرجل؟! أكرر في سري.

تناولنا حاجياتنا، وضعتها في حقيبة الظهر، وعدنا إلى البيت في حوارات متقطعة بسيطة «هل لديك صور لأفراد عائلتك؟» البعض منها، أكثرها تركته في البيت وأنت؟» «وأنا كذلك، تركت معظمها هناك»

أسأل نفسي إذا كان هذا الرجل يتحدى قوانين الطبيعة - بلا طائل - يعذب نفسه أو ينتقم منها... هل فقد القدرة على التواصل الطبيعي؟

حين وصلنا البيت، كنت لا زلت أرقص برداً، كيف أتخلص من هذا البرد المخزون؟ أعددت لنفسي كوباً من الشوكولا الساخنة على

عجل، ثم دخلت الحمام لآخذ دوشاً ساخناً، أتخلص من هذا الجنون الذي علق بي، من البرد الذي طالني، وتركت خالداً يتخلص على مهل من برده ليحس بالدفء طبقة - طبقة من الداخل إلى الخارج كما يريد.

أتعرى وأشعر بوخز البرد وتصطك أسناني ويزيدها تذكر البرد، أقف تحت المياه الساخنة، أفتحها على مصراعيها، أسبل يدي في البدء، ثم أضعهما متصالبتين، أمسك بهما أعلى الذراعين بالقرب من الكتف، أشعر ببعض الوخز، الوخز الممتع بينما تستمر المياه الساخنة في محاولة مساعدة الجسم على طرد هذا الكائن العجيب – البرد- أغمض عيني، أشعر بجريان الدم، يتسارع رويداً.. رويداً وأشعر باللهاث، أركض، أركض، لا زلت أرى أرصفة المحطة وهواءها الذي حملت برده على جلدي، تغلغل في طبقات اللحم، وصولاً إلى العظم...

أحاول نزع هذا البرد، أركض مغمض العينين.

المياه الساخنة تصل إلى كل أجزاء جسمي، أتخلص من قطع البرد المرتبكة على جسدي، تخرج خجلى من مسامات الجلد، وتأتي من الداخل جحافل برد أخرى، أشعر بها، لقد شوشني هذا الرجل بأفكار غريبة.

ألهث، أحاول تهدئة نفسي تحت المياه الساخنة، أرى خيولاً في سهول بعيدة، يركض نظري خلفها، يمر قطاران حولي في اتجاهين متعاكسين، ألقي البرد الذي يخرج من جسدي المرتجف، في المكان قرب قدمي مع المياه، لا أجرؤ على فتح عيني، رغوة الصابون كثيفة فوق رأسي، يزيلها جريان المياه وتملأ المكان حول قدمي..

أسبل يدي مرة أخرى، الدماء تجري، تتجاوزني القطارات في اتجاهاتها المتعاكسة وأبقى وحيداً، تجري الخيول، براري واسعة، تهرب حيوانات مسرعة جزعاً، تلاحقها وحوش، جري.. جري.. تختار الوحوش فريستها.. يهدأ الركض..

أشعر ببعض الدفء وأقع... أفقد توازني داخل البانيو - لا زال الماء الساخن يهطل بغزارة - أمسك بحاملة البرادي، وذراع الدوش، تتخلعان، وأسقط خارج البانيو بالقرب من باب الحمام.. أصحو من الجري على ألم في مرفقي اللذين سنداني..

يسمع أصدقائي في الخارج صوت ارتطامي، يهرعون إلي.. أقول:

«أخرج بعد قليل».

## رحيل 16

أحلم بحيوان رأس، رأس فقط، كله رأس، تخرج قوائمه من جسم الرأس، ويعيدها إلى مواقعها، يشبه وجهه وجه الفهد باستدارة أكبر ليصبح أشبه بكرة، مقطب الجبين، وعينين حذرتين، متحفزتين، وأنف متجمع في منطقة سوداء بارزة، وشوارب قاتمة، طويلة حادة، تزيد من رهبته، وتظهر في ملامحه القاسية شكل القدرة على الإفتراس، يقبع في الظلمة، يتحرك، يتماوج الرأس بين الرخاوة والصلابة، تتحرك عناصر الوجه من مواقعها. أكره هذا الشكل الصلب، المتماوج، اللزج... قبيح.. قبيح.

أراه في أول الحلم، يطل قبل أن أنام عميقاً، كأنه يتوعدني إذا نمت، فأبقى على نوم قلق. زارني هذا الكائن الخرافي اليوم صباحاً.

أفقت لحاجتي عند الخامسة، وعندما عدت أنام مرة أخرى، التقطت مخدة أضعها بين رجلي تارة، وتارة أضمها إلى صدري، وقبل أن أغفو رأيته يطل فوق المخدة، تصطدم عيناه بعيني... لا نوم..

قمت من فراشي أغلقت مهجع النيام.

أستل سيجارة.. سيفاً أحارب بها قلقا غامضاً، وأوقات انتظار.

أعد القهوة على مهل، بطقوس عشق قديمة، أزود نفسي ببعض الخيالات والرؤى، وأغنية قديمة صدحت في أجواء حارات دمشقية في صباحاتها العاشقة.

أخلد إلى زاويتي البللورية - الملاذ - يدفعني إليها شغف الهروب إلى لا مكان.....

تراودني صور الموت الفوضوي، والقتل العبثي - وأي موت - أصب فنجان قهوة، وآخذ سيجارة، أضعها بين شفتي رجل خائف وأتركه يحاورني:

«عليك ألا تشعر بالذنب لأنك نجوت هارباً، تجلد نفسك لأن هناك عالقون، أنت عالق أيضاً في مسارات لعبة السادة، هل أنا متهم بالبقاء على قيد الحياة؟ متهم بالحياة؟ متهم بالبقاء؟ الشباك فضفاضة وكلنا عالقون!. لا زلت عالقاً معهم، عالقاً بهم، عيونك هناك، قلبك هناك، أنت لست هنا.. أنت لست هناك. ثمة من يدفع الثمن نقداً، وهناك من يدفع بالتقسيط...»

أشعر باندهاش أمام أفكار تنساب بلا رادع ولا رقابة، أفكر فيها، أكررها في داخلي مرة بعد مرة، أهرب منها، أحذف بعضها، أحذفها كلها، أخضع نفسي لرقابة ذاتية، أعيد الأمور إلى نصابها، أشعر بالخوف المتأصل من هذه الأفكار، وأعلن أمام نفسي براءتي منها، وتتحول إلى حيوان خرافي كروي قبيح يلاحقني في العتمة، يلاحقني في الضوء.

لا زال أصدقائي نائمون، ولا زال لدي متسع من وقت لموعدي مع إحدى مؤسسات المجتمع المدني هنا التي تقوم على مساعدة اللاجئين، تقرأ رسائلنا، تشرح لنا، تساعدنا في إعداد الردود، والحصول على المواعيد الضرورية، وإعداد الردود وبعض المراسلات....

أوراق كثيرة ومراسلات تصل من الجهات الرسمية وغير الرسمية، متاهة حقيقية!

في زاوية الصندوق الكرتوني الذي يضم المراسلات وقعت عيني على الظرف البني، أوراق أمي - رسالتها الأخيرة إلى الحياة.

قرأتها عشرات المرات، قررت قراءتها مرة أخرى شوقاً إلى أمي، إلى أبي، إلى حياة عشتها لأملأ الوقت بما أحب.

خصتني أمي بأوراق، يمكنني أن أقرأها بعد وفاتها كما وعدتها، هي أوراق بخط يدها.

كنا في الطابق الثالث لمبنى مؤلف من إثني عشر طابقاً، يقع مباشرة على جسر الوزان في مدينة دمر بدمشق، يطل على نهر بردى، وصلنا إليه بعد رحيلنا الثاني من خان الشيح، بحثاً عن مكان آمن، عن نجاة.! أمي تجلس على السرير الوحيد في البيت، وأنا أجلس على الأرض، فوق فراش بسيط قمت بشرائه من عائلة تفر من جبل الرز إلى قريتها في الشمال.

انتهزت أمي غياب إخوتي، وسلمتني الأوراق موضوعة في ظرف بني اللون، كان موضوعاً تحت زنار خصرها العريض. أخفيت الأوراق أمامها في حقيبة استطعت الخروج بها، تتضمن أوراقي الهامة. كان خط يدها مقروءاً. قمت بالتنقيح الضروري، واستبدال بعض الكلمات المكتوبة بلهجة محلية غير مفهومة، مارست بعض الرقابة الخفيفة، وأرجو أنها ستغفر لي. وجاءت قصتها:

«عندما تقرأ هذه الكلمات أكون بين يدي ربي، تحت التراب. لا أعرف إن كنت قادرة على زيارتكم مرة أخرى بشكل ما، لا أعرف ما هي الخدمات التي تقدم هنا! بعد الموت.!

لا أعلم إذا كان من المسموح التواصل مرة أخرى مع عالم الأحياء، إذا كان ثمة ثغرة يمكنني العودة منها، بأي شكل يمكنني الوصول، وأي جسد يسمح لي بارتدائه، ولكن إذا كان ذلك مسموحاً فدعنا نأمل أن تشعر بوجودي.. إنني أشكر الله على كل شيء، في

حياتي أشياء جميلة... لقد أحسست دائماً أن حياتي كانت تحكمها مسارات مرسومة، أقدار.

اخترتك من بين إخوتك لأنك تشبهني في كثير من الأشياء، إلا أنك تستطيع أن تقول (لا)، الكلمة التي لم أستطع قولها طوال حياتي، والذي كلفني عدم قدرتي على قولها أن أقدم حياتي هدية للآخرين. والدي لم يرسل أياً من أخواتي إلى المدرسة، حتى لا يكتبوا الرسائل السرية. وكان وجود والدي في سجن الإنجليز في فلسطين السبب في متابعتي صفوف القراءة والكتابة والحساب والديانة وغيرها حتى الصف الرابع.

كتبت في حياتي رسالة واحدة وأنا بعمر تسع سنوات. كتبت رسالتي بخط واضح، وتركت سطراً فارغاً بين كل سطرين كتابة، وتركت جزءاً فارغاً في نهاية الورقة. كتبت رسالتي إلى الله.

لم أكن أجرب الله، أردت التوجه إليه وأخبره عما يحصل، وأقدم إليه طلباتي.

كانت رسالتي الوحيدة، وجهدت ألا يراها أحد سوى الله.

في البدء كنت سعيدة بما أفعل، كأنني أقوم بعمل لم يسبقني أحد إليه. أصابتني الحيرة كيف أرسلها؟ في أي صندوق بريد يجب وضعها؟ تحت المخدة، أو في جيب الفستان؟. وضعت الرسالة تحت المخدة، صحوت باكراً وأعدتها إلى جيب فستاني الريفي الذي ارتديته على عجل.

أحببت هذا الفستان ذو اللون الأبيض المزركش الذي خاطته لي أختي الكبرى، وكنت أرى نفسي فيه أميرة من أميرات القصص التي

تحكي عنهن أمي، يصل الفستان إلى أخمص قدمي، مخموصاً في الوسط وواسعاً في الأسفل، أحببت فيه الجيبين عند الخصر والزنار الذي يعلوهما. عندما فتحت الرسالة، لم يكن فيها أي إشارة، أصابتني خيبة صغيرة، وتأكدت أن العلاقة مع الله لا تشبه العلاقة مع البشر.

كان الخلاص من الرسالة كابوساً حقيقياً، ربما لهذا لم أكتب رسالة أخرى سوى رسالتي هذه - إذا اعتبرتها كذلك - انشغلت في الخلاص من الرسالة، أشعلت أمي النار في فرن الحطب، وعندما ابتعدت قليلاً رميتها في النار لتحترق، وشعرت بالتحرر والراحة.

أنهيت الصف الرابع، وقال أبي كفى.! توقف الزمن، حاولت أن أكرر قراءة دروسي حتى لا أنسى، كنت أقرأ كل الكتابات التي أراها في طريقي، على الأحجار المعلقة على جدار المسجد، وعلى جدار المدرسة، وأماكن أخرى لم تكن كثيرة، قرأت اللوحات آلاف المرات. في عام النكبة وقبل سقوط البلدة، أحضر والدي علي إبن عمي، وكان يعمل في شركة النقل الوحيدة في المنطقة، وجاء عمي، وفي جلسة عائلية قرر والدي وعمي بسبب تسارع الأحداث وقرب سقوط البلدة، بعد أن سقطت المدن الكبيرة، قررا تزويجي من علي! لم يسألني أحد! في اليوم التالي حضر الأقارب، أتى أخي صالح يحمل سلاحه، وأخي مصطفى.

جاء الشيخ وانقضى الأمر.

كان عقد حماية.

- هذه ابنة عمك، مسؤوليتك يا علي - قال والدي بحزم.

- بعيوني يا عمي.

بكت أمي وبكيت. لم يكن هناك طقوس زواج.

زواجي نوع من ترتيب الأمور والمسؤوليات. جمع والدي قبل يومين وثائق الملكية ووضعها في أكياس نايلون، ووضعها في الحفرة التي أعدها أمام مدخل البيت وقام بصب البيتون فوقها، لتصبح المدخل الجديد للبيت.

كان زواجي يشبه هذه الصبة - أرجو ألا يزعجك هذا.

علي شاب رائع، ولديه كل الصفات التي أحبها، ولكن ربما الطريقة والظروف لم تكن مناسبة للفرح.

غزت النكبة تفاصيل حياتنا، كانت هزيمة حتى العظم، هزيمة إنسانية، قومية، وطنية، هزيمة شخصية..

كان والدي يحمل والدته على ظهره، ويمسك بيد أختي زهرة حين بدأ القصف من جديد، صرخت نسوة بجوارنا، وركضن، أمي تحمل أخي وتمسك أختي.

وقعت زهرة على الأرض، انفجر قلبها الصغير خوفاً، ماتت.!!

لازلت أذكر شكلها وهي تموت، قلبها يخفق بشدة، وكنت أنظر في عينيها، ونظراتها تمضي إلى الأبد..

صرخت أمي، بكيت بكل إحساسي كما بكى الجميع، رحت أرقب أمي وهي تضمها مرة أخيرة، وأرى دموع أبي وأسمع صوت بكائه، استمر نحيبه طويلاً، لم أر أبي ضعيفاً هكذا من قبل، ولم أكن أظن يوماً أنه قادر على البكاء.!

بعد دفن زهرة في أرض بعيدة عن البلدة، وبينما كنا نتابع المسير، جاء خبر استشهاد زيد ومجموعة من رفاقه.

زيد جزء آخر من تاريخ حياتي، رفيق طفولتي، أي فجيعة عشناها، استمر النحيب دهراً، يحاصرنا الموت والجوع والعري والقهر والفراق.....

أخيراً حط بنا الرحال في سورية أنا وزوجي وأهل زوجي بعد أن تركنا أهلي في الأردن.

كل شيء بدا غريباً في البدء، ولم نكن نعلم أننا سنبقى لاجئين إلى الأبد. قبلنا كل شيء لأنه مؤقت، ريثما نعود.

حصلنا على خيمة صغيرة، وحصل الأقارب على خيم متقاربة. أصبح لنا عالماً جديداً: «المخيم» «المؤقت». لكل عالم رجالاته، نساؤه، أولاده، شبابه، خساراته، مجرميه، عاهاته، مجانينه، لكل عالم حزنه وفرحه، مقولاته، أسراره، فضائحه،.... كان المخيم عالمنا الجديد. أن تحصل على خيمة مضاعفة، جزء خارجي وجزء داخلي هو ضرب من البطولة، أن تحظى بفرشة إضافية أو حرام، أو مخدة أو أي قطعة هي مدعاة للفخر، هي بطولة ما.! بدأنا نعتاد على واقعنا الجديد، نأكل ونشرب، نصحو وننام، نبكي ونضحك.. نبحث في المستقبل وعيوننا باتجاه الوطن.

كانت الآفاق محدودة، لكن الأمل كان قائماً.

كنا نفكر كيف نخرج من هنا، كيف نخرج من فكرة المؤقت.!

كان والدك يخرج صباحاً ويعود مساء منهكاً، ويضع بين يدي ما يحصل عليه.

لم يتحدث عن عمله، ولم ألح عليه، أعلم أنه كان عملاً شاقاً، يرتبط بقوته الجسدية. قبل أن نخرج من المخيم، كان والدك سائقاً في وكالة الغوث.

كان إنجازاً عظيماً، الأعظم.

كان المخيم بائساً لا سيما في الشتاء. تنتشر التواليتات الزرقاء بعيداً عن المخيم، وفي زاوية أقرب تتوزع مناهل المياه ومواقع الطبخ. ويقع كل شيء: الخيم والمطابخ والمناهل والتواليتات على أرض ترابية، تتحول شتاء إلى جحيم طيني. انتقلنا من الخيمة إلى بيت طيني، ثم إلى بيت استأجره والدك بعد تثبيته في العمل.

كان علينا أن نشهد هزيمة أخرى في هذه المدينة الحدودية، القريبة من الجبهة، أنت تذكر ذلك، رأيتك تسأل والدك بعينيك (كيف حصل ذلك) لقد وعدك والدك بالنصر، وكانت هزيمة مريعة. وأنا أشارك والدك أحلام العودة، تراودني صورة بيتنا الذي دمره الإنجليز بعد إخبارية أبو كيس عن الثوار الذين اجتمعوا في بيتنا ليلتها. أصبح ابن أبو كيس لاحقاً رجل متنفذ مهم، كان سبباً في إنهاء خدمة والدك مبكرا من عمله.

بعد النكسة كنا نشعر بمرارة أكبر، فالمسافة تكبر بيننا وبين الوطن. والدك كان صامتاً دائماً، لا يقول الكثير، في داخله رجل طيب، مليء بالقوة، والعزيمة والصلابة، بقدر طيبته. كان مقاتلاً استثنائياً. أحببت ذلك فيه، كانوا قلة من يعرفونه كمقاتل.

داهمت القوات البريطانية القرية ذات يوم، وقد قتل أحد ضباطها الكبار في سلاح الطيران، قادتهم الآثار إلى فاروق الذي

أتهم بقتله مع إثنين آخرين، استطاع فاروق الإفلات، أمور لا تسمع عنها سوى في الحكايات.

قصفوا القرية بكل حقد، دمروا جزءاً من المسجد، وأصابوا المدرسة المجاورة، لكنهم لم يقبضوا عليه.

فاروق هو زوج خالتك - أختي - كان طريقه وأختي إلى العراق في رحلة اللجوء.

تتحرك مشاعر والدك عندما يتحدث أحد عن القرية، تبرق عيناه عند الحديث عن فاروق، تتغير ملامحه، كان والدك وفاروق ويوسف ابن خال والدك أصدقاء، يجلس ثلاثتهم مساء في المقهى قرب ساحة البلدة، يشربون الشاي، يتحدثون في السياسة، ويبتعدون كثيراً عن القرية، كانوا أصدقاء بحر حيفا.

أردت أن أقول لك أن والدك كان رجلاً شجاعاً، ولم يكذب عليك حين وعدك بالنصر لكن الأمر لم يكن مرتبطاً به.

هناك قصص أبطالها رجال ثلاث، لا زالوا مجهولين حتى اليوم.

دخل العدو قريتنا بعد إعلان دولته بما يزيد عن شهرين.

الجزء القاسي في علاقتنا والدك وأنا كان زيد:

زيد ابن عمي (عمك الشهيد) كان رفيق طفولتي، بيننا الكثير من اللعب والطفولة والمرح، والأسرار الصغيرة، بيننا تاريخ شهده والدك، زيد كان أقرب عمراً إلي. أعلم أن والدك كان يحبني، وأنا أحببته.

عندما يتم ذكر اسم زيد كان ينظر في عيوني، وأحاول أن أتفاداه، حتى لا أجرحه، كان يشعر بالحرج مع نفسه، ويتجنبني

طويلاً بعد كل حدث يذكر فيه اسم زيد. كانت تلك خلافاتنا الصامتة، لم نتحدث فيها أبداً.

زيد استشهد، لم تربطني به علاقة خاصة، ربطتنا طفولة بريئة، وأذكره كلما ذكر الوطن، أو الغربة، أو الفراق.

أحبني والدك، ولكنه ربما يشعر أنني لست من حقه. حاولت أن أغير ذلك في علاقتنا، ورغم انخفاض الخلافات الصامتة بيننا، إلا أنها استمرت حتى النهاية.

قبل أن يموت والدك، كان يحدثني كعادته عن حلم العودة، عن البلد، عن الأشجار، البيادر، عن أهله، وعندما وصل إلى زيد الذي استشهد في آخر معارك البلدة قبل اللجوء مباشرة، نظر في عيوني وتابع لأول مرة حديثه:

«كم كان زيد مليئاً بالحياة.. مثلك»

قالها كأنما يعتذر عن شيء، أخذته إلى صدري وبكينا.

كيف كان ينبغي أن أجعله يدرك أنني لم أفكر يوماً بزيد كزوج، كان رفيق طفولتي وجزءا من تاريخ أحبه. توفي والدك في اليوم التالي.

في المخيم كان لدي الكثير من الوقت، حصلت في البداية على كتب ومجلات وصحف ودفاتر وأقلام.. وأمضيت أوقاتاً ممتعة وأنا أقرأ من جديد، حفظت بعض الشعر، واستعان بي أهل المخيم، وكنت أقرأ المولد النبوي، ثم تعلمت غزل الصوف يدوياً، وأعمال الصنارة، وبرعت فيهما.

صنعت كل كنزاتكم بيدي، كان ذلك متعتي غير المحدودة، وأنا ألبسكم عملي اليدوي.

ومن أعمال الصنارة صنعت بيتاً للقنديل، أشكال زينة مختلفة. انهالت علي الطلبات ومنعني والدك من العمل للآخرين - لن تعملي بالأجرة - قال بحزم. ولكني كنت أصنع بعض الهدايا لبعض الأقارب، والأصدقاء نقدمها في مناسبات مختلفة، مثل عيادة مريض، مباركة زواج أو نجاح.... صنعت لك كنزة صوفية بألوان كثيرة في خطوط متوازية، تلك التي تصورت فيها في مخيم اليرموك مع والدك وصديقه.

في زيارة إلى بيت جدك في اليرموك، اقترح جدك علينا الانتقال إلى هناك لنكون قريبين من بعض، بعد النكسة ووفاة صديق عمره فاروق تغير والدك، وفكر بامتلاك بيت.

في زيارة أهلي، لم يكن الأمر شاقاً.

في العام الأول للجوء لم تكن تمر ثلاثة أشهر بدون زيارة لأبي وأمي، كان أبي يرتدي ملابسه البيضاء، كله أبيض، حتى لحيته بيضاء، عدا وجهه المخضوضب، وخصوصاً عندما تلمحه الشمس، كان طويلاً، عريضاً يشع وجهه بالمهابة.

وأمي نحيلة، متوسطة الطول، رقيقة، قليلة الحديث، نالت منها السنون فانكمش جلدها وبانت عظامها، كانت تضمني طويلاً بينما يبدأ مسلسل جدك في العتابا والغناء والبكاء بصوته العالي، كأنه يعيش وحده على هذه الأرض.

عند كل ولادة أتى أبي وأمي.

قالت الدكتورة أنني يجب أن لا أحمل ثانية.

لم أرد ذلك، وقال والدك الحمد لله، يكفي. كنت أريد أن أنجب الآلاف لو استطعت، لا تسخر من الفكرة - لم يحصل أن قامت امرأة

واحدة بإنجاب الجيل الذي سيحرر، ولكن نساء المخيم، كن جميعاً حوامل أو مرضعات.. هل تبتسم الآن؟.! كان يمكن أن يكون سبباً لخلافات عائلية التباهي بكثرة الإنجاب والسخرية من قلته.

في السنوات التالية بدأ التعب يظهر على والدي، وخفت وتيرة الزيارات. لم تتوقف الأعراس، ولا الغناء، الدبكات والرقصات بين الحين والآخر.. تابع الجميع حياتهم، درسوا، عملوا، تزوجوا، أنجبوا... دورة الحياة.

رغم كل شيء لم يتوقف الفرح.

ورحلنا باتجاه اليرموك بعد أن تمت إجراءات نقل وظيفة والدك.

أصبح اليرموك وطننا الصغير، أخذت أسماء الشوارع أسماء المدن والقرى في فلسطين، أسماء أبطالها، احتفالات وجنائز الشهداء، شعلة من الحركة والنشاط، كانت الجماهير مستعدة لكل شيء، للتعبئة، للقتال، للصراخ، للتضحية، تثيرنا الخطابات الحماسية، قصائد الشعر، الهتافات في المظاهرات.

أين ضاع كل هذا الزخم؟. استشهد أخوك إبراهيم في الأسبوع الأول من المعارك في بيروت، وخرجنا مرة أخرى من لبنان!

المسافة تزداد بعداً.

في زيارة أبي وأمي الأخيرة وفي حالة من المرح والفكاهة في سهرة عائلية قام أبناء خالتك محمود وعبد القادر بإقناع جدك بالذهاب لحضور فيلم حربي يعرض في أحد دور السينما بدمشق، كانت المرة الأولى الذي يذهب فيها جدك للسينما والأخيرة.

في السينما وفي موقف درامي وقف جدك متأثراً بالمشاهد، وصرخ صرخة المقاتل، هب واقفاً واتجه بقوة بعكازه الخشبي وظهره المنتصب باتجاه الشاشة ينتصر للمظلومين، صفق الحضور في السينما لانفعالاته الصادقة، وأوقف عرض الفيلم لدقائق، أشعلت الأضواء إلى أن تمت السيطرة على مشاعره وسط محبة الحضور.

تمت متابعة الفيلم.

أصبحت قصة تروى، بكيت حين سمعتها.! كنت أسعد بأبي وأمي، تنقضي مدة الزيارة ويعودان في جو من البكاء والنشيج.

نبكي والدتي وأنا بصمت، بينما يصرخ والدي ألماً وينشد العتابا، سامحيني يابا، سامحيني، يمضي ويرن صوته في رأسي..... سامحيني.....

فقدت أبي وابني إبراهيم بنفس العام.

بعد وفاة إبراهيم أخيك، لم أر والدك يبتسم، لم يتجاوز ذلك، لم يستطع.. فقدت الحياة بريقها في عينيه. بالأمس خرجنا من مخيم اليرموك.. تغريبتنا الجديدة.

كنت دائماً تعترض على خروجنا....

هذه الأوراق تنقصها التفاصيل والتسلسل الزمني وأشياء أخرى، يمكنك تتبعها، تعرف بعضها من حكاياتنا الشفهية أنا وأبوك.

الصورة التي تجدها في نهاية الأوراق هي صورتنا أنا وأمي وأخواتي البنات أمام بيتنا الذي هدمه الإنجليز، في الخلفية ركام البيت بعد الهدم، يظهر في الصورة أمي بحالة الحمل وبطنها

منفوخة، حصل على الصورة فاروق من العراق صدفة في مجلة بريطانية قديمة وتحت الصورة كتب إسم القرية وتاريخ الواقعة واسم العائلة ومعلومات أخرى. لن تسألني عن هذه الأوراق لأنك ستفتحها بعد وفاتي.

سترافقني إلى خارج المخيم، سنخرج سوياً.

لو أستطيع أن أموت إلى جانب زوجي علي وإبني إبراهيم لكان ذلك آخر ما أطلبه من الله...

ما أبعد البلاد يا ولدي، ما أبعد البلاد.!»

## رحيل 17

أجلس على عتبة أشباح من ماض سحيق، من عصور قديمة، أتلمس غسقاً نارياً يرافقني إلى رحلة أزلية، أعود منها بلا شوق إلى واقع أو تطلع إلى أبدية.

سقطت أبديات كبيرة أمامي، ولم أعد أقوى على ارتكاب حماقات أخرى وامتطاء أبدية جديدة بلا عنوان.

ألقي على قارعة الوقت حلماً أزلياً راودني - أو أحلام - وأخلع إرتباكاتي.

لم يكن هناك رحيل لم نكن على وشكه.

حقائب جاهزة للغياب، والمطايا مسرجة، لا حاجة سوى لقبل الوداع الأخيرة.

أتلمس جسدي مدناً ممزقة تظهر عريي، أبقيها.

أرتدي مدناً غريبة - قميص نجاة - وأحتمي ببقاياي.!

هي مدن المرح والحياة والأشجار و..... البرد.! أسبح في بحر غياب، أتنفس هواء الغابات، غابات أشجار باسقة، وغابات أفكار غامضة. أصوغ من صمت المكان حكاية.. حكايات..

أجمع مفارقات تتنازع المشهد، وأوقات اغترابي تلقي ظلها السميك.. صوت انفجار يهز المكان.!

أنا في سيارتي وسلمى وفاتن ابنتي، في مشوار صباحي يوم الجمعة، نخطف وقتاً رائعاً، نمتع أرواحنا في نهاية زمن رخي، ونحمله في ذاكرتنا مشهداً نستعين به على ابتسامة ثمينة تأتي من أعماق سحيقة بصيصاً في خريف الوقت.

اشترينا الخبز الأسمر الساخن، تغرينا الأرغفة الصغيرة المنفوخة المتقاطرة على سير ناقل باتجاه عامل الفرن أمام نافذة البيع.

يقدم لنا العامل أرغفتنا السمراء المعتادة صباح كل جمعه، نقضمها، نسعد بها، نضحك ونتابع جولة صباحية في دمشق، نجمع لحظات رضا وسرور..

تصرخ سلمى: رصاص.!

لم تكن تعرف من مفردات الحرب سوى كلمة (رصاص).

صححت لها: هذا انفجار.

ارتبك السير.

لا أعرف مصدر الانفجار، كنت أخرج من ساحة الأمويين في الطريق إلى دوار كفر سوسة باتجاه مخيم اليرموك.

كان صوت الانفجار قريباً جداً. هدأت من سرعتي، رحت أمشي على مهل.

لم لا تسرع - تقول سلمى- كان حدسي يعمل.. ربما هناك انفجارات أخرى.

تطلق السيارات خلفي أبواقها، تحثني على الإسراع، أفتح لها طريقاً، تتجاوزني كل السيارات، وأبقى على مهل متوجساً.

ينبثق انفجار آخر أمامي، نيران ودخان وغبار، ترتفع أشياء في السماء، وجري في المشهد، وشرطي سير يخرج باتجاهنا على دراجته خارجاً من جهة الانفجار..

أتوقف متسمراً، بقيت وحيداً أمام مشهد هوليودي، لم يكن خلفي سيارات، لم يبق أمامي سيارات.

تجلس فاتن في المقدمة في طريق العودة إلى البيت، رأينا كل شيء: النار والأجساد المقذوفة في الهواء، وسمعنا الدوي الهائل، بكت طفلتي خائفة، رأت موتاً ورأيناه أنا وسلمى....

سألت سلمى وفاتن إذا كانتا تعرفان استخدام الهاتف النقال، وأعطيتهما جهازي بعد أن أنزلتهما على أرضية السيارة.

صوت رصاص غزير، وجنود.

صرخ أحدهم ووجهني باتجاه مخرج..

وصلت البيت في دقائق، مرت دهراً.. لم يكن الخبر قد وصل وكالات الأنباء حينها. توقفت عن اصطحاب أولادي إلى أي مكان.

لقد حدث هذا.. حدث هذا - أكرر لنفسي.

أنهيت قهوتي وبعض سجائري، نظفت المكان قرب زاويتي البللورية المفضلة وخرجت وحيداً أحمل حقيبة الظهر باتجاه مركز التسوق. لو خرجت معهم إلى سوق السبت - أقول لنفسي - وكانوا غادروا منذ بعض الوقت خالد وحسن وسعد.

لا أميل إلى سوق السبت هذا الذي يضم مبيعات مختلفة لأشياء قديمة وحديثة، مستعملة وجديدة، يضم تجهيزات كهربائية، وخضرة وفاكهة، ومحلات إطعام سريع، وكتب قديمة...

ذهبت هناك عدة مرات وفقدت الرغبة بزيارته.

الجو غائم ينذر بالمطر، أخذت مظلتي السوداء الطويلة التي أتكئ عليها كعكاز، وتذكرني بأبي في آخر سنين عمره ترافقه عكازه الخشبي، يطرق صوته سمعي في المدن الغريبة.

سرت باتجاه مركز التسوق، آخذ عربة أملأ فيها حاجياتي، وأقف في صف طويل، أضع على شريط سير ناقل أشيائي، أسدد قيمتها، وأخرج من الصف.

مطر.. مطر مدرار غزير، وبرد.

أخرج من محل التسوق الواسع، بعد أن ملأت جعبتي - حقيبة الظهر - بما يلزم وبعض ما لا يلزم. فتحت مظلتي، ومضيت مسرعاً. أسرع، أسرع، أستحث الخطا، تبرق، ترعد...

المطر يزداد، كأنه يسابقني، يدلف من سماء ملبدة تعد بالكثير، أسمع صوت سقوطه الرتيب، يزداد إيقاعه تارة، وتارة ينخفض، يتمايل، يتراقص، يضرب جسدي من أسفل الصدر، تبتل ملابسي تحت المظلة، التي تحمي رأسي والجزء الأعلى من الجسم. يدخل الماء حذائي الشتوي، وأشعر أني أغوص.!

البيت ليس بعيداً، لكن البرد نال مني، أذني، يدي التي تحمل المظلة، قدماي في الماء داخل الحذاء الشتوي، يبتل بنطالي الجينز بالكامل. أركض، أركض، أرتجف، تتحرك عضلات وجهي، وتصطك أسناني.. وصلت.

أخيراً وصلت، أدخل البيت، لا زال فارغاً، لم يرجع الآخرون بعد. نشرت مظلتي، وأنزلت أحمالي.. لا زلت أرتجف.

أخلع ملابسي بسرعة، أنشف جسدي، ألبس ملابس جديدة، وأفرغ جعبتي، أوزع الأشياء في مواقعها.

أضع مياها في السخان الكهربائي - أضع كمية زائدة من المياه لعلهم يتقاطرون بعد قليل خالد وحسن وسعد.

أجلس إلى كرسيي المعتاد، أرقب المطر المستمر في الهطول، والبرد خلف النافذة..

أشعر ببعض الدفء، أرتشف بعض الشاي، وأشعل سيجارة، وأهدأ. كم عدت يا شتاء بالريح والمطر، بالطيف والصور، بالدمع والعبر.! كم مرة أخفيت في ريحك النحيب، كم كنت دافئاً يا شتاء، في لمة المساء...

أخذني والدي ذات شتاء وأخي الأصغر لشراء جزمة شتوية لكل منا. أحضر صديق والدي (أبو حسين) تشكيلة غنية من أحذية فقيرة، وكنا نطلق اسم الجزمة على حذاء جلدي من الكاوتشوك الرخيص الثمن. اخترت جزمة ذات لون أخضر فاقع، عالية العنق، أعجبتني وأصررت عليها رغم أنها واسعة قليلاً، ابتسم والدي، وأخذ أخي واحدة مثلها. لا أنسى فرحي ذلك اليوم. سأل أبو حسين والدي بلهجته المحلية «هل نقيد» أي نسجلها ديناً على الدفتر، ويرد والدي «قيد». وضعنا جزمتينا أمام باب غرفة النوم متجاورتين، وكنت أذهب بين الحين والحين إلى الحمام، أمتع ناظري بها، وراح أخي يقلدني جيئة وذهابا.

تبتسم أمي، ويبتسم أبي.

صحوت في الليل عدة مرات وتفقدتها، وفي اليوم التالي شعرت بالفخر أمام رفاقي. أدفع قدمي أمامي وأنقل نظري بين وجوه الناس، أبحث عن إنطباعاتهم أمام هذا الحدث المركزي - أبتسم لأحاسيس الطفولة. عدنا من المدرسة نجمع الطين بجزماتنا الجديدة، وانخلعت عدة مرات من قدمي ملتصقة بالأرض. يوجد أمام كل بيت زاوية حديدية للتخلص من الطين قبل الدخول، هي

جزء من طقوس الدخول إلى بيوت المنطقة في الشتاء. احتجنا في حالتنا ضرب أقدامنا بالجدار أولاً والإستعانة بقطعة خشبية قبل الطقس الأخير. في المساءات يرتاح والدي يسند ظهره إلى مسند قوي محشو بالقش، يمد قدميه، نتحلق قرب مدفأة نسمع صوت لهيبها - هسيساً - وتقص أمي الحكايا.

في ليالي الشتاء تحكي أمي حكايا الخوف والبرد، دائما ما يرتبط البرد بالخوف بالمطر بالعتمة، يتماوج صوتها وتتغير طبقاته، ليعطي تأثيراً ما بصوت تمثيلي نتفاعل معه، ويبدو مثل موسيقى تصويرية..

كم مرة عدت من المدرسة أركض تحت المطر، البرق والرعد، وصوت الهطول، وأصوات المياه المتدفقة من المزاريب العالية والمنخفضة، أقفز فوق الممرات الصلبة، أتجاوز بحيرات الشوارع والأزقة بالتنقل فوق قطع الحجارة الناتئة، وأحيانا بالخوض فيها. أرتجف يعصف البرد بجسمي، أنتفض، ترتجف لحيتي وتصطك أسناني، أتجمع على نفسي، أحك يدي ببعضهما، أرتعد، يعلو صوت البرد في داخلي.. يه.. يه.. يه.. يه..... 

أسعد بدفء اللقاء، خوف أمي وهي تساعدني على خلع الثياب، تأخذ برودة يدي بيديها الدافئتين، تنشف لي رأسي، وجهي، يدي، تنشفني، تلبسني ثياباً جديدة دافئة، سخنتها قرب المدفأة، تمشطني، تسحبني إلى المدفأة، تزيد سرعة نقطة المازوت - تزيد سعيرها - أقف أكاد أحضنها - المدفأة - يستمر جسمي بالرقص برداً، يهدأ على مهل، وتقدم لي كوب شاي بالميريمية.

ينعم قلبي بدفء، منحتني إياه إمرأة دافئة اليدين والعينين والقلب والروح هي أمي...

لو تمطر كل يوم - أقول لنفسي.

تجتمع العائلة في مساءات الخميس الشتوية، نختار طعاماً شتوياً ما، الكستناء، أو الشوندر، أو البطاطا الحلوة.... نجلس في حلقة بعد العشاء، يتم شواء الكستناء على مدفأة المازوت، ويتم التوزيع بالتساوي على الجميع، لا فرق، لا تبديل، وتصبح الحبة المعطوبة موضوعاً للتندر والتعليق.

تعطي أمي من حصتها تعويضات لنا عن الحبة المعطوبة. جو من الفرح والألفة والدفء... ما أجمل الحياة.. ما أروع الشتاء.!

هل يمكننا إعادة تشكيل الواقع الذي أحببناه على نحو ما؟ دون أن تلهبنا سياط الحنين بذكريات تجعل منها أساطير تشبه في قدسيتها قدسية الآلهة!؟.

أصب لنفسي كوب شاي ساخن، وأشعل سيجارة.

أتابع انسياب أفكار ورؤى تراودني أوقات الوحدة دون رادع: إنها لعبة الذات مع الذات، لعبة النفس البشرية، أن تشعر دائماً بالعذاب، مرة تكون الضحية، ومرة تجلد نفسك وأنت تشعر بعذاب الضمير، أن تشعر بالإثم لأنك تأكل وتشرب، وتلبس، وتشعر بالدفء، وربما لأنك على قيد الحياة في زمن القتل.!

أن تشعر بالذنب لأن أحداً ما كان يمكن إنقاذه، ولم تفعل.

أن تشعر بالعذاب لأن ذاكرتك تعمل، تشوه الحقائق وتعيد رسمها مشابهة للأصل وبأبعاد مختلفة، يخرج الرسم سيريالياً يتمدد ظلالاً، ويتحرك في انحناءاته، وتتغير الألوان لتصبح أشياؤك التي تركتها أكثر قيمة، لا تقدر بثمن، كل ما فقدته يصبح غير قابل للبيع.

هذا نحن - أحدث نفسي ولكننا ضحايا..

نحن أبناء مدن الشجن والحزن الأبدي.

ثمة مدن للفرح وأخرى للبؤس، مدن كالحة كئيبة، ومدن ساحرة سخية، بعضها عابق بالحب والحياة والرضا، ومدن للخراب والموت. مدن يعلو صوتك فيها فرحاً، ومدن تشهد فيها ولادة صوتك يحمل انكساراته الموروثة، وتلاشيه مع ريح عابثة، تسمع فيها صوتك مشوهاً بالخوف والخجل، لا تحميه قناعة أو قدرة.

هناك مدن للضحك والمتعة واللذة، ومدن للبكاء والتلاشي. للمتقاعدين وأخرى للشباب، للهدوء والصخب، للرقة والعذوبة، للعنف. مدن ذكورية وأخرى تمتلئ حياة وحيوية.

ثمة مدن للأشجار تشهد عناقاً دافئاً لأشجار عارية في وقت الشتاء، وغيرها للرمال والشمس والريح. لليل والنهار، وأخرى توصل الليل بالنهار، وتحارب الحزن والكآبة بفرح تأتي به أساطيرها، وإعجازها، ورائحتها الليلية العابقة، وأصوات عزف نهاري أو ليلي.

صوت مطر قوي، عزف صاخب، يأتي من جهة الغابة، وأتابع في وحدتي حواري وأنا أشعر بضآلة ما، بعد سماع أخبار بائسة عن الحرب والقتل والجوع والموت...

أنت صفر.. أنت لا شيء في مدن غريبة!

لا.. لا.. أنا شيء.

أنت خزان محشو بذكريات بليدة، من نزع جلدك وعظمك؟ من أفرغ أحشاءك؟ من خطف أشياءك؟ وجعل منك خزان ذكريات، وشوق، وحزن، أو قلق وترقب.

سلبوا كل شيء وتركوا صندوق أشياء.!

في هذه الحرب نفهم أكثر انسحاق الفرد وخصوصيته.

نفهم عجزنا وقزامتنا، بشكل أوضح، حجمنا الضئيل، كمنا المهمل، قيمتنا البالية، وهذا الترهل.

لعلنا مصابون جميعاً بالبرد، بالتجمد، بوصول أجسادنا إلى درجة حرارة تحت الإثنين والثلاثين، بدأ البرد يصيب عقلنا الجمعي، نحن لسنا في حالة سبات، نحن في حالة تجمد، في طريقنا إلى الموت والتلاشي.

في حالة البرد نصل إلى فقدان التوازن، نشعر كمجموع بفشل كفشل الأوعية الدموية، ونقترب من حالة التعري المتناقض الذي سيسبب موتنا، نؤدي رقصة البرد - رقصتنا الأخيرة - نقوم بالدفن - دفن أجسادنا - الذي يرافق التجمد في اللحظات الأخيرة قبل الموت - آخر الشعائر. أنت تبالغ - أقول لنفسي.

هي لعبة الذات مع الذات، أنت تشعر اليوم ببعض اليأس، ستخرج منه، وتفكر بطريقة أفضل.

مطر شلال في الخارج، دفقات مياه الشلال، دفقات الصور القادمة من أزمان سحيقة. يتراءى ضوء، يشق الشلال، برقاً، وصوت رعد هادر، أرتشف قهوة أعددتها، وأشعل سيجارتي الألف...

أرسل ابتسامة عشق عبر زجاج النافذة لشجر الغابة المحتفل، بمطر شلال، وضياء آخر النهار يسقط مع حباته الثملى بقايا إشعاع، وانتشاء يعبق به المكان.

سقط من أعلى الشلال..

رأيته يسقط مع المياه الساقطة، مع الشلال العظيم.. المقدس. لماذا أحسست بقدسية الشلال؟! أسأل نفسي..

حجم الأشياء أمامنا وقدرتها تجعلنا نقدسها، شلال صاخب، عال، غزير...

توقف الولد قريباً من أعلى الشلال وانزلق، كان قطعة من الشلال الساقط.

ارتطم بالبحيرة وغاص...

كنا أولاداً نرقب، عقدت الدهشة ألسنتنا، وجمدتنا.

انسحبت أبصارنا باتجاه بقعة صغيرة، بقعة السقوط.

لحظات وكان سباحو القرية يركضون، يقفزون على المنحدر المؤدي إلى البحيرة، يغوصون بحثاً، تجاوز عددهم العشرة. كيف جاؤوا؟ كيف خلقوا؟ كان جميلاً لهفتهم، ركضهم، وقفزهم وغوصهم..

مضى الوقت بطيئاً.

عادوا به حياً.!

كانت محطتنا الأخيرة في رحلة مدرسية، في زمن يقفز فيه أبطال مجهولون لإنقاذ تلميذ من مدرسة ما، قادم من منطقة بعيدة، لا يعرفون عنه شيئاً، لا يعرفون اسمه ولم نعرف أسماءهم، شهدنا بطولة.

لا زال العتم يتسرب على مهل، ولم يرجع أحد.

سيجارة أخرى، وفنجان قهوة، وأصوات المطر، ضياء وهدير، وأنا وحيد.

لقد بنى العالم على مر العصور حالة لا يمكن تفكيكها. قسم الأرض، بنى دولاً وممالك صغيرة وكبيرة، ومجتمعات ضعيفة وأخرى قوية. تقاسمت العالم دول عظمى بعد حروب ودمار، وقتل واغتصاب.

هذا الولد المشوه - عالمنا - هو ابن تاريخ طويل من الحروب والعنف والاستغلال...

تحصل الحروب لإعادة توزيع الحصص، توزيع القسمة.

عند تغير موازين القوى، حين لايرضى سادة العالم، تقتتل الضحايا! لمن توزع ذاتها؟.! تحتمي هذه الضحايا من مغتصب بمغتصب..

قد يمكنك الإختيار..

طريقة قديمة لاصطياد الفيل، تقوم على حفر حفرة يقع فيها الفيل، ثم يأتي معاونو الصياد، وقد يكونون ملثمين، ليقوموا بضرب الفيل في الحفرة وإهانته، ثم يأتي الصياد ليدافع عنه فيضرب معاونيه أمام الفيل فيهربون، ويتكرر العمل عدة مرات، يحفظ الفيل وجه الرجل الطيب، الذي يحميه ويطعمه، ثم يقوم بترتيب إخراجه ويصبح ملكاً للصياد الذي أنقذه.

الحرب لا ترتبط بنا نحن الصغار، الحرب صناعة الكبار الذين يمدونا بالسلاح حتى حدود التوازن، ويرقبون لعبة الكر والفر، وتسجيل الانتصارات موزعة على الجغرافيا والتاريخ، على المكان والوقت، يرقبون المشهد، ويتصارعون على الحصص في الأروقة المخملية، البعيدة عن ميدان القتال، يحسبون قدراتهم على الأرض بأجسادنا، بأجساد الصغار.. من يربح؟ في سباق الخيل، لا يحصل

الخيل على الكأس، يربح راكب الخيل، ويتم التخلص من الفرس التي تتكسر ساقها. في محفل آخر نصوت، يصوتون، يروقنا ذلك، وقد لا يروق.!

مافيا الدول تعمل على إفقار الشعوب، تسرق خيراتها، ثرواتها، تحول الحرب التي تصيب الشعوب إلى مسألة مساعدات ومخيمات ومواد تموينية، وتعمل مؤسساتها على توزيع الفتات على الأمم الضعيفة، أمام عدسات الكاميرا لتظهر قيمها الإنسانية العالية، بينما أعدت خارطة النفوذ الجديدة.

يمكنك الموت أو اللهاث..

أعيد قراءة العالم، وأشعر بحاجة إلى تقديم اعتذارات كثيرة، حين تراودني أحاسيس ملتبسة وأنا أشعر بتعاطف ما في وقت الموت - أخشى البوح به - مع أدوات صغيرة بدت في صورة جلاد بائس يمضي إلى حتفه.

أخجل من تعاطفي الساذج، ويلح علي فأغادره.

«في خروجنا من خان الشيح، وصلت مبكراً مع عائلتي وأمي، وأختي، محشورين في سيارة بيضاء تتسع لخمس ركاب. كانت الشوارع خالية في السابعة والنصف، في أعلى المنحدر في نهاية البلدة يصادفنا على الطريق حاجز طيار، ملثمون وأغطية سوداء لبعضهم مثل كيس يلبس الرأس، يظهر من ثقوبه الصغيرة العينان، وبعض الأنف، والفم.. يتناول أوراق السيارة شاب عشريني ويعطيها لأحد الملثمين، يحدق فينا، يعيد الأوراق، ويتركنا نغادر. نجونا مرة أخرى.. ثم عاودنا النجاة».

أقف قليلاً، أتمشى وأرجع مرة أخرى، أرى أعقاب السجائر الكثيرة، أتوقف عن التدخين وأتابع صوراً.

«وقفت أمام المبنى، ودرت حواليه، تفقدت الجوار والطرق الموصلة إليه.. قلت هنا.. أريد أن أسكن هنا، هي قلعتي الأخيرة.

أخذت الشقة الوحيدة الفارغة في البناء، في الطابق الثالث، تطل على النهر، وعلى جسر الوزان.

توقف العمل، بطالة مبكرة، أجزي الوقت بأفكار سوداء، وصور الموت المتربص عند كل زاوية، عند كل منعطف، في العتمة، وفي الضوء، في الليل والنهار، في كل وقت.

أجتمع مع أولادي وزوجتي وقتاً أطول مما ينبغي على ما يبدو في الآونة الأخيرة.

توقف البحث عن العمل، وازدادت حواراتنا، النقاشات لا تنتهي، نصبح أكثر قدرة على الكلام، وأقل على الفعل.

أكثر قدرة على الشجار، كلام، كلام، تفاصيل، تعلو الأصوات عن المألوف، إذا زادت الحوارات عن الحد تصنع الشقاق، عليك أن تكون حذراً، يجب أن تخرج، أن تغير الوقت الرتيب. أين أخرج؟ أتساءل. أقطع جسر الوزان باتجاه الكنيسة، إلى السوق.

لا.. لا تذهب إلى السوق - أقول لنفسي.

ستنفق.. أجل ستنفق! أنت لا تحتمل ألا تنفق، اصبر، مخزونك لا يتحمل الإنفاق.!

هذا الشهر طالبت صاحبة البيت بزيادة الأجرة، رفع عليها صاحب البيت الذي تسكنه الإيجار، وسترفع هي إذاً إيجار البيت

الذي تؤجره. تؤجر بيتاً في منطقة مرتفعة الثمن، وتسكن بنصف الأجرة، في منطقة أقل ثمناً، وتعيش بفارق الأجرة.

عندما أعود بعد خروج طويل، يهرع إلي أولادي، أضمهم، أقبلهم، أحملهم، أدور فيهم، ترحب زوجتي بي، أسلم على الموجودين إلى أن أصل غرفة أمي، التي تقف على مهل لاستقبالي، كانت تصر دائماً على ذلك.

تبدأ بقراءتي، تنظر في وجهي، تتصفحني كمن يقرأ جريدة، تقرأ العناوين الرئيسية أولاً: مبسوط - منزعج - متعب...

تجلس على سريرها، وتتابع اكتشاف التفاصيل.

أتجنب نظرات أمي، ولم أتجنبها يوماً، هي تعرف هذا.

تعرف كم أحب النظر في عينيها. كانت أمي تتفقدنا بنظراتها. حين تأتي حصتك، دورك، تتأمل في وجهك، تمعن فيه، تنظر في عينيك، تبتسم قليلاً، تحدق في شفتيك، ترصد، تقرأ، وتقول: مالك يا ولدي.. مالك يا بني؟ تقرأ صوتي، ارتجافاته، بحته، انخفاضه، علوه.

تفكك الألغاز على مهلها، ترقب حركاتك وأنت تتناول كرسياً، وأنت تأكل وأنت تشرب.

نقول حين يكون ثمة ما يؤرقنا: لا شيء.

وتعرف هي أن هناك شيء، وستعرفه بعد قليل.

تعرف أنك تشاجرت في العمل، أنك لست على وفاق مع زوجتك، أنك تختلف مع أحد ما، أنك مفلس..

كانت تقرؤنا ككتاب مفتوح.

تقرأ وجهي المصفر، عبوسي، ابتسامتي، فرحي، ترددي، إقدامي،

تهوري، خوفي، مخاوفي. تقرؤنا من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين، هي من علمتنا أن للجسد لغة نقرؤها: أن تحك جبينك، أن تشيح بنظرك، أن ترفع عينيك لليمين واليسار، أن تخفضهما إلى الأرض، أن تحك أنفك، أن تضع يدا على يد، أن تستلقي، أن تقف، تقرأ كل ذلك لم يعلمها أحد، أنت قوي، أنت ضعيف، حازم، متراخ.. وتعطيك توجيهاتها، ترفقها بدعوات، تعرف كيف تجعلك تستجيب. قالت لي كعرافة عتيقة، وهي تنظر في عيني:

«أنت لن تعود هذه المرة» صمتت، ضربت كفاً بكف وهي تجلس فوق السرير، قالت لنفسها وللحضور - ربما - لن يعود هذه المرة.

أحضرني يا ولدي إذا جاءت ساعتي.

دارت رأسها تحدث نفسها مرة أخرى بصوت منخفض:

«لن يعود، الله معك، الله معك يا ولدي، يرعاك الله» هممت بطلب السماح، لم تكن تنتظر، كانت تردد: الله معك.

يخرجني سعد من أعماق حلم، أعماق رؤى، تخيلات وانبعاثات الزمن الماضي، يطرق على الطاولة:

- «مرحبا يا عم، أنت من دخن كل هذا؟»

- «أهلين سعد، رجع الصوت إلى البيت، ولكن أين الباقون، ألم تذهبوا سوية إلى سوق السبت؟»

«أوصلتهم السوق، ورحت مشواراً خاصاً» ثم استردف:

- «والله يا أستاذ أحوالك لا تعجبني، التدخين والسهو الدائم، سنجد حلاً، سهلة، سهلة». ابتسم ابتسامة عريضة وقال وهو يتجه إلى الحمام.

- «لم يرجع حسن وخالد بعد؟ كم أحب هذا الـ (حسن) إنه يتعلم بسرعة» وغمز بعينيه مبتسماً، لم ينتظر جواباً، كان يعبث بالصمت. دخل الحمام يمارس طقوسه الخاصة في النظافة الفردية، طقوس مقدسة، يغسل يديه، ووجهه وقدميه، تنظيف شديد للأسنان بالفرشاة وبالخيط، قص الأظافر ونحتها، ترتيب الذقن، غسيل الشعر، يغسل في كل خروج وكل دخول، يدندن دائماً في الحمام، مستمتعاً بكل شيء، رائع هذا الشاب، يجعل الجميع يبتسمون، له طريقته في التفكير، بالتعبير، بالعيش، لكنه طيب، طيب جداً. يحمل وقت المطر مظلته المطرية الضخمة، كفارس لا يتخلى عن سيفه، ويرتدي غطاء مطرياً من البلاستيك يحمي فيه جسده من المطر، كان حريصاً على مظهره، أناقته، وقبل كل شيء نظافته.

يرفع صوته متقطعاً:

- «هل وضعت خططك السحرية بخصوص سامي وعمه» وعاد يغمز.

- «ماذا عسانا نفعل غير ما فعلناه، لقد فكرت كثيراً»

- «المهم النتائج»

- «وأنت هل لديك جديد؟»

- «نحن نبحث عن إبرة في أكوام قش، لا نعرفها في أي كوم، ولا عدد الأكوام»

- «أنت متشائم جداً»

- «أنا واقعي، ربما عليك إقناعه بالزواج، ليتزوج أجنبية، دعه يفقد الذاكرة»

- «ماذا تقول؟ نتحدث عن سامي وعمه»

- «صدق يا عم عبد الله، إذا لم يتزوج هذا الرجل سيموت، إن زوجته لا تكلمه، هجرته، الطلاق الروحي حاصل بينهما، لا يوجد أمل، فرح ابنته ماتت، وسامي وعمه مفقودان مثل والد حسن المفقود منذ ثلاث وثلاثين سنة».

- «لا تقل ذلك أمامه، دعنا نحاول مساعدته»

- «دعني أقترح عليه الزواج، فكرة، أقسم أنها فكرة جيدة».

وجدتني أبتسم، كيف يفكر هذا الرجل، ربما كان على حق.

مضت دقائق، ووصل خالد وحسن مبللين.

كان حسن أشد ارتجافاً، يختلط صوت ضحكته مع ارتجافاته فتظهر بصورة كاريكاتورية، رحنا نضحك لها جميعاً. حفلة تنشيف وتغيير الملابس. منذ ناقشنا سوية البحث عن سامي وعمه، زادت ألفة المجموعة.

استخدم سعد صوراً لسامي وعمه، وكتب إعلان الفقدان، ووضع أرقام هواتف الجميع.

الإعلان موجه في شبكات التواصل الإجتماعي (على من رأى أي من هذين الشخصين في أي مكان - يرجى الاتصال). إجراء معتاد قام به الكثيرون.

راجعنا بعض المؤسسات التي تساعدنا في أعمال الترجمة، وفي علاقاتنا مع الجهات الرسمية وغير الرسمية، وكانت الإجابات واضحة - خارج نطاق عملنا - تم نشر الإعلان في لوحات العديد من مؤسسات العمل المجتمعي.

تم الاتصال بممثلي الجالية في بعض البلدان. وأكدنا على خالد ضرورة البحث في داخل البلد، لعلهما لم يخرجا، لعل أم سامي تتابع البحث هناك. أردنا لو نمسك طرف خيط، لو يخرج أحد يؤكد لنا أنه رآهم في مكان ما.

درسنا إحتمالات لا تنتهي، طرق الرحيل والهرب، والغياب والموت ... نكاد نكون نبحث في العالم كله، فوق الأرض وتحت الأرض...

انضم خالد وحسن إلينا وتحلقنا حول الطاولة نحتسي الشاي الساخن بالقرفة.

وجه سعد حديثه إلى خالد وحسن يأخذ الحديث باتجاهات عامة:

- «ماذا اشتريتما من سوق السبت؟ هل يستحق الموضوع هذا المطر؟» يمسك حسن كوبه بكلتي يديه، يدفئهما بحرارة الكوب ويبتسم:

- «لا شيء غير عادي، بعض الخضرة والفواكه، السوق رخيص، ولكن أنت تركتنا وذهبت، إلى أين؟»

- «لدي مسائل أهم من سوق السبت - العمل يا صاحبي - العمل»

- «والنساء» يقول حسن.

- «العمل من أجل النساء» ونبتسم جميعنا.

يستغل سعد هذا الحوار ويتوجه إلى خالد:

- «لماذا لا تتزوج؟» يفاجأ الجميع، ولكن خالد كان أشدنا اندهاشاً، يفتح عينيه على وسعهما، وأردف سعد:

- «أجل، أنا جاد، هل هناك ما يمنع من الزواج؟»

- «ولكني متزوج»

- «أنت تقول أن زوجتك تطلب الطلاق، وأنها لا تتواصل معك، الموقف صعب»

- «أنا لا أفكر على هذا النحو، سأبحث عن ابني وأرجو أن أجده»

- «أرجو أن تجده، ولكن يمكنك أن تتزوج وتبحث عن إبنك».

كنت صامتاً، لم أكن أجرؤ على إدارة حديث كهذا، لكنه يغريني بالاستماع الحذر.

صمت خالد وندت عنه ابتسامة يختلط فيها الألم بالغرابة بالدهشة، خرجت بلهاء بلا لون.

كسر حسن الصمت:

- «دعه وشأنه، تكفيه مشاكله»

- «لا نستطيع أن ندعه وشأنه، يجب أن أقول ما أشعر به، هو بحاجة إلى امرأة تقف إلى جانبه»

- «ها نحن نقف إلى جانبه» يقول حسن.

- «أنت لا تعرف معنى أن تقف امرأة إلى جوار رجل، خصوصاً إذا كانت امرأة يحبها».

- «ومن أين سيجد امرأة يحبها وتحبه؟»

- «إذا فكر بهذا الاتجاه سيجدها وسنساعده إذا تطلب الأمر».

صمت حسن ينظر باتجاه خالد يستطلع رد فعله.

كان خالد صامتاً صمت القبور، فاجأه الموضوع ولم يقل شيئاً.

يقول سعد متابعاً:

- «صدقني يا صاحبي، لا شيء يعوض عن المرأة، هذا الأستاذ عبد الله ينتظر ومسألته مسألة وقت، وحسن يتعلم بسرعة، وسيجد طريقه، وأنا أموري بخير، دعني أطمئن عليك يا ولدي» قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

حاول خالد أن يجامل مرة أخرى فخرجت ابتسامته البلهاء، مليئة بالألم والمرارة.

تابع سعد:

- «اليوم السبت، هل تأتي حسن الليلة، العرض قائم للجميع»

- «طبعاً، ماذا عساي أفعل؟» يرد حسن.

ويكمل سعد:

- «أرجو ألا أكون قد أزعجتك أخي خالد، ولكنه رأيي - الحياة تستمر- يمكنك ألا تلقي بالاً، ولكني كعادتي لا أستطيع إلا أن أقول - أرجو المعذرة». يقول خالد:

- «لابأس، ربما تكون على حق» فاجأني جواب خالد.

فقال سعد ببعض الحماس:

- «أنا مستعد للمساعدة، عندما توافق سنعلن حملة زواج من الدرجة الأولى»

- «لا.. لا يعني أني أوافق، ما يشغلني الآن هو البحث عن ابني وأخي»

- «فكر بالمرأة أيضاً، سيصبح الأمر أسهل». لم يجب خالد.

توجه سعد إلى حسن يحاول أن يغير مسار الحوار:

- «لم لا تحكي لنا قصة شتوية»

- «أنت تنتقل بسرعة في المواضيع» ثم أردف: «لفتني مقطع في فيلم غرق سفينة، عندما تقف بطلة الفيلم التي تم إنقاذها، ويسألوها عن اسمها وهي تقف أمام تمثال الحرية، والمطر يتساقط، فتعود بذاكرتها إلى مشهد تجمد حبيبها في المحيط وتقدم اسمها منسوباً إليه، كم أعجبني ذلك! تزوجت من رجل ميت - لو كنت ميتاً سأحيا إذا سمعتها تنطق اسمي» قال ذلك وهو يبتسم.

وصفق سعد بحرارة: «يا سلام.. يا سلام»

كانا يحاولان معاً تحريك الجو وإضفاء بعض المرح.

تابعنا الحديث في موضوعات متفرقة، تخللها بعض المزاح والضحكات الصغيرة والابتسامات، لكن حذراً ما تسلل إلى النفوس.

ساد الجو بعض الهدوء وانسحب سعد وحسن للخروج مرة أخرى، وبقيت وخالداً. كان خالد المنكوب، صامتاً من جديد، يعود إلى متاهته. هي تلك المتاهة الحمقاء المضللة، متاهة متشابكة، تعيده إلى موقع انطلاقه.

أردت أن أقول له أن علينا أن نتخلص من رائحة الموت التي علقت بنا، من روائح البارود، والقذائف، ورائحة العفن، وتفسخ الجثث التي لم يكتب لها الدفن، علينا أن نتخلص من اللزوجة وشكلها.

عليك أن تفرغ الذاكرة الكئيبة من رائحة الموت، مما علق بها لتبقي روائح الياسمين والنارنج، وزهر الليمون، ورائحة القهوة،

والخبز الطازج.. لتستقبل روائح جديدة، أخرج الموت من ذاكرتك، انقلب على نفسك لتحصل على نصيبك من الحياة.

لكنه كان بعيداً، صامتاً، مثل شبح اقتسمته أزمنة رديئة، نظرته باهتة أقرب إلى البرود.. ضحية من ضحايا القهر، يدخل في الغياب، يمضي في التلاشي، هي ليست لعبة الذات مع الذات، هي حقيقة تربكني.. وأسأل نفسي كيف يعود؟ كيف يعود؟.

## رحيل18

تقول أمي: «اشتر لنا كركر أبيض يد»

تعجبني الموسيقا والكلمات، أرددها إلى أن أصل إلى البائع - أبو زياد - على الطرف الآخر من الشارع - ولمسافة طويلة - يجب ألا أنسى. أركض، أعبر الشارع، أمر بجانب أحجار بازلتية عملاقة، تملأ هوة كبيرة على يمين الشارع، بينما ينزل الشارع الذي أعبره إلى أسفل بانحدار شديد، يلتقي مع طريق نازل آخر يبدأ من نهاية الطريق الواصل إلى الدكان المقصود، ويتابعان معاً في طريق واحد نازل إلى قرية حدودية.

أصل وأنا ألهث، أسترد أنفاسي، وأقول: «كركر أبيض يد»

آخذ الخيطان وأرجع بسرعة البرق، كما أرادت أمي، فرحاً بمعرفتي الجديدة. تمد أمي ظهر اللحاف من القماش الأبيض السميك، تضع اللحاف ذا القماش الملون - أطلس - لون فاتح زهري.

أتشقلب عليه قبل أن تبدأ، يقلدني أخي الأصغر، وتنضم إلينا داليا أختي التي تكبرني بعامين، تتركنا أمي دقائق ثم تقول:

«يا الله دعونا ننهي العمل» تضع الوجه من القماش الأبيض الشفاف، الذي يظهر اللون الزهري خلفه، وتبدأ عملها في الخياطة اليدوية.

في تنجيد الفرشات، كان هناك رشيد الأخرس الذي يسكن في بيت طيني في مخيم للفلسطينيين، يصرخ بصوت عالي بكلماته المبهمة وغضب دائم، وبعد أن يقوم بضرب الصوف بقضبانه الفولاذية وطقوسه الغريبة، يأخذ حفنة من الصوف، يدخل بها

الكيس الخام - غلاف الفرشة - ويظهر رأسه الأقرع مطبوعا على القماش يتحرك داخل الغلاف، يثير قشعريرتي، يغويني بفعل أحمق، أقفز على ظهره وهو داخل الكيس، وأمسك رأسه بكلتي يدي، وأسمعه يصدر أنين اختناقه، وأشعر بالتورط فأثبت يدي بقوة على جانبي الرأس وهو يتحرك بعنف في الداخل، تدخل أمي عائدة من المطبخ وأهرب خارج البيت، يحاول اللحاق بي غاضباً، وتستوقفه أمي وقد دخلت في نوبة من الضحك، وهي تحاول أن تسترضيه، ويذهب غاضباً، ولا يعود مرة أخرى.

تقول أمي: «اشتر لنا زر أزرق نيللي».. موسيقا..

تستخدم بدل كلمة مكعب كلمة زر.

أكرر الجملة وأركض وأعود..!

أسألها ماذا تفعلين به؟ تقول: «لتبييض الغسيل». أتساءل كيف يبيض الغسيل وهو أزرق، لعله يجعلها زرقاء! تضحك أمي وتضع يدها على رأسي وتقول: «سنرى» وتتركني أراقب ما تفعل.

وأسألها: «ألا تريدين كركر أبيض يد» «ألا تريدين زر أزرق نيللي». تضحك أمي وتقول فيما بعد! عندما أحضر أخي مجموعة من علب مكعبات (زر) الأزرق النيلي، أصابني الوجوم.

(لن أشتر هذه الأزرار لفترة طويلة) - أقول في سري.

البللور ملون بالأزرق النيللي لتخفيف الضوء المنبعث، وعليه الأشرطة اللاصقة المتصالبة، لتخفيف الإصابات في حال حدوثها - تعليمات الدفاع المدني - التي طبقت بصرامة في مدينة قريبة من جبهة القتال. في حال سماعكم صفارات الإنذار - التوجه إلى أقرب ملجأ.

أقف مندهشاً أمام اللون الأزرق على البللور، تختلط الأمور في ذهني، كيف يصبح الغسيل ناصع البياض، وكيف يساعد في الحرب. وأقول في نفسي: «يجب أن يكون الأزرق أشد قتامة، يجب إتقان اللون والتلوين، واختيار لاصق قوي».

عند سماعي أول صفارة إنذار، هرعت إلى الخارج لأرى ما يحصل. كان عمري خمس سنوات ونصف تقريباً.

تجاهلت نداء أمي وأخي الأكبر الذي كان مشغولاً بتلوين غير متقن للبللور، ووقفت على رصيف الشارع الرئيسي.

في أسفل الشارع المنحدر بفرعي انحدار رئيسيين، كانت سيارة شاحنة كبيرة - قاطرة مقطورة - تصعد في الفرع الآخر.

المشهد واضح، كأني أراه اليوم.

تعلق شاب يافع في مؤخرة السيارة، رأيته يسقط بينما تفشل الشاحنة بالصعود على المنحدر الحاد وتبدأ بالتراجع السريع.

داست عجلات الشاحنة الجسد الطري، صرخت لا أصدق، تجمدت في مكاني، كأن ذلك لا يحصل في الحقيقة. لقد رأيته، ينتفض جسدي، في المشهد فقط الشاحنة والفتى وأنا أرقب من بعيد، وصوت صفارة الإنذار تعلن انتهاء الغارة.

تلحق أمي بي، ويركض أخي الأكبر باتجاه الحادث ويلحق به آخرون. يعلو صوت صفارة الإنذار من جديد، كانوا قد غطوا الجسد المسحوق، وقبل أن يفعل أحد شيئاً، سمعت صوت طيران حربي - كان معادياً - رأيت الطائرة تلقي أجساماً، ورأيت لهيباً، وسمعت أصواتاً مرعبة. أمسكت بثوب أمي.

رجعنا إلى البيت، أخذنا بعض الحاجيات - حصيرة، مياه، بعض الأطعمة،... - وانطلقنا أمي وأخي وأختي وأنا وأخي الأصغر، ولم يكن أبي ولا إبراهيم الأخ الأكبر معنا. تم إعداد ملجأ طوارئ في المشفى القريب - ربما هو الملجأ الوحيد في المنطقة. لم نكد نقطع مسافة عشرين متراً حتى عادت الطائرة للظهور في الأجواء وهي تلقي حممها على مشهد منا، كان صوت الانفجار فظيعاً. دخلنا خائفين أقرب منزل - بيت أم النور. يتم تقديم الماء والأدعية ومحاولات التهدئة في مثل هذه المواقف. أسعدتني رؤية دلال بنت أم النور، صديقة الجميع في الحارة، هي بطريقة ما سيدة صغيرة، مليئة بالحيوية، تضحك، تقود، يعيد أولاد الحي ترتيب أنفسهم حين تخرج إليهم.

بعد أن هدأت الأصوات، وتبادل بعض العبارات بين أمي وأم النور، قررت أمي المضي إلى الملجأ، شدتني من يدي، وخرجنا.

شعرت بخيبة أمل صغيرة.

حين وصلنا المشفى الكئيب بألوانه الصفراء الواجفة، وبللوره الملون باللون الأزرق النيللي، دخلنا من المدخل الخاص بالملجأ، عبر الحديقة التي تنتشر فيها أشجار الصنوبر، نزولاً على رامب ينحدر بهدوء بأرضيته الإسفلتية، إلى أن نصل إلى أرضية بلاط لا يكاد يظهر لونه. سقف الملجأ القوسي منخفض قليلاً، ويميل اللون الأصفر إلى القتامة، ويوحي بالكآبة.

شدني شكل السقف، وأنا أنظر إلى الأعلى، يشدني أخي فجأة بقوة: «تعاااال». ربما تأخرت عليهم وأنا أستطلع المكان.

وصل أخي وأمي إلى مكان مناسب لجلوسنا - هكذا بدا - هنا سنجلس - قرر أخي.

غالبية الموجودين من النساء والأطفال والأولاد الذين لا تتجاوز أعمارهم الرابعة عشرة.

يقف إلى جوارنا رجل كبير في السن، كان وجوده غريباً، مثل شكله. رأسه خال من الشعر، يتوافق مع شكل السقف القوسي. شدني المنظر فكنت أنظر إلى رأسه تارة وإلى السقف تارة..

أشعر بالاختناق، ويكاد السقف يطبق علي، سيكون الإطباق على رأس هذا الرجل أكثر ملاءمة - كنت أفكر - تساير انحناءة رأسه انحناءة السقف القوسي..

التفت إلي وصرخ في وجهي: «ما بك؟ اذهب عند أهلك». لم أجب.. نظرت إلى السقف مرة أخرى.

جلست مكتئباً، ولاحظت أمي، بينما قرر أخي الأكبر الخروج من هذا الزحام قائلاً «أفضل أن أموت في الخارج».

أصوات، ضجيج، بكاء أطفال، حركة وفوضى، حديث النساء، وألعاب الأولاد... الروائح المتمازجة في هذا الجو الحار الخانق.... تململت، وكان الرجل العجوز لا زال يتكلم، يصرخ، يشتم، يشير غاضباً، ضاعف هذا الرجل بؤس الموجودين، زاده، أضرمه، وكان السبب في مغادرة الكثيرين.

حملنا أشياءنا وتوجهنا مرة أخرى إلى المنزل:

«ليكن موتنا في المنزل» - قالت أمي.

يتحرك الناس على شكل مجموعات ذهاباً وإياباً إلى الملجأ. في الطريق على البعد، بدت لنا غرفة عزرائيل، يتجمع الكثيرون قربها، والبوابة مفتوحة.

لم نذهب إلى الملجأ مرة أخرى.

في الليل تتابعت أصوات انفجارات، وكنت خلف أمي حين فتحت الباب الخارجي بعد منتصف الليل لتظهر أضواء كثيرة في السماء - تضيء كل شيء - عرفت فيما بعد أنها قنابل ضوئية.

قال والدي قبل خروجه مساء:

«لا تخافوا، إنهم لا يجرؤون، نحن الأقوى».

توقفت الحرب - لم تبدأ ولم تنته - وسمعنا أنها ابتدأت وأنها انتهت. كانت هزيمتنا كبيرة، الهزيمة في كل بيت، في كل صوت، وفي كل قلب. حين نظرت في وجه أبي، أشاح بوجهه. لم نكن أقوى كما قال - ماذا يحصل - رأيت لأول مرة دمعة أبي.

بعد حرب الأيام الستة عاد والدي للنوم في البيت، صارت لهجته أكثر ليناً وهزيمة، وتحاشى النظر في عيوننا لفترة طويلة.

هو الخذلان المر، وانكسار الروح البغيض.

الشوارع أكثر هدوءاً. تساءلت دائماً عن قيمة اللون الأزرق النيللي ذي الاستخدام المزدوج، كأن الحرب تبدأ هنا وتنتهي هنا، بالنوافذ المعتمة الموصدة.!

بقيت الألوان الزرقاء واللواصق عمراً مديداً بعد انتهاء الحرب، لتذكرنا بالهزيمة، وتذكرني بالشاب اليافع الذي مات دهساً زمن اغتصاب سماء الوطن من طائرات العدو، زمن بؤس تاريخي، تؤكد أن ما نتج عن الحرب يزيد عن كارثية القنابل التي ألقت حممها، وقبحها بلا رادع. صار هناك مخيمات للنازحين قرب مخيمات

اللاجئين ليكتمل المشهد وتصبح الهزيمة جانب الهزيمة شاهداً على الخذلان والعجز، صورة لعالم ظالم...

يصرخ سعد فجأة:

- «أريد خيطاً أزرق، وإبرة، من لديه؟»

- «تحت السرير من جهة الرأس، هناك علبة إسطوانية، تحتوي على خيطان بألوان مختلفة مع الإبر، ماذا تفعل؟» - أصرخ.

- «أخيط البلوزة، يجب أن أذهب إلى العمل بعد الظهر»

يظهر حسن من الحمام يقول: «سأشغل الغسالة، من لديه غسيل؟ من لديه مانع؟»

يرد سعد: «أنا لدي غسيل، ولدي مانع» ويرن ضحكة حمقاء. يقول حسن: «هات غسيلك، واحتفظ بمانعك» ويرن ضحكة حمقاء رداً. كان استفسار حسن على هذا النحو يشير إلى سوء تفاهم سابق صغير حول الحمام والغسيل.

يدندن حسن بصوت أجش، ويصفر سعد تارة، وأخرى يدندن وقد وضع سماعة الأذن، وأنا أفتح كتاباً أقرأ بموضوع شائك حول الخوارق والظواهر الخارجة عن الاستقصاء العلمي، ويظهر فيه أن الكاتب ملتزم بتفضيل الواقع على الخيال.

وراح خالد يتصفح جهاز الكمبيوتر الخاص به، والذي قلما يفتحه.

لو يصمتان قليلاً - أقول لنفسي.

ولكنهما راحا يتقاطعان بأصوات نشاز، لا سيما ما يصدر عن حسن. يغني حسن أغنية معروفة، لكنك لن تعرفها بصوته، لا

مخارج الحروف ولا اللحن، ولا الوقفات، لا شيء يشير إليها.! يصمت حسن قليلاً، فأشعر براحة ما، وأقرأ سطراً دون أن أتمه، ويقول بصوت مرتفع على وشك الصراخ:

- «ما رأيكم لو نذهب السبت في رحلة إلى حديقة البحيرة؟ نقوم بالشواء والمرح، إنها قريبة على بعد أربعين دقيقة على أبعد تقدير، دعونا نفعل ذلك، نغير جواً».

- «لنفعل هذا» يصرخ سعد.

- «فكرة جيدة ولكن بدون غناء» - أقول. يضع حسن يده على فمه، يمثل الشعور بالذنب ويقول: «سهلة، لا تكترث»

- «ستذهب معنا» - يقول حسن مخاطباً خالداً.

- «كيف سيكون الطقس» - أسأل.

- «درجة الحرارة جيدة، هناك زخة مطر خفيفة عند الساعة الحادية عشر».

كان الاتفاق سهلاً، وربما كنا جميعاً بحاجة إلى تغيير ما.

لا زال هناك بضعة أيام للوصول إلى السبت. يصادف اليوم عطلة لمناسبة يحتفلون بها هنا، يشارك بعضنا في الاحتفالات، ويتلهى بعضنا الآخر بمسائل شخصية، قد لا تكون ذات أهمية.

أنظر في ساعتي، لا زال بقية وقت لبدء رحلة قصيرة لملاقاة كمال، صديق قديم في مدينة تبعد خمسين دقيقة في القطار، قادم من بلاد المال والثروة التي لفظته، جاء يبحث عن بلاد ملاذ لا تسحب فيها إقامته أو يتوقف تجديدها، أو يطرد بسبب تصريح ما، لرجل ما، في وقت ما، قد لا يمثله، وقد لا يعرفه.

لم يحمل نوح معه في السفينة أسماكاً، ما حاجته إليها؟ ما حاجتها إلى سفينته إذا كانت حياتها الغرق، ما حاجتها إلى نبي استجاب الله له فاستعار شكل حياتها في معاقبة اليابسة.

الأسماك وحدها كانت في مأمن، لم تخش الطوفان، تلك الحيتان لم يكن يعنيها كمية الماء المنسكبة من السماء، أو الخارجة من بواطنها، وتقول الأسطورة أن ابن عناق كان أكبر من الطوفان فنجا.

ماذا يعني أن تكون لاجئاً، ثم لاجئاً، أو لاجئاً ثم نازحاً ثم لاجئاً، أن تمضي من لجوء إلى لجوء، ما الفرق؟؟؟. لسنا أسماكاً ولسنا ابن عناق لننجو.. نبحث بغريزة البقاء عن نجاة.!!

## رحيل 19

أنتقل بين أزمنة وخيالات ورؤى، أحصي أنفاساً، وخطى، أرقب أحلاماً، وانكسارات، وأفراح، أسمع ضحكات وأعيش بكاء، أصارع، تتكون مسارات وهم، وتيه، وعتم، وبريق، ينقلني في لحظات بين عوالم مختلفة مرهقاً من سكك متوازيات لا تبدأ ولا تنتهي ولا تلتقي، في مقارنات ظالمة، أهرب منها في وحدة باردة، تلح علي انقسامات، وشعور بالبرد والخذلان.

مقارنات القلق الأبدي، عليك الخلاص منها. توقف عن التنقل بين عوالم مختلفة، توقف عن اصطحاب عالم إلى عالم آخر، لا تخلط أزمنتها بينها. ليست دعوة لاصطفاء عالم محدد أو زمن، ولكن عليك التوقف عن الانزلاق في متاهات وعرة.

أنا لست صديقك الرائع يا صاحبي، لم يعد لي بيتاً هناك تطرق بابه في أي وقت، لم يعد لنا طريق نسير فيه معاً، يتناول هواؤه ضحكاتنا ويوزعها في أزقة شهدت ولادة ثملى لحياة مترعة بتقاطعات شكلت تاريخاً من حكايا صارت في زمن البرد أساطير نعيد ترتيبها لأنفسنا، لأرواحنا اللاهثة وراء سراب الماضي الذي يشارك إعادة تشكيل ذاته كلما رحلنا إليه. أتقلب بين أروقة المشاعر المتناقضة، زمناً من مرايا عجائبية وانعكاسات، أستكين وأنتفض، أهدأ وأثور، أقبل، أرفض، أسعد، أبتئس، لا أرسو، متأرجحاً في سفينة في بحر لا تبدو شواطئه، أنتقل من طفولة أو شباب إلى كهولة وانصرام الزمن، وأبدو مشرقاً في زمن رخي، وتنعكس رؤاي لحظة حزن فأبدو يائساً. أبدو سعيداً بما وصلت إليه، ثم تتناولني ذكريات وهواجس، تقلق طمأنينتي، وقناعة تشكلت في زاوية إنتقال.

تتقاذفني رياح بين الزهد والإسراف، وأتماسك.. أتماسك، أبدو رصيناً، أمتص معاركي إلى داخلي، بانتظار أن ترسو سفينة نوح ويندلح الطوفان...

ألقي على رصيف الوقت بقايا العمر في ارتجافات قلبي، وانكسار الروح، وانشاء الجسد، في ارتعاشات الحلم الأخيرة، وارتباك الرؤى، وانقسام الهوى وتبعثره في مشهد كئيب لانشطارات تبدأ، ويفوتني الموت لا أراه.

تعود إلي روحي، أصحو.. أصحو على صوت القطار يسير على سكته، يهدئ من روعه ويعلن عن وصوله إلى محطة ما - الباب يفتح على اليسار باتجاه حركة السير.

يبدأ القطار إقلاعاً جديداً، يشق طريقاً بين السهول والغابات، أرى مزارع خيول على الطريق، أشجاراً عارية عالية تتعانق في عريها في مشهد يدعوني لابتسامة، أفكر باحتفاظي بابتسامة، عليك أن لا توزع نفسك على أزمنة حبلى بالبكاء، عليك أن تلتقط اللحظة وتعيشها، أن تستمتع بصوت القطار الرتيب على سكة آمنة، بمشهد امرأة صبية تحمل كتاباً وتجلس في الجهة المقابلة تغوص في عالمه. وشاب يجلس في الكرسي إلى يسارك، يفتح جهازه المحمول، ورجل كهل يبدو على البعد يتصفح جريدة تارة ويوزع أطعمته على مرافقيه تارة أخرى.

على اليمين واليسار نمر بسهول ومزارع ودور زراعية، وحقول. يمر القطار على جسر فوق نهر عريض، ثمة قوارب سياحية، ونوارس تنقض فجأة على شكل سقوط مثير مباغت في لحظاته الأخيرة وتعود، كأنها تعود إلى الحياة...

يصبح المشهد رتيباً مرة أخرى بأشجاره وسهوله وأنهاره وجسوره، وصوت القطار، وأتوه من جديد في عالم يستحضر نفسه أمامي. تزورني أطيافهم مسرعة مع القطار - قطار لا يشبه قطار خالد - بين الحقول، أراهم وأبتسم، هذا إبراهيم ابني يداعبني، ويركض ثم يعود، تظهر عروقه الزرقاء في رقبته، وتبدو وجنتيه المليئتين بحمرة تظهر نقاء بشرته الرقيقة، ووجه يميل إلى الاستدارة يؤطره شعره السابل، وتتزل على جبينه خصلات رقيقة تكمل بقصة شعر متكاملة لوحة الوجه الملائكي، أراه مضيئاً ضاحكاً دائماً، حدثني هذا الصباح بلسانه الطري، وهو لا يتقن لفظ الحروف كلها، لا سيما حرف الراء، فتأتي مثل اللام، فأضحك ويضحك، يفرح قلبي، هي لحظاتنا الباسمة.

سلمى وفاتن تمتلئان حيوية، وترقبان بشغف انقضاء الزمن اللازم للقاء، ولا تنيان تعبران عن شوقهما بابتسامات عذبة تشرح صدري وتريح أساريري، وزوجتي حنان التي تشي بشوقها، وتعبها، وترقبها الدائم. تعبر أصواتنا وصورنا مساراتها الإلكترونية وتصبح الحياة أكثر إشراقاً. نستذكر أحياناً أحلامنا التي تغيرت!

حياتنا لم تعد كما كانت، ولن تعود مرة أخرى، تعيش عائلتنا التي تتشارك أحلامها البسيطة، تعيش أيام فراق وانتظار. لم تتعد أحلامنا حدود البساطة، أن يكبر أولادنا بيننا، أن نراهم يتراشقون بفرح بمياه المسبح الصغير، بينما نرتشف فنجان قهوة أو كوب شاي على التيراس المقابل.

كانت تسعدنا النباتات التي تنمو، والأشجار التي تتبرعم، حبات الفاكهة لا زالت معلقة هناك قناديل انتظار.

تغير الواقع، تغيرت أحلامنا.

أسعدتنا نوافير خمسة تنتظم على استقامة واحدة في بحرة مستطيلة تجمعها، تلقي مياهها على شكل كرات، وتعيد انبعاثاتها بصوت يداعب الصمت، لكل نافورة اسم أحدنا فهي تمثل أفراد أسرتنا الخمسة، وأنجزت بترتيب نافورتين عاليتين في الوسط تمثلان الأب والأم، وعلى جهة ما نافورة هي الأقصر تمثل إبراهيم، ومن الجهة الأخرى للوالدين ثمة نافورتين تمثلان سلمى وفاتن وبمقاسات متناسبة.

بحرة النوافير المستطيلة بإضاءتها الخافتة تفصل المسبح عن الأرض المزروعة بأشجار فاكهة مختلفة، وشجيرات أخرى.

كان اجتماعنا المسائي، اجتماع عودتنا جميعاً إلى البيت، إحساس بسلام لم يعد يتكرر.

عند اتصالي الصباحي كان إبراهيم يلعب في الفسحة الصغيرة أمام الباب في الطابق الثالث مع رفيقه أنس ابن جارنا في الشقة المقابلة، والدته مديرة مركز صحي، ووالده رئيس قسم جراحة في إحدى المشافي برتبة عسكرية.

جاء إبراهيم بعد أن تحدثت إلى أختيه، ضاحكاً كعادته، يكرر أسئلته، متى ستأتي لتأخذني؟ هل ستشتري لي دراجة؟... ثم يمنحني قبلة على الهواء وابتسامة ويعود للعب مع أنس أمام المدخل - المكان المفضل لكليهما -

سلمى وفاتن تشرقان وهما تحدثاني، تمتلئان أحلاماً وضحكات، أشعر بسعادة بالغة، أتمنى لو أضمهما، لو أضم إبراهيم، أحمله، لو أحمل فاتن، لو أحمل سلمى، لو أعانق حنان....

كم أنا بحاجة لهم.!

تتبدى فجأة في السهول البعيدة بين زهور صفراء لم تعد زهوراً برية صورة غريبة، يبدو فيها أغيد وزهرة خالتي قبل أن أصبح ابن أختها، يجتمعان في حقل خارج زمنيهما، يلهوان معاً، يلعبان، ثمة فراشات وشمس، يلتقيان في عالم يسخر من مفهوم الزمن ويجمع طفلين شهيدين في تغريبتين تفصلهما عشرات السنين زمناً، وبضعة هزائم، لا تجمعهما رابطة الدم الذي تركاه لعالم يسعى إلى نهايته.

ربما يجمعهما الموت المبكر غيلة، غادرت زهرة بعمر التاسعة أو العاشرة بعد أن انفجر قلبها رعباً من انفجارات قنابل الطائرات وصواريخها في عام النكبة، ودفنت جثتها في مكان لم يتسن لأحد زيارته ذات يوم، واغتيلت طفولة أغيد وهو في التاسعة أو العاشرة، أصابت رأسه شظية عبثية في زمن اختلاط الأوراق وتوزيع الدماء بغير تساو بين القبائل، لم يكن دمه كافياً لتوزيعه حصصاً فكانت دماء أخرى. حين تلقى حصته من الموت كان برفقة صاحبه يلعبان على سطح بيت صغير في مخيم اليرموك، تشاركا حصصاً متساوية، باغتهما الموت فماتا مبتسمين، لم يتمكن الموت من سرقة ابتسامة بقيت على شفاههما مشهداً يسخر من الموت.

لا زال من غير الممكن زيارة قبر أغيد، لكنه لا يكترث، وزهرة لا تكترث، ألقيا عبء جسديهما وراحا يلعبان في فضاء بلا قتل ولا دماء. كانت الحقول فسيحة، ويقفز قلبي إذ أرى على غفلة إبراهيم ابني يركض بإتجاه حقل الزهور الصفراء وأنتبه لنفسي وأنا أصدر صوتاً مكتوماً بينما يلتفت إلي الحضور حين خرجت من المشهد وأنا ألهث، ويكاد قلبي يتوقف.. يا للهاجس المرعب! آخذ نفساً..

يتابع القطار رحلته في الطريق للقاء صديقي كمال القادم من بلاد المال، بعد عمل دام إثني عشر عاماً. ربما علي التركيز في القراءة، لا زال قلبي يرتجف، وبعض لهاث أحاول التعامل معه. لا زال كتاب الخوارق الذي أقرأ فيه بين يدي، لم أقرأ منه أكثر من صفحة منذ بدأت الرحلة. وحين تراودني الصور أتوقف، أقرأ أسطراً، أعيد قراءتها مرات، وعند فقرة ما أتذكر عشبة السعد فأبتسم.

قالت جدتي لي يوم تخرجي: «هذه عشبة السعد، عثرت عليها قرب البحيرة، عشبة نادرة في هذه البلاد، أعطيك إياها هديتي لك في يوم تخرجك من الجامعة»، ثم أردفت إذ رأت ابتسامة تساؤل:

«نجا أبوك مرات عديدة بفضلها، كانت تحميه وتسعده، نجا مرة في معركة شارك فيها رجال وشباب القرية ونساؤها، والقرى المجاورة، كانت معركة قاسية مع الإنجليز أيام الثورة، وكان أبوك شاباً يافعاً، بقي القتال مستمراً منذ شروق الشمس وربما قبل ذلك بقليل وحتى بعد غروبها، كانت معركة أم الدرج التي دشنت فيها مقبرة الشهداء الجديدة» قال والدي: «حصلت المعركة عام 1938 وقاتلت جميع القرى المحيطة بأم الدرج قتالاً شرساً، وانسحبت القوات البريطانية التي زاد عددها عن ثلاثة آلاف جندي تدعمهم ثلاث عشرة طائرة حربية، أسقط الثوار إحداها بأسلحتهم الخفيفة وهبطت في مرج إبن عامر واستشهد في المعركة ما يزيد عن ست وعشرين مقاتلاً من الثوار، وقتل أضعاف هذا العدد من الإنجليز وانسحبوا في آخر النهار».

وقلت بابتسامة ساذجة: «وعشبة السعد» يكاد يبتسم والدي وهو يقول: «احتفظ بها» قالت جدتي إن عشبة السعد هي من

ساعدت والدي على النجاة، وقال والدي أنه نجا من قصف الطيران بأعجوبة، لكنه لم يعز ذلك إلى تلك العشبة الساحرة.

أبقيت عشبة جدتي معي أتفاءل بها عمراً مديداً، وأذكر جدتي وأنا أتحسس عشبتها، وأبتسم لذكراها، لروحها المرحة، وجلساتها الضاحكة دون أن تكترث لزمن حاول استلابها ابتسامتها ولم يقو، ابتسامتها المنبعثة من قلب محب للحياة، واعتصرت بيديها زمنها المحدد حتى اللحظة الأخيرة، رقصت بيننا، أمام شجيراتها المزروعة في أوعية التنك الرخيص، استعاضت بها عن أزهار حديقتها في البلاد، غنت وزغردت، وفي ليالي شتائية باحت بأسرار حبها لجدي أمام أحفادها تودعنا سراً لم يعد لإخفائه أية أهمية.

تخليت عن عشبة جدتي بعد الأزمة خشية تفسير خاطئ في ظروف استثنائية، وتركتها عند أسرتي عندما غادرت دمشق.

يتوقف القطار مرة أخرى، تتبادل المحطات والقطارات ناسها، فينزلون ويصعدون، وينطلق مرة أخرى. أعود إلى كتابي، أقرأ بضعة أسطر ويفاجئني إبراهيم أخي بنظراته الحزينة، ولحيته السوداء وشاربيه، وطاقيته، محاولاً التشبه بتشي غيفارا، صورته الأخيرة التي تركها لنا قبل أن يستشهد في بيروت عام 1982 تكمل مع أشرطة الكاسيت العديدة صورة الثائر المثالي الذي كان يشحن نفسه بأغاني الثورة.

يوم ماتت وصال لم نسمع أصواتاً، تسللت دون أن يشعر أحد، حتى والديها.

حين تقدم إبراهيم لخطبتها، طلب أهلها مهلة للتفكير والمشورة، عندما أعلن النفير العام لأبناء الثورة الفلسطينية، التحق

بصفوف المقاتلين، ربطت إبراهيم بوصال قصة حب غامضة لا نعرف عنها شيئاً، وعقوبة على الحب السري فقد رفض طلب إبراهيم الغائب، وقرر أبوها السفر بها لتزويجها من ابن عمها الذي تم رفضه العام الماضي لعدم أهليته للزواج، أخبرت الأم ابنتها بضرورة استعدادها للسفر صباح الغد، لم تقل شيئاً، نام الجميع، وفي الصباح لم تصح وصال، فارقت الحياة - ربما عمداً.

تركت لهم رحلتهم.

صرخت الأم وبكى الأب، ورحلت العائلة بعدها من الحارة...

في تلك الليلة، ليلة موت وصال، وصلنا خبر استشهاد إبراهيم وعلقنا على الحائط صورته ذات العينين الحزينتين، شبيه غيفارا، وقبل خروجنا من مخيم اليرموك أخذت معي صورته وصورة أبي، بعد أن رأيت أمي تطيل النظر إليهما بالتناوب.

يعلن القطار عن وصول الرحلة خلال دقائق قليلة، ألملم أشيائي وأنزل في المحطة.

كان كمال يبحث في وجوه المارة، لمحني ولمحته، التقينا...

مررنا في البدء بمنطقة المشاة، وانتقى كافتيريا - مخبز، جلسنا فيها، وتبادلنا الترحيب والسلام، وابتسامات وأسئلة، كيف أنت؟ ماذا فعلت؟ ماذا تفعل؟ لماذا.... تتدحرج الأسئلة دفعة واحدة دون انتظار الإجابات. كان كمال شريكاً لي ذات يوم في مشروع فاشل، جمعنا هذا الفشل، تخلصنا منه وبقينا أصدقاء.

حدثني كمال عن قدومه، وأوضح هواجسه بإمكانية طرده بعد هذا العمر دون أن يجد وجهة تستقبله، ولذلك كان عليه اختصار الوقت والبحث عن مكان في زخم الهجرة إلى أوروبا.

وصل مع زوجته وابنتيه.

حدثني عن مشاكله التي ابتدأت بعد وصوله بقليل، طلبت زوجته الطلاق، منحها الإنفصال، وأخذت رعاية ابنتيه مع السماح له بمشاهدتهما لمدة يوم كل أسبوعين.

لم يتحدث عن الأسباب، تحدث عن ألمه، وربما كان يشعر بنوع من الندم على مجيئه، قال إنه خسر عائلته التي أحب العيش ضمنها، ولا زال يحاول إقناع زوجته بالعودة عن قرارها.

وعندما سألته عن علاقتهما السابقة، قال إنه يحبها كما كان دائماً يحبها، وكانت تحبه وأنه لا يعرف لماذا يحصل هذا «كان لدينا مشاكلنا الصغيرة مثل كل المتزوجين، ولم أفكر يوماً بأننا قد ننفصل»

يسكن كمال وحده في بيت هو غرفة وحمام وركن طبخ، يفي بالسكن والإحساس بالوحدة والقهر والبرد.

أمضينا معاً وقتاً نستذكر مشاويرنا القديمة في الحواري التي تعرفنا ونعرفها، وأصدقاء غادروا إلى عوالم مجهولة، وإلى العالم الآخر، هيثم الذي مات جوعاً والذي كان يضحك عالياً وهو يتفوق علينا بألعاب الطفولة، وخالد المجنون الذي كان يضحكنا والذي كان دائم البحث عن سيجارة فيأخذها بعد أن يروي قصة حبه لابنة عمه صباح، وعوني الذي كان يحفظ كثيراً من شعر الغزل، ويلقي به أمام ثانوية البنات، أوقات تجمع الصبايا، يتضاحكن فينتشي ضاحكاً وهو يحمل سيجارته وكوب الشاي ويذرع المكان جيئة وذهاباً بخطوات مبالغ في إتساعها، وفي غياب الصبايا كان دائم البحث عن مجلات لنساء جميلات، كان عوني قد فقد توازنه بيننا، وبدر الذي يلبس ثوب رجل مهم، يرتدي نظارات شمسية، ويلتفت

حواليه خائفاً من إلقاء القبض عليه مرة أخرى، كان صديق عوني في وقت ما، قبل أن يصلا إلى ما وصلا إليه..

توقفنا عند من فقدوا أعمارهم، أو أولادهم، أو فقدوا عقولهم، كان الفقدان عنوان جلسة بعد زمن غياب دون اتفاق.

تملأ الأسئلة فراغات الصمت المفاجئ، تمنى كمال لو أنه لم يأت، لو أنه ما عرف بعالم آخر، تلاشى الانبهار الذي أصابه وأسرته وخرجوا من حالة الذهول التي اعترتهم عند الوصول وحصل الفراق، وحل محل الذهول أمام غرابة البلاد وعظمتها ذهول الشقاق المفاجئ وكراهية مباغتة، ربما كانت تختفي تحت أغطية الحاجة والارتباط الاقتصادي وأغطية الحماية الاجتماعية لمجتمع كان موجوداً قبل أن تمزقه الحروب والولاءات.

تحدثنا عن مهنا صديقنا المشترك، الذي كان لديه شركة صغيرة في بلاد المال، وأعطي مهلة يومين للتصفية والمغادرة، عمل توكيلاً لمحام هناك وعاد إلى بلاد تتنازعها أشكال الموت والدمار، ولم يعد يسمع عنه شيئاً - انقطعت أخباره.

اتفقنا على لقاءات أخرى، وتمنى كل منا للآخر ما يلزم ليبتسم.

أعود إلى المحطة يرافقني كمال، يلوح لي إذ وصل قطاري، يبتلعني القطار وأرحل عائداً إلى زاويتي في آخر الكون.

أفتح كتابي، أقرأ صفحة جديدة، أحس بدفء الجو في الداخل، بعد أن حملت برداً عابثاً من محطة لا زالت غريبة وبعض ريح تحمل برداً لاسعاً لامستني، لامست وجنتي، لا تشبه رياحاً أعرفها. يمضي القطار وتصبح حركاته رتيبة مرة أخرى، جميلة هذه الأشجار والغابات التي لاتشبهني فأنا هنا بلا جذور..

أكاد لا أعرف نفسي، بقايا دون عليها عنوان، تشبهني عندما كنت أنا.. أنا.! أحب البيوت ذات الأسقف القرميدية الحمراء المائلة التي كنت أرسمها وأنا طفل مثل باقي الأطفال هناك.

أحب الشجر العاري الذي لا يشبه عريه بؤسنا في زمن الخراب.

أنا غريب هنا، أرتدي أوشحة الصمت الحزينة، أتلقى ابتسامات تائهة لا تصيب قلبي، وأعوي مثل ذئب تاه بعيداً عن القطيع.

يصل القطار إلى محطة صارت مدينتها الصغيرة وطناً صغيراً، أشعر بالراحة وقد وصلت، بالتأكيد لا أحد في الانتظار سوى البرد وبعض ريح، وظلمة تبددها إضاءات المحطة، وأعمدة الإضاءة في الشوارع، أسير على مهل، أحدق بالأشياء بالشوارع والأرصفة، بالمحلات، بالأشجار، بالكنيسة، بكل ما يصادفني، أتأكد أن لا شيء تغير في هذه المدينة منذ غادرت منذ بضع ساعات، أو لعلني ألقي عليها تحيتي، وشوقاً بدأ ينتظم داخلي كلما ابتعدت عنها. أشعر بالهدوء وبعض سلام وأصل إلى بيتنا القصي قرب حدود الغابة، أفتح الباب وأشعر بارتياح العائد إلى وطن...

يجلس خالد وحسن يشربان الشاي ويتبادلان حديثاً قرب زاويتنا البللورية. وضعت أشيائي وارتديت ثياب النوم، مارست طقوس النظافة المسائية وأعددت كوباً من الشاي وانضممت إلى أصدقائي.

كانت الساعة حوالي التاسعة والنصف.

تناولت سيجارة، قدمت سيجارة إلى خالد الذي أخذها مع ابتسامة خفيفة، وبقي حسن بدون تدخين، لكنه لا يكترث برائحة الدخان، وأحياناً يعبر عن متعة تائهة برائحة تبغ أخاذة.

تناولنا حديثاً عن رحلتي، وعن كمال، وعن الأسر التي تفككت، وحالات الطلاق العديدة بين عائلات اللاجئين، تناولنا كالعادة أخبار الموت والقتل والهرب والجوع والبؤس والتشرد.. عن عائلات أغلق القدر طاقاته السرية عليهم، لم يصلوا إلى مكان، ابتلعتهم أزمنة الموت الرمادية.

عن حبوب خالد التي استبدلها الدكتور بحبوب أكثر فعالية وبجرعة أكبر، يتناولها قبل النوم مباشرة فيغفو بسلام بلا صراخ أو عويل أو بكاء، أصبح أكثر هدوءاً.

تفطن إلى حبوبه، أخرجها من جيبه، تناول حبتين دفعة واحدة، ودعنا بابتسامة حزينة، وغط في نوم عميق.

بقينا أنا وحسن، لن يأت سعد الليلة - قال حسن أمين سره.

تناولنا قصصا أخرى، حدثني عن أحلامه، عن شغفه بالقطارات، عن رغبته في التدرب لقيادة قطار، كان ينظر إلى سائقي القطارات بحب واحترام عظيمين، ويغبطهم على ما هم فيه، يقول: «كم هو جميل أن أصبح قائد قطار، إحساس رائع». كانت لعبته المفضلة في طفولته ويذكر القطار الذي اشترته له جدته، كان قطاراً كبيراً، يعيد تركيب سكته بأشكال مختلفة، دائرية، إهليلجية، ومربعة، ويضع جسوره، وإشارات مروره، ويتركه يمشي طويلاً، يصفر، فيضحك، ويدعو رفاقه لمشاهدة قطاره، لعبته التي جمعها في علبتها وأبقاها على الخزانة، تركها هناك.

سيجعل من العمل كسائق قطار هدفه، سيمضي في طرق جميلة، سيقطع الوقت بما يحب، سيتابع ممارسة الرياضة، كرة القدم، والجري، سيحصل على الجنسية، ويتزوج، سيجد امرأة

تشبه سمية التي كانت شبان الحارات تحج إليها، وحتى لو لم تكن تشبهها سيتزوج. المهم أن يجد امرأة يحبها وتحبه، لتكن من هنا، من هناك.. قلبه منفتح للحياة، سيتزوج وينجب أطفالاً يعود إليهم في بيت دافئ بعد رحلات القطار اليومية.

أخبرت حسن بحقيقة أبي شوكت وعمالة أبيه للإنجليز، وأخبرته بما تحدث به أيمن شيخ شهاب أحد مرافقي أبي شوكت قبل الاستغناء عن خدماته. تحدث أيمن كيف قام أبو شوكت قبل الأزمة بسنوات باستخدام نفوذه لاسترداد ابنه طوطح الذي انضم إلى مجموعات متطرفة، وأن طوطح يعود جزء من علاقاته الحالية إلى تلك الحقبة، وتحدث كيف استطاع أبو شوكت بمكره بإيقاع بعض أفراد المجموعة وصار هو وابنه أبطالاً، وأعاد الأب ولده إلى موقعه، وصار طوطح في زمن الحرب قائداً ميدانياً، تاجر حروب، طور شكله ولباسه ليلائم المرحلة، أضاف بعض النياشين إلى بدلته العسكرية، وزاد عدد الحراس، والنظارات السوداء، والأسلحة الأوتوماتيكية، وسيارات رباعية الدفع، وأجهزة إتصالات حديثة.

قال حسن أنه لن يرجع إلى أجواء طوطح المقيتة، طوطح الذي حصل على إعجابات وتعليقات كثيرة تجاوزت الألف على منشور في الفيسبوك يقول فيه (هكذا هي) ومنشور آخر يقول فيه (ص)، تصور حجم النفاق يا أستاذ.

تذكر حسن أخوه غير الشقيق التي انقطعت أخباره، ترحم على جدته، وتحدث عن سهراته مع سعد، سهراته التي لن يقلع عنها، إنه يحبها، يحب الموسيقى والرقص، يحب الحياة، سيأخذها كما هي،

سيقبلها، يمتصها كما هي.. سيذهب إلى النوادي ليالي السبت، ويسوق القطار في النهارات والليالي، في كل الفصول والأزمنة، وعلى جميع الخطوط، البلاد هنا جميلة، يشعر بالطيران، بالتحليق، بجمال الوقت الذي يعيشه، والوقت القادم، لتتزوج أخته من طوطح وتعيش هواءه الفاسد، هذا خيارها، لا يمكنه فعل شيء، ليعش كل واحد كما يريد، يبتسم حسن، يضحك، ينفعل، يغضب لحظات ويعود، يطير في فضاء حر خلقه لنفسه وارتضاه في مصالحة موفقة مع الذات.

صحوت ليلاً على قصة إمرأة ذبحوا ولديها أمامها، يتدخل خيالي ويجد ابنتها مختبئة وقت الذبح تنظر من شق ما وترى ما جرى.

كان النصل حاداً والرجال متوحشون لينتهي هدم صروحها التي بنتها تلك المرأة في سنين طوال.

تصرخ بعد أن ذبحوا ابنها الأول، وسالت دماؤه غزيرة في أرض الصالون العاري، تصرخ اتركوا لي واحداً..

لا صوت يضاهي عذابها وانفجار الوجع فيها، كانت ترجو وتتوسل، وبعد أن ذبحوا الثاني، تركوها فركضت، حيث الدماء، وبدا أنها تسبح في الدماء، تقول البنت أن أمها كانت تحاول ألا تختلط الدماء، كانت تحاول إعادة الرؤوس إلى مكانها.. وتدور تبحث في البيت عن علبة الحلاوة الكبيرة، تصرخ بحثاً عنها، بينما يضحك الأوغاد المتوحشون في جلجلة شيطانية، يتركون آثار حقد وكراهية وعِتْه مجنون ويغادرون. في علبة الحلاوة وضعت أمي خيطانها وإبر الخياطة، لم تجدها، فخرجت إلى الشوارع.

قالوا سبحت في دم أبنائها، ربما كانت تضم بقاياهم، أو كانت تعيد للجثة دمها، علها تصحو بعد أن تخيط الرأس على الجسد، بعد أن أخذ شياطين الدم حصتهم وخرجوا..

لا زالت تروح وتجيء في شوارع مدينة قتلت أبناءها.

أبكي.. أبكي في سريري تحت الغطاء، أشعر بالسرير يهتز، أقوم أغسل وجهي من بكاء من قصة رواها حسن قبل أن ينام وقبل أن يأخذ خالد حبوبه.

آخذ سيجارة، أحاول أن أتخلص من المشاهد والأفكار.. يبتعد النوم، أدور في مكاني وآخذ سيجاة أخرى...

أعود إلى السرير وقد ثقلت أجفاني..

انام، أرى جثثاً عارية كثيرة.. كثيرة..

أكوام، بلا رؤوس، في جهة أخرى أكوام الرؤوس لهذه الجثث.

يطل من أعلى المكان المهجور إله صغير، شرير، يعطيني فرصة لإحيائهم.. أمسك رأساً أضعه على جثة، ينفلت من يدي، لا يناسب الجثة - ليس رأسها - أشعر بقلق العاجز، أتناول رؤوساً كثيرة لا تتناسب مع الأجساد التي أختارها لها، أمسك رأساً ألامس به جسداً على عجل في مواقع الفصل، يقف مسرعاً، هذا الرأس لهذا الجسد، لكن الرأس يركب بالاتجاه المعاكس لحركة الجسد! يضحك الإله الشرير وتظهر قباحته.. وأصرخ.. أصرخ..

أفتح عيني على حسن يوقظني، ويحضر كوب ماء.. أفقت، استغرقت لحظات لأدرك من جديد أنني هنا.. لست هناك، كان

الحلم قوياً، أخذني كلية.. وأخذت وقتاً لأدرك أنني في هذا المكان، تلفت في البدء كأني فاقد ذاكرته، وحاولت ترتيب الأشياء كما كانت في رأسي بعد إحساسي بتداخل الاتجاهات، وأشرب الماء على دفعات..

وأبقى طوال اليوم أهرب من حلم كابوس لم يراودني منذ وقت طويل.

## رحيل 20

دع تدفق الذاكرة ينسكب صوراً أمامك، حرضها - إذا أردت - بروائح القهوة، وروائح الفاكهة الطازجة، ورائحة التراب عند المطر، وأخشاب الغابة، ورائحة الحشيش عند الجز - يمكنك فعل ذلك - ويمكنك التحكم بهذا السيل. ليكن سيلاً دافقاً، جارفاً لكل شيء.

إلى أن يحين الموت: فاجئ نفسك بالحياة.

عليك أن تطلق خيالك، أن تستعين به إذا أعجزك الواقع، تساعدك حواسك، اختر اللحظة المناسبة لإقحام الحاسة المناسبة بنسبة المزج المناسبة لتجعل الحدث رائعاً - كما يجب أن يكون - يمكنك أن تغمض، وأن تسد أذنيك، وتمضي وراء رائحة ما، أو تفتح عينيك على وسعهما لتشهد صورة ما، أو تصيخ السمع، وتتلمس طريقاً، أن تتذوق طعماً، أن تختار التوافيق اللازمة لتحصل على متعتك.

دع حواسك توقد مخيلتك، تلهبها، اجعل من صوت أو رائحة أو مشهد أو مذاق أو ملمس وقوداً لمخيلة تجوب فضاءات بلا حدود، وتعيد إليك نشوات تائهة، وتمنح روحك انعتاقها. لا تنس قدرتك على حياة رائعة، جميلة !.

رشفات متتالية من قهوة مرة المذاق، تلون ذاكرتي بأحداث مضت. ثمة من يخرج من حياتي، وثمة من يدخلها، ولكنني سآخذ كل لحظة في هذا العمر، وسأسعد بها، سأتألم يوماً، وقد أبكي، وأضحك في وقت آخر، كل أمر يوصلك إلى ما يليه، حتى تصل إلى نهايتك، كدس الزمن في خلاياك، دعه يظهر في عينيك وعلى جلدك، واملأ نومك بالحلم، اقبض على الحلم، داعبه، حركه، أوقفه، استيقظ إذا رأيت ذلك مناسباً، أمسك دفة الأمور وخذ الفرح إليك.

عليك أن تضخ الحياة في الأجواء، أن تمتلئ بالطاقة وتوزعها، وتعيد الشحن والامتلاء والتوزيع، ادفع بها في كل الإتجاهات، وعلى مدار الأزمنة للآخرين، للطبيعة، باتجاه الفعل. أسلس لروحك القياد، وكن عاشقاً كبيراً للحياة، واترك مساً من الفرح يعتريك، واسمح لدغدغة أن تثير شعورك، واجعل من الأحداث سيمفونية حب للحياة وغناء.

اخلع خوفك، ألقه جانباً، انتصر لنفسك.

عندما يأتي الموت ليأخذني، يجب ألا يأخذ شيئاً ذا قيمة، يجب أن أكون قد استنفذت جسدي حتى النفس الأخير، سأكون قد استهلكت حواسي كلها، ربما أترك أسناني للموت، ماذا سيفعل بها؟ سأسخر منه، سأعيش طويلاً، لن أترك له شيئاً، ربما بقايا الجلد والعظم، ستكون روحي مثقلة بهما، يجب ألا أمنح الموت أكثر، لا تمنح الموت جسداً كاملاً، لا تقدم قرابين لآلهة لا يهمها ما تقدمه، أي جحود بنفسك إذا فعلت هذا؟. علينا أن نمتص اللحظة، نتلمس الجمال والمتعة، واللذة.. لا تتوقف.. استمر.. لا تتوقف.

أعدت ترتيب ما يقوله سعد، ما أتحفنا به في الأمس.

يقول سعد ما يقوله وكأنه يعيش راقصاً، متحرراً من أثقال الفكر والتأمل، هي حياته، طريقته، في التعاطي بقدرة استثنائية على التعامل مع العالم، مع المحيط، وعلاقته بداخله، يعيش طرباً، يكفيه أنه على قيد الحياة، ليرقص، ليفرح، لو أستطيع أن أفكر مثله، لو أعيش مثله، وأغبط حسن شبيهه في زوايا كثيرة، الذي يرافقه، وصار يفكر ويعيش أقرب ما يكون إلى طريقته.

هناك زوايا لا يظهر فيها سعد، لا تراه، يجعل من نفسه خفياً، لكنه يحافظ على الصورة التي يريدك أن تراه فيها، يتمتع بذكاء حاد، فطري ومكتسب، يمسك بخيوط خفية للعبته مع الكون.

تشعر بأن حياته تنساب بين يديه بلا عوائق، أو منغصات، يتألق في كل جلسة بطريقة محببة، يخلف وراءه عطراً وابتسامات.

كان صباحاً رائعاً، أفقت على أحلام هادئة، تناولت قهوتي الصباحية، وسيجارة، تحدثت إلى عائلتي، سمعت أصواتهم، ضحكاتهم، وانتشيت.

قررت الخروج، رغم أني أرى الثلج ينتشر على الأرض بهدوء، بمشهد مهيب، يدعو للسكينة والهدوء، يحول المساحات إلى غطاء أبيض، يلتهم معالم الأرض ويوحي كأني أرى المكان لأول مرة. لا زال الثلج مستمراً في الهطول على مهل.

أرتدي ملابسي، وأراقب عبث الطبيعة الساحر، آخذ مظلتي – العكاز، وألبس حذاء شتوياً عالياً، يحتوي على فراء يبعث الدفء ويشد على قدمي المسلحتين بجوارب سميكة.

اطمأننت إلى الإجراءات التي اتبعتها، خرجت إلى أشجاري مبتسماً، ومضيت باتجاه الغابة.. كل شيء يدعو إلى التفاؤل، صمت يبعث على السكينة والهدوء والنشوة.

في طريق الغابة المسحور آثار أقدام على الثلج فوق الطبقة الرقيقة المتشكلة، أقدام آدمية، وأقدام كلاب ساقها أصحابها لمشوارها الصباحي، تعبر هذه المخلوقات عن سعادتها فتهز ذيلها، يقول سعد: «مسكين الإنسان في الشرق البائس، لا يستطيع أن يهز

ذيله لأنه ليس سعيداً، ولأنه لا ذيل له»، أبتسم وأنا أذكر كيف يلعب بالكلمات.

أتابع سيري في طريق عبثت في ثلجه الأقدام، وأشعر بارتياح لوجود من يشاركني هذا المناخ، البياض الناصع، والصمت الذي أحب. أرفع قدمي ببطء وأنا أنقلها إلى الأمام، أفتح عيني على وسعهما، أصيخ السمع.

على الكراسي الخشبية في الطريق تجمعت طبقة ثلج رقيقة، وطبقة بكر غير مشوهة بالآثار على المرج المنحدر إلى الأسفل، ينتهي بأشجار عارية تراكم على أغصانها كميات ثلج قليلة. تمر نسمة باردة تداعب وجهي، وأشعر ببعض البرد الممتع، أدور دورتي، وأعود إلى زاويتي البللورية، حيث صحا الآخرون خالد وحسن وسعد، وانتظموا في حلقة حول الطاولة، يتناولون طعام الإفطار.

أعددت كوباً من الشاي وانضممت إلى الحلقة، كانت تعلو أصوات سعد وحسن بينما كان خالد على وشك ابتسامة ما.

تحدث سعد عن كراهيته دروس الكيمياء:

«لم أستطع أن أطابق بين التجارب التي أجراها الأستاذ والمعادلات التي كتبها على اللوح، معادلات تشبه القطارات، تخرج أبخرة حمراء، أو زرقاء، تفور المواد، يذوب المعدن، روائح كريهة ثم معادلات بأحرف لاتينية وأرقام، لم أحب ذلك أبداً! كيف يفهموها؟. صارت بعض المعادلات لاحقاً تشبه محطات قطارات كبيرة مكتظة في بلاد الغرب، لم أفهم الكيمياء، أحببت الفيزياء المادية، لم أحب فيزياء الكهرباء، كانت هذه مشكلة أخرى...».

ضحك حسن على أسلوب سعد وهو يستذكر أيام الدراسة:

«وكيف كنت تنجح؟». يبتسم سعد عائداً إلى تاريخ مضى:

- «لن تصدق كيف كنت أحفظ المعادلات، كنت أستعين بأسماء النساء، وكان ذلك ينجح دائماً، اضطررت لإضافة أسماء وشخصيات غير موجودة فعلاً في حياتي، ما يزعجني الآن هو أن تذكر اسم امرأة يرتبط مباشرة بمعادلة كيميائية يشوش علي متعة تلقي وقع الإسم، تصور أن يرتبط اسم امرأة بحمض الكبريت، أو رابع أوكسيد الفاناديوم». ضحكنا وضحك حسن حتى كاد يغمى عليه، بينما استمر يضرب فخذه الأيمن بيده التي يحمل بها قطعة خبز كان على وشك التهامها، إلى أن توقفت نوبة الضحك، وقال: «كيفما نحدثك تظهر النساء في حياتك!» ويرد سعد: «النساء هن الحياة، لا أعرف نفسي بدون حب النساء، لقد ظللت أبكي في اليوم الأول في الروضة، لأنهم وضعوني في صف لا تشرف عليه الآنسة إبتسام، كانت امرأة جميلة، وأردت البقاء في صفها، وحدثت أمي التي نقلتني إلى صفها دون تردد».

تناول سعد رشفة من كوب الشاي ووجه سؤاله إلى حسن: «وأنت، أين النساء في حياتك».

يبتسم حسن ويعيد قصة سمعتها منه أكثر من مرة، وراح يرويها مرة أخرى أمام الجميع بصوت أجش مرتفع، ترافق حديثه ابتسامات بألوان مختلفة: «كانت الحارة المجاورة لحارتنا تسمى على إسم امرأة، أجمل نساء الأرض، لا أبالغ، اسم الحارة معروف باسمها (سمية)» يقاطعه سعد: «هذا كلام جميل، يمكن سماعه، أكمل يا صاحبي، أكمل». يتابع حسن: «من يعرف سمية يصعب عليه أن يتزوج، كنا أنا

حسن وفايز وموسى رفيقي الدائمين في تلك الفترة وغيرهم كثير نذرع الشارع أمام بيتها جيئة وذهاباً، وعندما تكون في المدرسة نتحرك باتجاه المدرسة، كان عذاباً جميلاً متابعتها والبحث عنها، ورؤيتها متعة لا تقاوم. كان موسى أشدنا وسامة، أطول، بصدر عريض، وعضلات مفتولة، وأناقة لا يضاهيه فيها أحد، ومثابرة غير عادية، يخرج خلفها صباحاً إلى المدرسة، يشعل سجائره على الطريق باستعراض ملفت، ينفخ باتجاهها، يتأخر عن المدرسة، وتتم معاقبته بالزحف على الأرضية الإسفلتية، ويعود سعيداً إلينا، تضحك عيناه، ويحدثنا عن انتصاراته: التفتت إلي، ابتسمت، ضحكت، قلت، قالت، قدمت لها وردة، أخذتها، رمتها، غضبت، كل موقف صغير يصنع منه حكاية، نتحلق حوله، ويزداد صدره إتساعاً وهو يشعر بفخر إنجازاته المتلاحقة، خرجا سوية عدة مرات إلى أمكنة مجهولة وعاشا قصة قصيرة، توقف موسى عن حكاية مسلسلها، صار أكثر ابتعاداً إلى أن تزوجت، لكنه قال مرة أنها أشارت إليه لو كان اسمه أكثر حداثة، فأقسم لها أن يغير اسمه إذا وافقت على الزواج منه. رفضت دائماً دعواتي للخروج معي. كلنا كنا نحب نفس المرأة وعندما يصدف أن تمر أمامنا يصبح كل واحد فينا مثل ذكر الحمام. كنا نحادثها وتحادثنا، تقف مع أي كان بشخصيتها القوية، أحياناً نقف إليها أمام بيتها، صرنا مع الوقت حالة، وكانت ترانا جزءاً من عائلة كبيرة، نحمل إليها مواضيعنا ونكاتنا ونتحلى بأخلاق رفيعة أمامها، ورقي مصطنع، نتوقف عن الإساءات والكلمات غير اللائقة في حضرتها، ونخصها بأسرارنا، وتسمع، كأن تقديم الأسرار يشبه تقديم القرابين للآلهة، وكانت سعيدة بما يجري، وتعتذر حين تضيق بالقرابين، أو بالحكايا والنكات، وتدخل وتغلق الباب..

كنت أرجع على عجل، أستلقي و أغلق عيني على صورتها.

حين علمنا أن سمية ستشارك في رحلة مع أقرانها في المدرسة، قمنا مجموعة من المراهقين، منهم موسى وفايز باستئجار ميكروباص في رحلة موازية برنامجها متابعة رحلة البنات.

تابعنا الرحلة طوال الطريق ووقفنا في كل المحطات، كان يوماً رائعاً رغم وجود بعض المشاكل. التقطنا صوراً، تعمدنا أن تكون سمية فيها ولم تكن تمانع، لم يكن أحد يجهل هدف الرحلة وخطتها، قدمنا لها ولزميلاتها ضيافتنا، وحصلنا على بعض الابتسامات.

عدنا في نهاية اليوم، وحين وصل الجميع لم نغادر حتى دخلت سمية بيتها منتشية بهذا العدد من المعجبين، تضحك وتلوح لنا وتغيب خلف باب البيت، وغادرنا جميعاً بفرح المراهقين، نقلب أحلام اليقظة في يوم ربيعي مجنون».

ويسأل سعد: «ثم من تزوجت حبيبة الجماهير؟» يحك حسن رقبته بكامل كف يده اليسرى: «تزوجت رجل أعمال كبير وسافرت خارج البلد».

قال سعد: «القصة جميلة يا صاحبي، لكنك كنت كومبارس، إنها قصة سمية، ليست قصتك» يرتبك حسن قليلاً ويضحك غير آبه، هي قصته كما يراها. تداخلت التعليقات وتشعبت، وتحدثنا في موضوعات مختلفة في أجواء من الضحك والمرح، وانصرف سعد إلى شأنه، وخرج حسن خلفه ليتابع مع إحدى الجهات التي تساعده للبحث عن إمكانية اتباع دورة تعليمية - تدريبية تستغرق فترة طويلة في مجال قيادة القطارات.

بينما خرج خالد بحثاً عن نشوة أو سلوى يلتقطها في هذا الجو البارد. وبقيت وحيداً.

قلبت في جهازي المحمول، تفقدت الرسائل، وتصفحت حسابي، وبعض المواقع، ثم فتحت رواية أتابع قراءتها منذ الأمس، أعيد قراءتها للمرة الثانية، كأني أعيد قراءة التاريخ والمستقبل!.

تحكي الرواية عن توجه العالم إلى فقدان الخصوصية، ونهاية الفرد كفرد، وتبشر بعهد عبودية جديد يعتمد على التكنولوجيا الحديثة، وربط الجميع فوق كوكب الأرض بمركز بيانات موحد، يختفي النقد، ويتم التعامل بأرقام، مجتمع بتقنيات فائقة الحداثة، أعيدت صياغة العالم ومراكزه وفعالياته على أساس ملاءمتها لهذه التقنيات، ويعمل كل ذلك في إطار مفهوم للخدمة الذاتية تحت السيطرة، تستخدم شريحة دائمة مربوطة إليك، هي ليست شريحة بالمعنى الحالي، لكن عملها يشبه عمل الشريحة، وهي قطعة صغيرة جداً كحبة خردل، تثبت على قلب الطفل عند ولادته، في مكان لا يمكن نزعها عنه، وتتماهى مع أنسجة القلب، وتصبح غير قابلة للكشف أو التأثير عليها بالطرق التقليدية، يتم تثبيتها بتقنية تشبه الجراحة التنظيرية بعملية سريعة لا تستغرق أكثر من خمس دقائق. هي قطعة مرنة تتمدد مع حركة النمو الطبيعي للقلب، لا يشعر بها المرء، تتضمن هذه الخردلة هوية الشخص، وحسابه البنكي، ورقمه التقاعدي، وكل ما يلزم طيلة حياته، يدرس بموجبها، يعمل، يتحرك، يتنقل، يودع في البنك أو يحول بموجبها، تقدم شكوى وتحاكم بموجبها، يتم قراءتها والإضافة عليها حسب الحال المطلوب، تذهب إلى السجن لقضاء عقوبة بنفسك، لأن الطرقات ستغلق في وجهك،

ستمنعك وسائل المواصلات من دخولها، ستعلن عن وجود شخص غير مرغوب فيه وتصبح العقوبة أشد، سيقفل حسابك البنكي، كل مناحي الحياة المبرمجة بما يتناسب مع الخردلة ستشير إليك، لا يمكنك الهرب، أنت محدد الموقع باستمرار وتحت الرقابة. إنها كل ما يلزمك في حياتك، هي ضمانك، هي سجنك الدائم، سجلك، تاريخك ومستقبلك، جغرافيتك، وطنك.

تختفي الدول ويصبح العالم دولة واحدة، وطناً للجميع، له عدالته، لا حاجة للحروب، يختفي السياسيون في مشهد لافت.

رواية مثيرة استغرقت بقراءتها ودخلت أجواءها، وشعرت بالتعب وبرغبة شديدة للعيش في العصر الحجري...

توقفت عن القراءة أرتاح قليلاً من أجوائها المرعبة.

عاد خالد ولم أنتبه إلى وجوده، تجاوزت الساعة الرابعة وأسمع جرس الباب يرن.

كان يقف بالباب رجل بعينين واسعتين جاحظتين قليلاً، تميل بشرته إلى سمرة لامعة، يعلو عينيه حاجبين كثيفين، يتوسط الوجه فم واسع عريض بشفاه تميل إلى الغلظة، وجنتين منتفختين، وقد أطلق لحية شذبها بعناية رجل دين، وحف الشاربين، بينما بدا شعره الأسود القصير خفيفاً وأقرب إلى التجعيد، له أذنان كبيرتان منفتحتان كبوقين يهم بابتلاع الكلمات المسموعة والهامسة، القريبة والبعيدة، إتجهت قليلاً إلى الخارج بشكل لافت استعداداً للسمع. تبرق العينان بشيء من الترقب والحذر والتحفز. لم يكن قصيراً، لكنه يبدو أقرب إلى القصر بجسمه المكتنز، لم يكن بادي السمنة لكنه ممتلئ على نحو ما، يملأ

ملابسه حتى نهاية مداها، محشوراً فيها. كنت دعوته للدخول وأنا أرقبه، بينما أظهر رسالة تؤكد انضمامه إلينا في هذا الركن ليمضي فترته الأولى للجوء في هذه المدينة.

الآن اكتمل العدد ولن يكون هناك آخرون، رحبنا فيه أنا وخالد بما يليق وأرشدناه إلى المكان الوحيد الفارغ المتبقي.

وضع حقيبتيه على السرير الخاص به، حقيبة الظهر، وحقيبة متوسطة الحجم يجرها على دواليب. كانت عيناه تجوبان المكان بحركات قلقة وغير ذات اتجاه محدد، على غير هدى مترقباً حدثاً ما. علت شفتيه ابتسامة زرقاء. وجدت نفسي أخاطبه بالشيخ، لم يعترض، ابتسم وقال «سهيل» وبادرت: «هل نشرب الشاي شيخ سهيل؟ لنتعرف على المكان»، شرحت له في جولة سريعة من ينام على كل سرير، وبعض خصائصه، ثم انتقلنا إلى الحمام والمطبخ وركن الجلوس في الزاوية البللورية، بعض العادات والأنظمة التي تشكلت بيننا، لم يتطلب ذلك أكثر من بضعة دقائق، جلسنا وشربنا الشاي وازدادت أسئلتنا وأسئلته بحثاً وعمقاً، من أين جئت؟ الحكاية الموجزة، العذابات والكوارث والمعوقات، متزوج وله ولدان، سيقوم بطلب لم الشمل، لا شيء استثنائي اليوم، جزء من الصورة وتفاصيل مختلفة، إحساس بالغربة، وإحساس بإنجاز الوصول إلى الضفة الأخرى، نظر إلى ساعته، استأذن للوضوء والصلاة، كان وقت الغروب يبدأ في ساعة مبكرة في أيام الشتاء، يرافق العتم برد ويبدأ صوت ريح بالوصول إلى مسامعي، صلى صلاة المغرب وعاد، يسأل عن المدينة وأنشطتها، دورات اللغة، مراكز التسوق، سوق السبت، مسائل تقليدية أشعر أني أعيد قراءة درس حفظته عن ظهر قلب.

وصل حسن، وتعارفا، يبتسم حسن ابتسامة عريضة تنم عن دهشة وهو يصافحه ويمعن النظر.

كان الشيخ يتكلم بلهجة أقرب إلى الفصحى، بل ثمة جمل يلقيها على سمعنا بالفصحى كاملة، كأنه يلقي خطاباً، وتزداد ابتسامة حسن وتعابير وجهه اندهاشاً، ويصل حدود الضحك، يبتلع الضحكة، وصار يخاطبه يا شيخنا، والشيخ يوغل في اللغة، سأل حسن عن سعد في إشارة لضرورة وجوده بحثاً عن سند، وربما استعجالاً لمتابعة رد فعل سعد، كان يعرف أن سعداً لن يعود قبل العاشرة، لحين انتهاء العمل بتوزيع البيتزا، فراح يملأ الوقت، ويحاول الهرب من ضحكة على وشك الإنفلات. بقي الوضع هادئاً في هذا البيت إلى أن وصل الشيخ سهيل الذي اغتصب وجوده هدوء المكان..

عندما وصل سعد في العاشرة والنصف كنا نتجاذب أطراف الحديث، ونتابع آخر أخبار الضفة الأخرى هناك، بدأت جولة التعارف الأخيرة، سعد والشيخ سهيل...

تابعنا بهدوء حذر حوارات تخللها بعض الخروج عن مسارات يحاول أن يخطها الشيخ بكلمات ومعان وجو أحاط به نفسه، عمل سعد على العبث به بدهاء خبير وبدقة اتباع سياسة بين المد والجزر، وأحياناً تشبه سياسة حافة الهاوية.

كانت نظرات الشيخ سهيل تقيس سعداً من الأسفل إلى الأعلى وبالعكس، لم يعجبه شكله، لاحظ سعد ذلك وتجاهله، يحتفظ سعد بقدرة على مسك الخيوط، لذا من الصعب أن تجده غاضباً. أصبح الجو تنافسياً، وظهرت في الأفق عمليات ترويض متبادل، أخذت شكل حوارات السحب والدفع.

انفض الاجتماع وذهب كل إلى سريره وتزايد في الخارج صوت الريح ارتفاعاً، تستمر العواصف وتشتد، تجوب فضاء المدينة ونسمع حواراتها مع أشجار الغابة القريبة.

عندما صحوت فجر اليوم التالي كانت الريح قد كنست كل ثلج البارحة وهدأت كأن شيئاً لم يكن.

عندما يلتقي سهيل وسعد يصبح الجو أكثر وعورة وتزداد الحوارات المتنافرة وتنتهي بضحكات في جو يرسم سعد ملامحه. عندما سأل الشيخ سهيل سعداً عن شعره الطويل، تعجب سعد:

«ما به شعري؟»

«لماذا لا تحلقه؟» يقول سهيل

«ولماذا أحلقه؟»

«أنت تتشبه بالنساء» ورد سعد: «وهل تتشبه أنت بالرجال؟» وأطلق ضحكته عالياً ثم أردف: «هل رأيت امرأة بلحية كهذه» مشيراً إلى لحيته. يرد الشيخ «لا ولكن ماحاجتك إلى هذا الشعر الطويل؟».

يرد سعد: «بم يزعجك؟ لقد كان شعر آدم طويلاً لم يحلقه طيلة عمره أي ثمانمائة وخمسون عاماً، وموسى عاش مائة وعشرين عاماً ولم يحلق شعره، لا يسيء شعري إلى أحد».

وعندما سأل حسن سعداً، في غياب الشيخ إذا كان صحيحاً أن آدم وموسى كان لهما شعر طويل، أجاب سعد بأنه لا يعرف، ومن يمكنه أن يعرف – على الأغلب هذا صحيح فالتاريخ لا يذكر وجود حلاقين في تلك الحقبة.....

يستمر الجدال بينهما ويستمر سعد بمزاجه دون تأثر، ويصر في حديثه عن المرأة، كما كان يتحدث دائماً، يقول في جدالاته وحواراته:

«لو فتحت رأسي سترى رقصات وراقصات من كل البلدان، سيسعدك ما تراه في رأسي، سترى الرقص الشرقي، والسامبا، والزومبا، والباليه، والبريك، التانغو، والمامبو، الفلامنكو الإسباني...» يعدد الرقصات وموطنها ويشرح بعض حركاتها كأنه مصمم رقصات حالم.

«المرأة تشكل مركز الصورة، بينما يكمل الرجل المشهد، ربما يصلح كإطار إذا أردت، بدون المرأة لا رقصات، يمكننا الاستغناء عن الرجل، عن الموسيقا - إذا اضطررنا - المرأة موسيقا، في رقصة جميلة لا نستغني عن المرأة».

يتابع سعد في حوارات متتالية: «من قال إن حواء خلقت من ضلع آدم - أشك في ذلك - ربما هي مجرد صورة شاعرية في الزمن القديم. المرأة مخلوق رائع، لا يمكن أن تكون من ضلع آدم، الرجل مخلوق عدواني سيدمر الكون، لن يصلح العالم رجل أو رجال، إذا أردت إصلاح العالم يجب أن يعطى الدور الأكبر للمرأة، العالم الذكوري عالم مخرب، المرأة قادرة على الإصلاح، على البناء والعطاء، لكننا نحن الرجال نخرب العالم من أجل امرأة لا تبحث عن الخراب، ربما تبحث المرأة عن حب، وأنت تمنح العالم الخراب، لتشعر ببطولاتك، هي رقصة الخراب».

كانت تنتهي الحوارات باتهام سعد بالزندقة أو الكفر، ودعوات له بالهداية، بينما يفاجئنا سعد بمفاهيم جديدة ومغالطات تثير الدهشة والضحك.

يصر سعد في موضوعاته - أكثر من قبل - على النساء أمام الشيخ، الذي بدا أنه بدأ يستمتع بأحاديث سعد، وصار يتعمد حواره وإثارته بطريقة ما.

تجاوز النقاش مرة بعض الحدود حين قال الشيخ سهيل في نقاش مكرور: «ما الفرق بين الإنسان والحيوان إذاً؟».

ويجيبه سعد بدون انفعال:

«تريد أن تقول أن الحيوان أفضل مني؟ قل ما شئت، لكن دعني أوضح لك أن الحيوان المفترس يأكل الحيوان الضعيف مرة واحدة وينتهي الأمر، والإنسان المفترس يبقى يفترس الإنسان الضعيف إلى الأبد، هل تعتقد أن حياتك أفضل من حياة الحيوانات؟ مهلاً - لا تغضب - اصبر قليلاً، لا يحتاج الحيوان جواز سفر، أو جنسية، أو تأشيرة خروج أو فيزا، أو لجوء، وإن كان هنا في هذه البلاد تحصل على كل ذلك بدون موافقات أمنية، هل تحتاج الحيوانات للهرب بحياتها آلاف الكيلومترات لتحصل على اللجوء، الحيوان لا يدرس عشرين عاماً دون أن يعرف إذا كان سيعمل بما درس، أو إذا كان سيتشرد، أو يتهم بالخيانة، الحيوان لايحمل أسلحة قاتلة مدمرة، ليس لديه سجون أو معتقلات، ليس لديه رجال دين وسياسيون يسرقون الوقت والأشياء.

هل تريد فروقاً أخرى؟

ليس لدى الحيوانات حلاقون يحلقون شعورهم، أو يشذبون ذقونهم - لو أنني حيوان - ربما تتمنى ذلك يوماً».

يغضب الشيخ، يكفهر، يزبد ويرغي، يهدأ ويعود للنقاش مرة أخرى. وسعد لا يتغير، لا زال يتقن لعبته، ويحمل أفكاراً وقناعات يعيش راضياً بها.

يستفز سعد الشيخ أحياناً ببعض المسائل، تحصل ارتباكات وتعلو أصوات ونتدخل.

يقول سعد: «إن قائمة الممنوعات الطويلة، والتعاليم التي لا تنتهي، تجعل الفرد يفكر بأنه عبء على الحياة، دعوة إلى كآبة مستمرة».

«أعتذر عن الكآبة» - يؤكد سعد.

## رحيل 21

اختناقات واحتقانات، أصوات تعلو وجدالات بائسة، تتلون الأجواء بين الغضب والرضا، ينحسر الطيف باتجاه التشنج والعصبية.

أتذكر جحيم سارتر في مسرحيته الأبواب الموصدة حين جعل كل واحد من شخوصه الثلاثة جلاداً للآخر.

علينا أن لانسمح لدائرة الجحيم أن تتشكل حولنا، أن نكسرها إذا تشكلت، وإلا فإننا نختار أن نكون في الجحيم.

تكررت غيابات سعد وتأخره، ويرافقه حسن أحياناً، أصبح الجو أكثر رسمية وكآبة، وأصبحت اللقاءات في حدود أقل، في إشارة واضحة لانعكاسات أزمة الجدالات العقيمة.

توصلنا إلى تفاهمات لا تكفي لتسهيل مشقة الاغتراب والإحساس به، كان يجب العودة إلى إحساس العائلة الذي تشكل في الفترة السابقة، وأصبح اقتراح حسن السابق بالخروج في رحلة جماعية ضرورة.

خرجنا يوم السبت بعد الساعة الحادية عشر لرحلتنا المنتظرة والتي تم تأجيلها لظروف مختلفة، أخذنا تجهيزاتنا باتجاه منتزه البحيرة، الأكل والمشروبات، ألعاب الكرة والمضرب والريشة الطائرة، وما يلزم لقضاء يوم جميل، وأخذنا موقعاً بالقرب من البحيرة، سلمنا في طريقنا على عائلات كثيرة في منتزه يغص باللاجئين، في المكان أطفال ونساء ورجال، ضحكات وطمأنينة، وفرح، موسيقى وغناء، ورائحة وشواء مارسنا الطقوس الممكنة لرحلة لطيفة، وملأنا فراغات الوقت باللعب والحوار، وقيادة القوارب في البحيرة..

كان كل شيء ممتعاً، تخلل الوقت توترات صغيرة وصراعات قليلة بين سهيل وسعد وتجاوزاها برغبة التجاوز وفهم ملائم لرفقة الضرورة. وأطلقنا ضحكات في ساعات غياب عن القلق والحياة الرتيبة.

اقترح سعد لملء جزء من الوقت ما يود أحدنا أن يكون عليه لو كان عليه أن يكون حيواناً؟ ولماذا؟.

تفاعل حسن بسرعة وقال أنه يود لو يكون أسداً، الأسد ملك الغابة، القوة والهيبة والسيطرة، قال أنه يحب ذلك، تحدثنا عن قصص ترتبط بالأسد وقال سعد: «لعلك تكون نمراً، أنت أكثر نشاطاً من أن تكون أسداً». لم يكن لدى حسن مانعاً أن يكون نمراً. قال خالد لكان نسراً، يحلق بحثاً عن نسره التائه – سامي – ولده، وتحدثنا عن مزايا النسر ومراحله العمرية، هو رمز الكبرياء، طائر حر، له قوة بصر كبيرة، والنسور تشيح بنظرها إلى اليمين واليسار ولا تنظر إلى الأمام، لعل ذلك ما يجعل شعار بعض الدول في بعض المراحل التاريخية نسرين باتجاهين تعبيراً عن سياسة متوازنة بين اليمين واليسار، معلومات ونقاشات طويلة تدور، في نهاية الأمر قال سعد مخاطباً خالد: «بدون ضغينة، لعلك أقرب إلى مالك الحزين، تقف وسط بركة من المياه على قدم واحدة، وتموت عطشاً، لدينا شيخ يمكن أن يزوجك، هل غضبت؟ ليتك تكون نسراً، وتعود بنسرك».

أشار سعد إلى الشيخ: «وأنت ماذا تريد أن تكون؟» كان الشيخ يحاول أن يجارينا: «اختر لي، ولكن حذار من الإساءة» وهدد بإصبعه مازحاً.. قال سعد:

«أنت أقرب إلى فيل صغير، ولكن عليك أن تحلق لحيتك، لا يوجد فيل بلحية، الفيل مخلوق لطيف».

ضحكنا للتشبيه، ثمة ما يوحي بذلك، لكن الشيخ يمشي بقوة واندفاع إلى الأمام، ويميل في مشيته إلى اليمين وإلى اليسار بشكل واضح، يعلن تقدمه بحركات تذكر بمشية البطريق..

تبادلنا المعلومات حول الفيل، ثم توجه سعد إلي فقلت: «أحب أن أكون غراباً، أعجبتني عدالة الغربان».

أثنى الشيخ على اختياري، وتحدث عن ذكاء الغربان، طير لكن لحمه مر، وأشار إلى ما تتميز به هذه المخلوقات الذكية القادرة على مقارعة النسور ومضايقتها، وأنها من علمت الإنسان دفن الموتى، ثم توجه إلى سعد وسأله إذا كان يحب عدالة الغربان! ضحك سعد وقال: «أنا أحب عدالة الحيتان» وصرخ بضحكة ماجنة، «لكنني أحب أن أكون نحلة، أرتشف رحيق الأزهار، أتنقل بينها، وأصنع العسل زززززززززز، يموت العالم بعد أن ينقرض النحل، ثمة من قال ذلك، ربما آينشتاين». كان يبتسم وكنا نضحك عدا سهيل الذي استفسر عما يقصده بعدالة الحيتان.

قال سعد: «قرأت ذات مرة أن رئيس وزراء إحدى الدول كان يسبح في المحيط، فابتلعه الحوت، لم يكن الحوت يعرف أنه يبتلع رئيس وزراء، الطبيعة لا يعنيها ما نقوله عن أنفسنا، لا فكرة للحوت عن أوضاعنا الطبقية أو الوظيفية، هو يعنيه الجسد، هل عليه أن يعرف أنه يبتلع رئيس وزراء فيشعر بالفخر، ويحدث أصدقاءه الحيتان، عن وجبة دسمة، الحيتان التي لم يعنيها طوفان نوح، لا تعنيها الألقاب على اليابسة، تعجبني عدالة الحيتان..

الجميع متساوون أمام حاجتها لوجبة بحجم إنسان».

يعود سعد دائماً إلى مواضيع شائكة: «أحب أن أميز الرائحة كما تميزها الكلاب، أحب أن أشم في الهواء ما يمتعني، لو أن لي حاسة شم الكلاب، لكنت أكثر سعادة ربما، وأحياناً أكثر شقاء – أعلم ذلك. المهم أكثر، المهم أن يمتد المدى، لو أني أرى كزرقاء اليمامة، وأشم ككلب لأصبحت أكثر قدرة على تناول الحياة والتمتع بها. إذا أحببت رائحة امرأة فستمضي وراءها، وراء رائحة تقودك إلى النعيم أو إلى الجحيم» يعترض سهيل بعد أن استمع بإمعان، ونراقب بحذر عن كثب ويستمر سعد: «إذا لم تعمل لديك حاسة الشم جيداً عليك أن تشعر بالقلق، الرائحة تساعدنا في اجتياز الزمان والمكان، ثمة أشياء يجب تحسسها بالرائحة، تمنحك هذه الحاسة متعة متفوقة، لا تمنحك إياها الحواس الأخرى، تشدني رائحة تحميص القهوة عن بعد، رائحة الشواء، رائحة النارنج في نيسان وأنت تمضي على الطريق السريع من دمشق باتجاه الشمال قبل الأزمة»

يسمع سهيل كل شيء إلى أن ينتهي ثم يبدأ الاعتراض ولكن بلهجة بدأت تميل إلى التكيف والقبول..

وكان سعد يقترب من محرمات يلقي بأفكاره وينسل دون الدخول في جدالات، كان ذلك ما يميزه.

يعترض الشيخ، ويرتفع صوته، ويرتفع ضغطه، يسوق الشيخ شواهده، وبراهينه، نستمع جميعاً كأننا أمام مشهد مسرحي ممتع، تتوقف الحوارات، نقوم بألعاب مختلفة، ننقسم إلى فريقين، يأخذ كل فريق مركباً صغيرة، نمضي وقتاً في البحيرة، نجدف بأقدامنا، نرسل إلى بعض إشاراتنا عن بعد، ويصر سعد أن يكون في فريق سهيل، أنا

وخالد في قاربنا نبحر على مهل، بينما يسرع مركب حسن وسعد وسهيل.

مياه هادئة، وسكون عميق، يذكرني بأصوات أمواج – الصورة الناقصة. خالد صامت، يملأ الفراغ بنظرات غائبة بعيداً، لا زالت أمواج البحر تلطم صخور الشاطئ هناك، لا زالت ترتفع غاضبة، تهدأ عواصف تعاود حنينها إلى المكان، تمضي بعض وقت، تعود نسمة على شاطئ بحر بعيد، لا زالت أمواجه تعبث برمال شاطئ.

لا زال بحر المتوسط يصفع بأمواجه جروف كسب، ولا زالت شطآن طرطوس تنتظر أمواج البحر العابثة تمشي إليها، ولا زلت هنا توقظني ذكرى، وأرقب ماض خيالاته، وأطياف مرت قرب بحر، كان هناك، سيبقى هناك.

## رحيل 22

من أعماق غير معتمة أتناول قطعة انتظار أبددها ضوءاً يرشد قادمين على وشك المجيء، يعيد الفراغ تشكيل نفسه أشكالاً أحبها، ألاحقه، ينفلت الوقت، يهرب، لا أركض وراءه، أنظر من بعيد، أعلم أنه لن يعود، لا أشعر بأسى.. أتركه يمر، أبتسم لخيالات تنبثق من لاشيء أمامي، تلقيها رؤاي أشعة على شاشة فراغ بلا لون فتزهو وأبتسم، أصحو فجأة فأرى الوقت يمر بدون ناس كثيرين، بدون أشياء أحبها، بدون مشاوير وبعض حياة.

أتمطى كسلاً، خمولاً، عجزاً، مقيداً بكآبة طارئة، بعطالة جديدة، وأسمح للوقت بالعبور على استحياء خجلاً من ضعفي ووجومي.

أستمر في قتل الوقت، لا أشعر بجريمة، أو موت، يقتلني على مهل دون أن أشعر، يحول جسدي إلى عمر تائه يمضي إلى نهاية ما، يسخر مني، من وجودي المؤقت المرتبط به، من ذاكرتي.

توقفت عن اختيار الطرق والمسارات، أوافق الوقت على إتخاذ مسارات تملؤها ساعاته ولياليه، وأزوره بلا ساعتي، وأراه لا ينتظرني حين أكون نائماً، يهرب من انتظاري وأدخل، أغادر إلى حلم، وأتركه خارج جسدي، وعندما أصحو أراه يبتعد، يتطاول، وأرى نفسي خارج زمني.

كنت أنظر من الأعلى.. من مكان بعيد، في مكان بعيد، أرى رجلاً يتحرك في كل الاتجاهات، ويعود إلى مكانه في بقعة محددة،

صفراء كالحة، أضفى المساء لوناً شاحباً على هذه الصفرة الكثيفة، رمال ورجل وحيد يرتدي قبعة ولباس شتوي، معطفاً أصفر، وشكلاً محفوراً في الأرض على نحو غير واضح، تغمره الرمال رويداً، رويداً بفعل حركة الريح، ويستمر الرجل في حراك غير مجد، حراك رجل تائه ووحيد، لا زرع أو شجر أو ماء أو.... أو آخرون.

لا شيء سوى الريح والرمال والمساء ورجل في لباس شتوي وقبعة، لا يبدو أن ثمة طريق.

كنت كأنما أراقبه من منظار تلسكوبي من الأعلى عن بعد!

صحوت خائفاً أتلفت حولي، كنت أنا من أراقب، وكنت ذلك الرجل الوحيد...

أربكني الحلم، تلفت حولي، كل شيء كما هو، الجميع نيام، وفي الخارج كثير من الليل والأشجار والصمت.. ونثرات ثلج يبدأ الهطول. آخذ سيجارة، أملأ بها رأسي والمكان، وأتابع صوت الصمت، يقطعه أنين ينتهي في لحظة، ولا زال في هذا الليل وقت طويل، أنهي سيجارة ليلية مفاجئة وأعود إلى سريري أصارع وقتاً وأنام..

كان حضورها طاغياً أكثر من الحقيقة، أمسكت يديها الخشنتين، وأصابعها المعوجة، نظرت في وجهي، منحتني أشعة حب استقرت في قلبي المرتجف، واحتضنتني عيناها، مسحت على تعبي تحت عيني، أحسست بدفئها، حملتها على ظهري، أسير باتجاه مدخل مخيم اليرموك، رأيت سعادتها، كان هناك آخرون، لا أذكرهم.

يؤسفني يا أمي أن يكون قبرك غريبا، بين قبور غريبة، لم يكن من الممكن الدخول إلى مخيم اليرموك بجسدك الطاهر لتدفني كما

أردت عند زوجك وابنك، لم يكن من الممكن أن تدفني في مقبرة نعرف فيها أحد، لازال الدخول محرماً، لازال الخروج محرماً..

لا زيارات بين أصحاب القبور على كل حال.. لتجد روحك السلام في صعودها، في ارتقائها، دعي الجسد يعود إلى أمه الأرض، وتخلصي من الوقت.. والرحيل.

ننتظم جميعاً إلى إفطار جماعي، نخرج من ليل وأحلام وصمت، بأصوات متحشرجة، وكلمات قليلة، نسأل بعضنا عن أحلام الليل، وعن النوم، وأخبار الضفة الأخرى.

يسأل أحدهم «متى يتوقف هذا الرحيل؟» يجيب آخر «عندما يكون لديك وطن» «ولكن أنت لديك وطن»

صمت.. صمت، ضحكة صغيرة من أحدنا وعودة إلى الصمت!.

أخرج وحيداً في جو ثلجي بارد، أمشي بسرعة، أبدد غضباً اعتراني بعد أن حدثني صديقي عن بيتنا في خان الشيح.. الريح تسكن دارنا هناك، جردوها من الأبواب والنوافذ، وأسلاك الكهرباء. تكنس الريح البيت مع كل هبوب، وتصفر، ماذا بقي من الأشجار، لعلها شجيرات الزيتون، وأشجار السرو. ثمة أوراق كثيرة في علبة كرتونية تركتها على سقيفة في زاوية مهملة، تركت تاريخ مراهقتي، رسائل حب، وأوراق رواية حب، قبل ان يأتي زمن الكراهية البغيض، تتحدث عن عاشقين تائهين، افترقا على الأرض، يركبان سفينة تبحر بهما إلى عوالم مختلفة، لا يعلمان أنهما على متن السفينة ذاتها – من سخرية القدر أنهما لا يلتقيان هناك، ويغادر الرجل إلى وجهة غير وجهته المحددة، وترى المرأة على البعد رجلاً يشبه حبيبها، كان ينزل في الميناء

قبل أن تعاود السفينة الإبحار بها، يعيش كل منهما حياته، لا يلتقيان أبداً.. لست نادماً أنني خسرت روايتي، فقد كان يجب أن يلتقيا، لعلهما يلتقيان الآن بدوني.. رحت أهذي!

لمن تركت كتبي هناك؟!

كنت أقف أمام مكتبتي كأني أقف في بستان، واحة، أحب رائحة الكتب العتيقة - إدمان - إحدى متعي الكبيرة التي فقدتها، جمعتها كتاباً كتاباً، اشتريت بعضها من رجال ضاقت بهم السبل، من ورثة يهمهم الخلاص منها، من أصدقاء يجددون كتبهم، اشتريت أجزاء مكتبات، كتباً قديمة بأوراق خشنة، وكتبا جديدة صارت اليوم عتيقة كما أحبها وقد تحررت صفحاتها من طي الطباعة، تعلمك أنها قد تمت قراءتها، ما يزيد عن ثلاثين عاماً، أجمع كتباً أقرؤها، أعيش معها وبها. كل الألوان والمشارب، الكثير من الكتب – شغفي – الإشتراكية والرأسمالية، كتب السياسة والإقتصاد، التاريخ والجغرافية، وكتب دينية، كتب الأدب والبلاغة، ودواوين الشعر، روايات كثيرة عن الوطن والحب والإنسانية، عن الحرب والسلام، عن البؤس والجوع والعري، عن الحرية والعدالة، عن النضال والعذاب، عن الجبروت والعنصرية والسجون، عالم الحيوان والنبات والأشجار.. أعلام، أسماء كبيرة وشخصيات عشت معها، تركتها هناك، دراسات كثيرة وقراءات، تركت أحلاماً راودتني، وتركت تاريخاً مزقته أيدي الخراب. لم أكن حيادياً تجاه كتبي، أحببت بعضها أكثر من بعض، قرأت بعضها عدة مرات، وأشعر بشوق حيادي لها.

يزداد غضبي، أشتعل، تزداد سرعة حركتي، كأني ذاهب إلى عراك، أمشي على غير هدى، مصاب بالإرتطام والذهول وغضب،

يرافقني الإحساس بالصدمة بعض الوقت، أستجمع قواي، أصحو إلى ما يدور حولي، أعبر شارعاً، أتعثر، أنزلق، أرتطم، أدور، أدور..

أتابع سيري، أشعر بالملل، بضجر صحراوي، بضجيج فائق، بتعب ورغبة باستراحة، أجد مقعداً يملؤه نثار الثلج، أدخل كافتيريا، آخذ قهوتي إلى مقعدي قرب الواجهة الزجاجية، أجلس لا أتحرك، أحدق في المارة، كأني لا أراهم، تتحرك أشياء تجنبت ارتطامها، تصفعني بقوة أكبر من ارتطام منتظر، أحاول الخروج من حلقة وهم أوصدت جدرانها عالياً بلا سقف في التواءات عجائبية، وأبحث عن انفلات ما من قوانين تشبه قوانين الفيزياء، أشعر بوجع في مؤخرة رأسي، وأسأل نفسي عن هذياني، وإحساس التيه، والقزامة، وشكل الثور الذي يجر الساقية، يدور، يدور.. وتستمر الحاجة لمياه الساقية التي يجرها... اهدأ أقول لنفسي، تخلص من الغثيان المفاجئ، اهدأ...

كنت أحلم بالطيران، وأرى نفسي أطير في الهواء عالياً بلا أجنحة، بطاقة عالية، لدي القدرة على تجاوز الجاذبية والطيران بعيداً، أتذكر الحلم المتكرر وأبدأ بعض هدوء، ارجع - أقول - اهدأ...

ابتعدت كثيراً عن البيت هارباً من غضب طارئ، أحتسي قهوة خلف زجاج في وسط المدينة الصغيرة...

كنت أنام في بيت داليا - أختي بالقرب من مدينة دمشق بسبب انقطاع الطريق إلى مخيم اليرموك، نمت في سرير آخر غير سرير ابنها الوحيد، الذي اقتادوه من أمامها في مشهد مفزع، أغمضوا عينيه وخرجوا به، لم يرجعوا به، ولم يرجع، كانت متأكدة كما والده من وجود خطأ ما، وأنه سيعود بعد ساعات، كان ملتزماً

بالبيت وبالدوام في عمله، لا أصدقاء له، لا أعداء له، كانت والدته ووالده أبعداه عن كل التجاذبات، ووضعاه – مستعينان بقدرته على طاعة عمياء – في مسارات العلم والعمل، وكان مطمئناً إلى حياة بسيطة بدون ضغوطات من أي نوع.

لم يرجع بعد ساعات!.

عندما رن جرس الهاتف النقال في الصباح الباكر، كان المتصل أمي.. نهضت دفعة واحدة من السرير، وقالت بصوت متقطع وأنفاس لاهثة: «لقد وصلوا».

- من الذين وصلوا؟

- الذين يقومون بالقتل، أنهم يحملون سكاكين كبيرة!

- هل رأيت السكاكين؟

- لا.. هكذا يقولون.

- أنا قادم.. لا تقلقي!

أصابتني حمى غضب وخوف وقلق، ارتديت ملابسي، وحاولت داليا أن تثنيني عن عزمي: «ماذا يمكنك أن تفعل» «أموت معهم على الأقل» قلت بانفعال.

انطلقت بسيارتي، تتصل داليا بعد قليل تقول: «هناك انفجار على الطريق المتحلق وفق الأخبار العاجلة» «ها هو أمامي أراه، لم يصبني، يجب أن أركز، أرجوك لا تتصلي مرة أخرى، سأتصل بك عندما أصل».

أصوات القذائف القريبة، عدد محدود من السيارات الشاردة، انقلبت سيارة في الأثناء، دخان، نار، نزلت في الشارع الخلفي الذي

يدخل مخيم اليرموك من جهة الفرن الآلي في الزاهرة، وعند المنطقة المقنوصة من الشارع، تركت العنان لسيارتي تنطلق بالسرعة القصوى.. تجاوزت، سمعت أزيز ثلاث رصاصات مرت بمحاذاة السيارة.. نجوت...

وصلت إلى الحارة، أرى ضرراً أصاب بيتاً من قذيفة مباشرة، يتجمع شباب الحارة قريباً من منزلنا، يحملون العصي، والسكاكين، والجنازير، وقطع بائسة أخرى.

- ماذا تفعلون؟

- ننتظر، سندافع عن عائلاتنا. سنفعل ما يمكننا فعله.

عندما دخلت البيت كانت أمي تعتذر عن القلق الذي سببته لي، وتعريض حياتي للخطر.

«لابأس، لنمت معاً، لا عليك».

نجونا من الموت، وخرجنا في يوم آخر.

تطلب امرأة طاعنة في السن الإذن بالجلوس على الكرسي المقابل، على الطاولة نفسها، تبتسم، تضع عكازها إلى الجدار، تذهب وتأتي بأشيائها، تلفتني أناقتها المفرطة، تأخذ كرسيها وتستمر بابتسامة عذبة، تلقي نظرة إلى الخارج، ترفع نظارتها بين حين وآخر، وتتناول على مهل قهوتها وقطعة من شطيرة التفاح.

أنسحب خارجاً، أواجه أسئلتي، وهذياناتي، وبقية غضب!

أسأل نفسي إذا كنت نادماً؟ لست متأكداً..

لو أعود إلى البداية! ستكون بلا ذاكرة حينها، لن ترافقك هذه الذاكرة، الذاكرة لعبة الحاضر والماضي، وإذا عدت لبداية خاطئة،

وكنت بطيئاً في الفهم مرة أخرى؟! لا خيارات قبل البدء لتختار وتبدأ .. هي طبيعة التكوين.

هل يكون ذلك متاحاً في كون آخر؟ لا أظن ذلك!

عليك أن تقبل بتكوينك، أن تلتحم مع ذاتك، أن تتمسك بداخلك، أن تكون كتلة صلبة غير قابلة للإنفصال، لا تترك شيئاً يتساقط على الطريق، التحم بحلمك، بآمالك، بأشيائك، حافظ على التحامك وانطلق، اعبر إلى الحقيقة، إلى حيث تتجه أنظارك، لا تنقسم، لا تتشطر، تابع العبور إلى النهاية... أنت تهذي – أقول لنفسي.

أشعر بالخجل وأنا أذكر عائلتي، كيف أسأل نفسي عن الندم ولي أسرة جميلة؟

هو بعض غضب يبدأ بالانحسار، ويتركني لسكينة تلامس قلبي وأنا أرى عائلتي على واجهة الذاكرة، وأراني أبتسم.

كانت حنان هي المرأة التي أخذتني من مكان تركتني فيه امرأة أخرى، ممتلئاً بإحساس من الخذلان والمرارة، كانت بقية روحي في ذلك المكان حين بدأت حنان تشدني إلى عالمها الجميل.

أتخلص يوماً بعد يوم من عبء، من ثقالة لا معنى لها، لم تفلح محاولات الابتعاد عن صورة المرأة التي خذلتني بإعطائي الإحساس بالتحرر، بالغفران عن حماقة ارتكبتها، كان يمكن ألا تكون حماقة لو كانت النهايات مختلفة، إلى أن ظهرت حنان.

كانت تجلس في الوسط، في المركز تماماً، القاعة تتسع لحوالي ستين طالباً، تم توزيعهم على ثلاث شقق، كانت تتوسطهم مشرقة، صامتة، تلتصق نظراتها بي حيثما تحركت.

عدت بعد زواج سلوى إلى دراستي، بعد أن انقطعت عاماً، تابعت دراسة الدبلوم، ماجستير، خدمة إلزامية، وبقيت حياتي مليئة بالعمل والجدية، وخلت من أشكال النشاطات الحيوية أو الحياة المترفة.

وجدت في التدريس متعة العطاء، رغم قلة الناتج المادي، أحببت طاقم العمل والطلاب باستمرار، وواجهتني مشاكل صغيرة، ما أن ينقضي العام الدراسي حتى يصبح الطلاب أصدقائي، كان يحلو لي خلال العام مشاركتهم بعض أنشطتهم وأسعد بها.

يخلط الطلاب في مرحلة ما عواطفهم، وقد تلتبس عليهم الأمور، يختلط الإعجاب، بالرهبة، بالإحترام، بالخوف، بالحب، وتجنبت دائماً الكثير من هذه الإشكاليات.

تسألني حنان في الدرس دائماً سؤال، إثنين، أو أكثر، ما يلزم لألتفت إليها، وعند الخروج من القاعة، كانت ممن يتحلقون حولي، لحظت تركيزها ومتابعتها، واندفاعها، وتجاهلت ذلك...

لم يكن في حياتي امرأة، وصرت أفكر بها مع الوقت، إنها تتقدم وتنجح، جعلتني أشعر بأني محور حياتها، كانت مليئة بالحيوية، تضحك، تتمطى بجسمها إلى الأعلى وتكاد ترفع قدميها، تكاد تقفز وهي تحدثني، تعجبني هذه الحركات الرشيقة وتهزني، وقد أشعر بارتباك. في أجواء البرد تخرج نصف أصابعها البيضاء الرقيقة الطويلة من قفازات صوفية سوداء مقطوعة في وسطها، وتظهر عروق رقبتها العاجية الطويلة، التي تنتهي في الأسفل عند نحر بانت عظمتيه بشكل لافت. تغطي جسدها النحيل الطويل بمعطف طويل بلون ليلكي ارتفعت ياقته.

في كل مرة أكتشف شيئاً جديداً، كأنها تتعمد إظهار ملمح جديد غاب عني التمعن فيه سابقاً. عيناها الملونتين، تتلونان حسب الضوء وشدته، تصبحان زيتونيتان، أوعسليتان، أو أقرب إلى العيون الخضراء في ضوء الشمس الساطع. تضحك عيناها، وتخط ابتسامة عذبة ساحرة تخرج من الأعماق، بدأت أحبها، حملتني إلى عالم جديد، رائع – أسرتنا الجميلة – وأصبحت مع أولادنا الثلاثة كل شيء في حياتي، حنان طالبتي الجميلة في المعهد تصغرني بإثني عشرة سنة، أخذتني من نفسي، جسرت هوتي مع الكون، وأصبحت زوجتي.....

أمشي وأتابع أفكاري وصوراً تقاطرت بغير انتظار، أفتح مظلتي، أقي نفسي نثار الثلج الذي بدأ موجة جديدة في لوحة رقيقة.

أتناول سيجارة جاهزة، أشعلها في جو بارد في طريق العودة إلى البيت..

تخلصت من حالة بؤس أصابتني، أطفئ سيجارتي خارجاً وأدخل..

## رحيل 23

كان حسن يجلس إلى هاتفه الجوال كعادته أوقات الفراغ، يتابع أخبار التواصل الاجتماعي، بينما كان خالد يقوم بأعمال غسيل ثياب تبدو عليه علامات أسى، يدندن لحناً حزيناً بصوت خافت يكاد يكون غير مسموع، أقف للحظات أمام صورته، يذكرني الموقف بأمي وهي تتلهى بأعمال الغسيل بينما تتابع بكاء غربتها.

في بلاد الشرق إبداع في صنع الألم واستخراج دواخلك ورسمها على قسمات وجهك.

ثمة من قام بإنجازات تفوق اللوحات الثلاثية الأبعاد، يمكنك أن تلحظ البعد الرابع في الأجساد التي تركها الموت لعدم جدواها، أو تركها ليسخر في البعد الخامس مما تبقى من إنسان!.

عبقرية في استخراج الألم وإبقائه مستيقظاً، والعمل على تبديل شيفرته حتى لا يعتاده المرء، ولتجد في الفيروس ارتقاء إلى درجة مختلفة، وشكلاً آخر، وشيفرة عصية على التشابه..

هل يفكر ساسة الحروب في هذا العالم كيف يصنعون الألم الإنساني على شكل كبسولات أو حقن توزع إلزامياً ليرتقوا بأحاسيسهم المريضة إلى أعلى درجات التحليق بالمتعة السادية...

أتمسك بالأمل، ولدي كل ما يذكرني بالشقاء والبؤس، وحين تخبو أشعة الأمل في روحي، أعيد شحن ذاتي، أستعين بعزيمة توقد جذوة الحياة باستمرار.

أنهيت تغيير ملابسي، أعددت قهوة ودعوتهم إليها..

حدثنا حسن عن مشقة لقيها في العبور إلى هنا، عن ارتياحه للآتي، عن تدريبه القادم، عن مشروعه ليصبح قائد قطار، وبدا خالد كأنه في بئر عميقة، لا يحاول الخروج مرة أخرى للحياة، لهواء نقي، لا يساعد نفسه، لا يرغب بذلك، ويكتفي بابتسامات باهتة يؤكد بها على خيط ما يربطه بالمحيط.

تنتهي قهوتنا، ينصرف حسن مرة أخرى إلى سريره، يتابع إدمانه، يفتح جهازه المحمول، وقد قرر عدم الخروج في هذا الجو الثلجي. فتحت كتاباً أقرأ فيه، بينما راح خالد يتابع أعمالاً منزلية بدا أنه يقطع بها وقتاً مملاً، قام بعدها بالاسترخاء على سريره محدقاً باللاشيء.

يقفز حسن فجأة من مكانه، يصرخ منادياً خالد: «انظر! أليس هذا اسم أخيك؟» قرأ خالد الاسم وهو يرتجف، وقد اصفر وجهه، إنه نفس الاسم، أجل، ولكن.. ولكن الاسم قابل للتكرار، ربما هو! وربما ليس هو! اسم سامي غير موجود ضمن القوائم المعلنة:

«بالتأكيد ليس هو!» – يقول خالد، ويتابع: «يجب أن يكونا معا!» يرتبك، يهتز، يحاول استيعاب الأمر، يتحدث بصوت عال كأنه يخاطب نفسه، ويتركنا نسمعه بحثاً عمن يصحح له، يحتاج مساندة:

«بالتأكيد ليس هو.. ربما يكون هو، ولكن إذا كان هو فأين سامي؟» يستمر في التكرار.

«الأمر لا يوضح شيئاً، الأمر يزداد غموضاً، وتعقيداً» يرتجف خالد ويردد، «ربما يمكن الوصول إلى صاحب الحساب، الذي أعلن، من أين جاءت هذه القوائم؟ ربما يمكننا التواصل معه، والسؤال عن

مصادره، كيف نثق بهذا؟» «ربما عملية احتيال، أو جزء من احتيال» ويعود لينفي» لا أعتقد.. ليس احتيالاً ما مصلحته؟».

لقد تم تقديم مبررات كثيرة.. كثيرة.. كثيرة.. للقتل والتدمير والتوحش. مبررات تزيد عن عدد المقتولين بلا طائل، عن عدد المشردين، والمصابين، عن عدد المنازل....

لماذا يسوقون كل هذه المبررات، هل يبحثون عن نجاة لأنفسهم من أنفسهم، عن راحة ضمير؟

«نعم هو اسم أخي وليد أحمد بكر، أنا أخوه خالد، لكن أين اسم سامي خالد أحمد بكر - ولدي -؟ أين أنت يا ولدي؟ لو وجدت اسمك أيضاً؟ أين يكون قد اختفى؟ هل سقط الاسم سهوا؟».

«الآن لدينا طرف خيط، بقيا هناك، لم يخرجا، لم يخرجا! هذا يقلص البحث، يحصره، ولكن سامي؟».

«ربما تشابه أسماء» «لا أعرف، لا أعرف»

يغلي، يفور، يتألم، يصرخ، يروح جيئة وذهاباً، يفرك يديه، يذهب إلى الحمام، إلى المطبخ، يدور، يعيد قراءة الأسماء، بلى، بلى، إنه هو، يجب أن يكون هو، يتابع القوائم.. لا يوجد سامي، ثمة وعود بقوائم تالية، ربما يكون اسمه في الملحق، كأنه يتابع أسماء الناجحين في الشهادة الثانوية.. لا.. لا يوجد ما يضاهي هذا الإحساس!..

يتصل، لا ترد زوجته!.

يكتب لها في محادثة كتابية، يظهر استلامها الرسائل وقراءتها.. لا ترد!

يدخل سعد مبكراً على غير عادته، ربما بسبب الجو! يسمع الخبر،

يقرأ على جهاز حسن، يرقص عالياً، يهنئ خالداً، ويساعده بنسخ البيانات وإرسالها إلى زوجته وإلى أخته، قال لهما إن وليد على قيد الحياة، وإنه بقي هناك، هكذا تقول قوائم معلنة، وربما أمكنهما المساعدة في البحث هناك.

تحدث خالد مع أخته أمينة، وقال أنه سيعود إذا تأكد أن هذا أخوه، ويستردف مؤكداً أنه سيعود حتماً، لن ينتظر، ربما أنتظر قليلاً.. لا.. سأحزم حقائبي الليلة، أجل الليلة.. سيرحل - يصر.

لا يريد أن يترك طرف الخيط.

كيف يمكن الوصول إلى وليد؟ كيف يمكن التأكد؟

سنجد طريقة - يقول في نفسه - المهم أنه هناك، وأنه على قيد الحياة، بالتأكيد سامي كذلك، وسيرى اسمه في الملحق، في مكان آخر.

سامي أقل من خمسة عشر عاماً، لا يمكن أن يكون ضمن هذه القوائم، سيكون في قوائم أخرى.

يستلقي على السرير، يقوم، يخرج إلى الصالون، يعود، يستلقي، لم يكن قادراً على البكاء، أو الفرح، أو الحديث، لم يكن قادراً على فعل شيء.

يتلقى تطمينات من أصدقائه، وأمنيات، اهدأ - يقولون - يهز رأسه بالإيجاب ولا يهدأ.

كم هو رائع حسن الذي قرأ الأسماء وأخبره، يقوم إلى حسن يحضنه، يقبل رأسه، ويعود إلى سريره، يجلس، يستلقي، يكرر كل حركاته وكلماته، يقوم إلى المطبخ، يعد قهوة للجميع، يدعونا إلى

الصالون، وينظر في عيوننا، تمتزج نظراته بين الحزن والفرح والضياع، يبحث في عيوننا عن ملجأ صغير، نكرر دعوته للهدوء، لا يهدأ!

«سيخرجان إلى النور – لا تقلق» يقول حسن.

«إنه أفضل ما حصل لك منذ أتيت إلى هنا».

يتلقى مكالمة جديدة من أخته أمينة، يتلعثم، يرتبك، تتكلم هي، ويصمت، يبدأ الكلام، ويختنق صوته بالبكاء، ويعود لسماعها، يتبادلان التحية، يرتجف، يمسح دمعاً ويعود إلينا.

طلب سيجارة، خالد لا يدخن، لم يجد شيئاً يقوله، أو يفعله، طلب سيجارة.. يقف سعد خلفه، يربت على كتفيه، عندما تجد سامي سندخن الماريجوانا، سنحتفل، ستدخن، أليس كذلك؟ يهز خالد رأسه بالإيجاب. سيفعل أي شيء ليرى سامي، ليعرف عنه شيئاً.

سيرقص ويدخن الماريجوانا، سيصلي، سيحتفل كما لم يفعل من قبل، سيضحك كثيراً، سيبكي، سينهار، يمكنه أن يغمض عينيه وينام، بدون حبوبه، يمكنه أن يموت، سيكون سعيداً، سيعبر عن هذا الفرح.

لن يفلت من يديه مرة أخرى، لن يتركه لأحد، سيعمل على حراسته بقية عمره، سيعوضه عن هذا الفقدان، سيضمه إلى صدره ويبكي، هو من يشعر بحاجة لأن يضم ولده، سيضمه كما في الحلم، سيقف فوق رأسه وهو نائم يحرسه، يحرس نومه، يحرس أحلامه..

«وجدنا شيئاً، سيكون احتفالنا كبيراً» – أقول.

يهز رأسه، ويسحب نفساً طويلاً في احتفال حذر بسيط.

يحاول أن يحاصر نفسه، أن يأخذ قراراً، لكنه يتوه، يتردد، يبتسم، يسحب ابتسامته، يبتعد كثيراً في برهة يقابل حلماً ورؤى ويعود.

يدخل الشيخ سهيل، يهنئه، يدعو له، يطلب إليه الهدوء ويحكي له قصصاً عن رحمة الله.

لم يسبق أن شاهدت ارتباكاً إنسانياً بهذا المستوى، تتغير قراراته، يقيس المسافة بينه وبين الأشياء، وبينه وبيننا.

تتناوب مشاعره بسرعة، بطيف واسع، يحاول سعد إضحاكه، فيضحك بتحفظ.. يتوقف عن الضحك فجأة، يشعر بضمير معذب لإنفلات ضحكة صغيرة، يجب أن يخبئها لزمن الضحك القادم.

نتماهى معه في حزنه، ونحاول العودة به إلى الواقع، ويوزع نظرات إمتنان، لا يقول شيئاً، يهتز الجزء العلوي من جسده وهو جالس يمنة ويسرة بشكل مستمر، يغلق يده اليسرى ويضعها في كفه اليمنى، يلصقها بصدره، ويتابع اهتزازاته.

قال أنه سيرحل، لا فائدة من البقاء، سيعود... اتخذ قراره!

«سنوصلك إلى المطار، سندفع جميعاً ثمن الرحلة، دعنا نرتب لك عودتك، سنحمل حقائبك، ستراسلنا» يقول سعد.

يبتسم خالد شاكراً.

يقوم إلى أشيائه يبدأ ترتيبات، يخرج حقيبة السفر، يفتحها، يلقي نظرة إلى داخلها يعيد ترتيباً ما، يخرج قطعاً ثم يعيدها، يطمئن إلى ترتيب حاجاته، يرتب سريره، يكنس المكان ويعيد

مسحه، ويمسح عند الزاوية البللورية، وكان مبتسماً، يستأذن الخروج، يلوح بيده ويمضي!

فكرت بالخروج معه، كان واضحاً أنه أراد أن يكون وحده.

كان الوقت يتمطى بلا نهاية، وكان خالد لا يعود، ساعات انتظار قلقة طويلة، في ليلة رمادية يوقظ عتمها ثلج أبيض وبرد، وسكون مخيف، أين تراه يكون؟.

خرج وحيداً قبل أن يبدأ العتم، لم يتوقع أحد خروجه، لملم أشياءه كأنه على وشك الرحيل، جعلنا ذلك نطمئن، وتركناه لنفسه بعد أن اتخذ قراراته، ملأ حقائبه، وزع ابتساماته وخرج، شعرنا جميعاً بارتياح.

خرج حسن مع قريبه ورافقهما سعد، سهيل يخرج ويعود لا نسأله عن وجهته، وبقيت مع كتاب أتابع قراءته.

مر وقت طويل قبل أن أقرر الخروج بحثاً عن خالد، وقد انتابني قلق غامض مباغت.

لم يعتد أن يبقى كل هذا الوقت خارجاً، إنها المرة الأولى، لا زال الثلج مستمراً في الهطول، وقبل ساعتين، كان الجو عاصفاً والهطول أشبه بعاصفة ثلجية.

أين يمكن أن أجده؟.

اتصلت تكراراً على هاتفه النقال، لا يرد.

يزداد قلقي، تجاوزت الساعة الحادية عشر ليلاً، عاد حسن، وسعد، وتبعهما الشيخ سهيل، وعندما نظرنا في عيون بعضنا تناقلنا قلقاً تقاسمناه واتفقنا على خروجنا أنا وحسن وسعد وبقاء سهيل في البيت لإعلامنا بأي جديد.

ثمة محل تجاري واحد يبقى مفتوحاً في هذا الوقت المتأخر من الليل، يغلق في الساعة الثانية عشر ليلاً، لا نذهب إليه عادة، لارتفاع أسعاره.

هل يعد خالد لرحلته؟ لا أظن، لن يحتاج شيئاً من هنا.

تذكرت حديثه عن القطارات، والمحطة والبرد!

ارتدى كل منا ملابسه، وأخذنا طريقنا إلى المحطة الصغيرة، يحمل كل منا مظلته، نتجاوز الشوارع والبيوت ونمشي بحذر فوق طبقات الثلج. بحثنا في المحطة في كل مكان، تفقدت الكرسي الذي جلسنا عليه ذات يوم، عدنا إلى المحل التجاري القريب، ثم عدنا إلى البيت، لم يعد بعد.

كنا ننظر في عيون بعضنا بعضاً أكثر مما نتحدث، يدور حديث صامت وخشية من حدث ما، توجس وترقب، أنفاس غير مرتاحة، تنحبس رويداً، رويداً. أخذنا إضاءة قوية، تأكدت من ملابسي الشتوية والحذاء العالي، وسرنا معاً باتجاه الغابة.

سلكنا الطريق التي نسلكها دائماً، والثلج مستمر في الهطول..

حين وصلت إلى مقعدنا، كان متكوماً على نفسه من البرد، متجمداً على الكرسي الخشبي الذي شهد رؤاه، وأحزانه، ويأسه الدائم...

كان خالد ميتاً من البرد، من القهر، من اليأس.. وربما من الفرح!.

أن تشعر بالبرد ليس وطناً، أن تموت برداً؟؟.

ورث الموت الذي يرثه الجميع، وورث شكل موت أبيه!

ما الفرق؟.

مات هنا.. مات هناك!!.

كان يمكن أن يحظى بميتة مختلفة، أجمل، أبهى، أكثر وقاراً، ماذا يمكن أن يقال؟ هو لا يسمع، لا يذكر، لا يهتم.. هنا أو هناك؟!

لكنه تجشم عناء الرحلة!

الموت يؤلم الأحياء - يقول محمود درويش - أجل يؤلم الأحياء، كل ما يقال في موته يخصنا أكثر مما يخصه، مات غريباً، عاش غريبا!.

ناديته، صرخت، هززته، حركته، دلكت صدره قرب القلب، كان مستسلماً، أي برد يمكنك أن تترك نفسك فيه حد الموت، لا تواجهه، لا تقاومه؟ كان يمكنك الوصول إلى البيت، لم تكن المسافة بعيدة..

هل تناول حبوبه؟ أجبرته على النوم، ولم يعد قادراً على الصحو!.

ترك نفسه ينهشه البرد مرة واحدة وإلى الأبد.

لعله أخذ إجابته على ما جرى لوالده، أو كان يحاول الحصول على الإجابة على لغز رافقه طيلة الوقت، فأغراه الموت..

الجثة لا تقدم إجابات، الجثة باردة، أصبحت موتاً.

أخذنا من جهازه المحمول رقم أمينة أخته وأرقامه القليلة الأخرى، واتصلنا بالبوليس.

الموت حدث طبيعي، نهاية كل فرد فينا، ولكننا نراه فاجعة، استثناء، لم يتوقف الناس اعتباره كذلك، ها نحن نعيش في مملكة من الوهم، من الحذر، عنوانها النجاة - ذلك الوهم المخادع.

إنه الموت الذي يأتي دائماً بلا استئذان!

نواري أنظارنا عنه، لا ننتظره، لكنه يأتي، يغتال الفرح، ويطوي الكبير والصغير، يتجاوز اعتباراتنا، ورجاءاتنا، يسحق انتظارات وأحلام، يجردنا من كل شيء، حتى من أسمائنا، يرحل بنا..

يستنهض فينا الأنين، والصراخ، والألم، والذاكرة، والخوف، والأحزان، والفقدان، والإحساس بالوقت.. بالضعف..

يأتي بوقار ورهبة، بصخب، بعنف، بهدوء، يتسلل، يخترق، يخلط الأوراق، يعيد ترتيب الأشياء، يصدمنا، يفاجئنا باستمرار..

نعلم أن الموت قادم، لكننا نشعر بالدهشة والغرابة!

شعرت بارتباك وأنا أراه متكوماً أمامي، متكوراً على نفسه، اخترقت أحشائي ومضة نار، وشعرت بكتلة كبيرة من الألم، تدافع البكاء غزيراً في صدري، في حلقي، في كل خلايا جسدي، وسمعتني أبكي. خرجت عن السيطرة والتركيز.

بكيت في خالد موت هيثم الذي حلم في طفولته بالغنى فمات جوعاً، أبكي فيه موت أهل وأصدقاء لم يتسن لي وداعهم، أبكي فيه موت طفل في التاسعة أو العاشرة بقي والده - أخي - هناك تحت حصار ليكون قرب قبره، أبكي كل ما يحصل..

يبهت البريق، يتلاشى، في انبعاثات الألم وارتداداته، في انطفاء الوهج، وتسرب الأمل.

لماذا لا يهدأ العالم؟ لماذا لا تتوقف الحروب؟ فيم تستمر الصراعات، والحروب، والموت، والدمار؟ في نهاية كل حرب يجلس

المتخاصمون إلى المفاوضات برعاية ما، وقد كانت الحروب بنفس الرعاية على الأغلب، الحرب لا تصيب الجنود فقط، تصيب الجميع..

كان على خالد أن يبتعد عن رمال الصحراء المتحركة، حتى لا تقتله الكثبان برمالها الكالحة اللون. كان عليه أن يتوقف ذات يوم، أن يبدأ من جديد. راح في طريق غير قابل للعودة.. ألقى جسداً على رصيف اغتراب، ترك عمراً من عذابات، لم يتمكن من تجنبها.

يخاطبني حسن، أتلعثم بارتباكي، ويخرج صوتي متعثراً حزيناً.

اتفقنا أن يتولى الشيخ سهيل أمر الاتصال بأمينة شقيقة خالد.

تحلقنا حول الشيخ الذي فتح السماعة:

- مرحبا أختي.

- مرحبا - هذا رقم أوروبي - هل جرى شيء؟ أين خالد؟!

- تصبري يا أختاه، البقاء لله، رحمه الله وعوضه داراً خيراً من داره.

صرخت تبكي بقوة على الخط.

شعرت بفرح غامض.. ثمة من يبكيك هناك يا ولدي..

# خاتمة

إن ما كتبته ليس حقيقياً وحسب، بل هو أقل مما جرى ويجري، لا أعرف إذا كانت هذه الرواية ستجد طريقها في النشر، وطريقها في الوصول إلى قلوب الناس.

لا ينتهي الفقر في هذا العالم، لا ينتهي الجوع والعري، والمرض، وكل أشكال البؤس الإنساني، ويبقى الإنسان العادي المحكوم بحياة القهر والخضوع والمهانة يواجه الجشع والظلم ويقاوم الإنكسار، ويعود في كل مرة مكسوراً.

لقد تغير شكل الرق والعبودية، وازداد بشاعة في عالم ظالم لا يرحم..

متى تنتهي الجاذبية لأسقط عن الأرض، لنسقط جميعاً عن الأرض؟!. لا أستطيع تغيير العالم، وربما فات الأوان لتغيير نفسي، ولكن ربما يجب أن نصرخ حين يشتد الألم، حتى لا يركن السادة إلى انسحاقنا مع الإحساس براحة الضمير.. يمكننا البكاء، يمكننا النحيب، يا لتعاسة الأرض!.

هناك تفاصيل كثيرة أغفلتها، لم أرد لها أن تشوه السياق، هي تفاصيل متشابكة، حاولت تفكيكها، تجاهلت أعمال الناس واختصاصاتهم، وتجاهلت تواريخ كثيرة لأن البؤس يتمدد على الزمن، وتجاهلت الجغرافية، لأن ما حصل يمكن أن يحصل ما هو أشد غلظة ومرارة منه في أمكنة أخرى، ما يهم هو المظلومية التي يعيشها المسحوقون بفعل قهري، يقوم به مجرمو هذا العالم ولصوصه.

.....

*كانت هذه فقرة غير مكتملة في صفحة من صفحات كتبها عبد*

*الله، شطبت فيها عبارات، وبقي فيها بعض فقرات، فكرت طويلاً قبل أن أستبعدها، وبقيت صفحة منفردة لم تتضمن سوى شطب سطر واحد وبضع كلمات في أسطر مختلفة، أرى أنه أراد أن تكون جزءًا من الرواية:*

.....

كنت سأطلق على روايتي اسم (ظل الرحيل) أو (ظلال الرحيل) لأنني لم أستطع أن أقدم حقيقة كاملة، ربما شيء يشبه ظلها، لأنني أشبه خالد الذي يتفوق في انسحاقه حد التلاشي. في عدالة سكسونيا - إحدى المقاطعات الألمانية في العصور الوسطى - ابتدعت حاكمة المقاطعة، قانوناً يقضي بقطع رقبة المجرم إذا كان من طبقة الرعاع وهم عموم أفراد الشعب من غير طبقة النبلاء، ويكون عقاب المجرمين من طبقة النبلاء بقطع رقبة ظل المجرم النبيل، حيث يؤتى به بوجود الشمس في الصباح أو قبل الغروب، يقف منتصب القامة ويهوي الجلاد على ظله في موقع الرقبة، ويصفق الجمهور تعبيراً عن سعادته بتحقيق العدالة. هذا الرحيل بقي جزءاً غير مكتمل، يشبه ظلاً للحقيقة، يتطاول، يقصر، يتشوه، وفي لحظة ما يتطابق الشكل مع الظل، وعندها لا يمكن الإقرار أنه يمثلها، يبقى ظلاً، خيالاً، يحتاج إلى قارئ يعيده إلى الحقيقة، في عالم الرعب الأبدي، الموغل في التوحش، في عالم مقرف أبعد من حدود التقيؤ.

هو واقعنا الذي تعجز الروايات عن الإحاطة به.. ربما في عالم آخر.. كان يمكن أن أسميها بقايا وطن، بقايا من الوطن.. نحن هنا البقايا، وهو بقايا، سيظل كذلك إلى أن نعود، أن نبدأ البناء، نستمر به ويستمر بنا، إلى أن يملأ الحب الهوة التي حفرناها بأيدينا، ورمينا أبناءنا فيها، بعد أن ينطفئ الجحيم الذي أوقدناه.

**ن.ح.ع**

كان عبدالله يرتجف بوجهه الأصفر على وشك إغماءة.

تلقى مكالمة، انهار على كرسي قرب الزاوية البللورية، وضع جهازه المحمول أمامه، وضع رأسه فوق يديه، نام فوقهما وعلا صوت بكائه، شهقات متتالية، يتوقف لحظات كأنه يراجع معلومة وينطلق في دفعة بكاء جديدة، أشعر بارتباك، أضع يدي على كتفه، يزداد نحيبه، قام إلى الحمام غسل وجهه، وعاد صامتاً، حاولت التواصل معه، كأني أحاور شبحاً، لا يرد، ينظر إلى البعيد، كان صمتاً وعراً لا أعرف كيف أتجاوزه.

جاء سعد وجاء سهيل بعده بقليل، عاد عبدالله يضع رأسه فوق يديه على الطاولة مرة أخرى دون بكاء، يشعر بحزن، ربما بعض خجل! يرن جرس جهازه المحمول، لا يفتحه، يشير إليه، يأخذه سهيل ويتحدث، كانت داليا أخت عبدالله على الخط، يستفسر الشيخ عن الكارثة التي جعلت عبدالله ينهار دفعة واحدة، تخبره داليا عن اختفاء ابنه إبراهيم من أمام البيت مع رفيقه أنس، حصل ذلك في حدود العاشرة صباحاً، يبحث والدي أنس، يستخدمان نفوذهما، ربما المقصود أنس، لعلهم يطلبون فدية، نرجو ذلك، ماذا يمكننا أن نفعل، تنهي داليا حديثها مع الشيخ بتوصية على أخيها ..

يعود سهيل إلينا، يحدث عبدالله، ويطلب إليه التماسك ومواجهة الموقف، لم ينته العالم، كانت نظراته باهتة، أقرب إلى البرود، وقال أنه راحل إلى هناك.

في اليوم التالي ألقى إلي أوراقاً كثيرة، وطلب مني أن أحفظها له، وقال: «إذا لم أتصل، تصرف بها كما تشاء، هي لك، انشرها، إنها روايتنا جميعاً» قلت: «عليك أن تتصل» «سأحاول»

وقال: «سيكون رقمك معي على أنك حسن، وهو سعد، وسهيل، وخالد رحمه الله».

عاد عبدالله إلى هناك، غادر على عجل، اتخذ قراره بالتخلي عن الرحيل - ربما فات الأوان – بعد عشرة أيام تلقيت اتصالاً من رقم غير محدد (رقم خاص): «مرحباً، الأستاذ حسن» أقول «نعم» يغلق الخط.

انقطعت أخبارعبدالله.

ماذا أفعل بهذه الأوراق، وقعت من بين يدي وأنا أنقلها إلى حقيبتي في أول يوم سلمها لي، كانت على شكل مجموعات في أغلفة من النايلون، ورحت أقرؤها، لا أحب القراءة، لا علاقة لي بهذه الأمور، أنا أسوأ من يمكن الاعتماد عليه في هذا المجال، ومضطر لشرح ما حصل. لذلك قررت نشرها على حلقات على الشبكة، أبحث عن ردود الفعل، لست متأكداً من ترتيبها، والصفحات كانت بلا أرقام.. ربما عليكم إعادة ترتيبها، وفق رؤيتكم، ضعوا التواريخ التي تناسبكم، والجغرافية التي ترونها، طالما أنكم أبناء الشرق، الترتيب ليس مهماً ولا الأزمنة ولا الأمكنة، الأحداث حصلت، وهي قابلة للتكرار، أفعل هذا وفاء لرجل كان بيننا، عاد ولم يعد..

كان اسمه نورس حاتم عبدالله، وقد استخدم اسمه معكوساً في روايته، ولم يكن إسمي حسن حسن، فأنا نمر نمر حسن عدنان، ولذلك كان توقيعه ( ن. ح. ع ) هذا كل ما يمكنني فعله، سأنفذ توصيات الأستاذ عبدالله، وسأبدأ غداً دورتي التدريبية لقيادة القطار.. سأمر بالقطار على السهول البعيدة، وفي الأنفاق المظلمة،

*لكن كابينة القيادة دافئة، سأصفر بالقطار وأفتح النافذة، أشم الهواء، ربما أبرد قليلاً وأنا أسمع صوت صافرة قطاري، وأسمع تلاشي الصوت، أنا أيضاً أحب القطارات، مثل خالد وسعد والأستاذ عبدالله وربما سهيل..*

*يا أمي كم هو بارد.. الجو بارد هنا...*

نرجع

## إيضاح

كان العبور إلى الضفة الأخرى حاراً، له نشوة انتصار زائفة، وكان الإحساس بالنجاة يتلاشى على مهل.

قال عبدالله كيف ننجو من الوطن؟.. أجل كيف لنا ذلك، لا نجاة.

هناك من انتقل إلى الضفة الأخرى ولم يعبر، هناك من عبر ولم ينج من الوطن، هل كان هذا نصيبك من العقاب ؟ انتقالك، عبورك، ولانجاتك؟

بعض من عبروا عاشوا غرباء، شيء يشبه حياة برزخ، في قبر بانتظار العبور على الصراط إلى جنة أو نار.

كنت هناك، شاركني حسن حكايته، كنت واحداً منهم، لم يذكرني عبدالله، كنت خارج روايته، وكنت جزءاً من هذه الحياة، التي جمعها في زاوية انتقال، لكنه تجاهلني، لم يكتب شيئاً عني، قسمني على شخوصه، وجعل سريري فارغاً سوى مرة واحدة بعد أن حضر الشيخ سهيل عندما قال:

«الآن اكتمل العدد ولن يكون هناك آخرون»

وكان عدد الأسرة ستة أسرة على طابقين.

كنت وعبدالله متقاربين جداً، لعله وجد عدم الحاجة لشخصية مكررة في رواية حصلت، استعار بعض أمكنتي، وبعض حياتي، وبعض أشخاصي، ما حصل لابنه كان في مدينة أخرى.

طلبت إلى حسن تقديم إيضاح صغير يثبت وجودي بينهم، لتصبح الرواية أكثر قرباً إلى ما حصل، أكثر حقيقية، ولم يكن

صعباً إقناع حسن، ليس غريباً ما حصل هنا، وربما ينضم كثيرون إلى رحيل باعتبارهم كانوا جزءاً مما حصل ويحصل في زاوية انتقال، شاركوا بعضهم بعضاً هواء متشابه، ونجاة ستوزع بالتناقص المتدرج على سنين العمر الباقية.

ثمة صمت كثير في الحكاية، أشياء لم تقل، لم يقلها عبدالله، ربما كان عليه أن يقولها، بصوت رجل تركه صامتاً، هل اعتمد على خيال القارئ لتفسير صمت أشباح ظهرت بين السطور، أو في فراغات تطلبت إقحام صمت رجل كان موجوداً ولم يقل شيئاً، وكان عليكم أن تعرفوا أن خفياً كان هناك، لم يصرح بما علينا توقعه، أو تخيله...ليقول أن كثيراً منكم كان معنا، جزء من رواية توقفت كتابتها ولكنها تكتمل بخيالات من يقرأ.

لقد عبر حسن وسعد، لكن روح خالد بقيت معلقة لم تلحق بجسده، تنازعا وافترقا، ولم يجد عبد الله جدوى من البقاء هنا، بعد اختفاء ولده، وبقي عبوره ناقصاً لم يكتمل.

كنت هناك، أرقب نهاية ما.. نهايات، رحيل، وعذابات.. وبدايات.

**نجع**

**نجع**

**ألمانيا - إيسن**

2017 - 12 - 30